نــــوادر
وحكايــات نــادرة

أحمد النويري

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسم الكتاب: نـــوادر وحكايـات نـادرة
تأليف: أحمد النويري
رقم الإيداع:
الترقيم الدولى:

الطبعة الأولى ٢٠١٧



القاهرة: ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل
شارع ٢٦ يوليو - من ميدان الأوبرا
٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko__5@yahoo.com

حتى بودرنّه إطير

شاب ذهب إلي فرنسا لدراسة قيادة الطائرات، ظل خمس سنوات يدرس بجد ومثابرة، حتي تحصل علي شهادة تخول له قيادة أحدث أنواع الطائرات المدنية، عاد إلي الوطن ومارس هذه المهنة سنوات عديدة، حتي شهد له رؤساءه وزملاءه بالمهارة والتميز.

ذات مرة حدث هذا الشاب صاحباً له قال:

عندما كنت في فرنسا ذهبت إلي مدرسة لقيادة السيارات، لاستخراج رخصة تخول لي قيادة السيارة، حيث لا يسمح لي بقيادة السيارة بالرخصة الوطنية التي تحصلت عليها قبل سفري.. أفادني المعلم بأن يجري لي اختباراً.. قلت: أنا أقود السيارات جميع أنواع السيارات في بلادي منذ ثلاث سنوات.. ولا أحتاج إلا إلي بطاقة مختومة من المدرسة، وأنا ليس في حاجة إي تدريب.. لكن معلم القيادة في المدرسة أخبرني: أن لابد من الاختبار حتي يمنحني الرخصة المطلوبة.

قال: وافقته علي طلبه، فاخذت مقود سيارة التعليم بجانبه وأنا معتدّ بنفسي، واثق من قدرتي علي قيادة السيارة دون أخطاء يواصل الشاب، القول:

عندما فتحت باب السيارة لأجلس علي الكرسي خلف المقود بجانب المعلم، لم التفت يساري للتأكد من خلو الطريق من المارة والسيارات القادمة من نفس الاتجاه، ثم أخذت طريقي دون أن انظر في المرآة العاكسة علي الجانبين، ولم استخدم الإشارة الضوئية التي تنبه إلى أنني سادخل الطريق العام.. قال بعد

عشرة أمتار طلب مني المعلم النزول، ونبهني إلي ثلاثة أخطاء ارتكبتها أثناء سير عشرة أمتار، وقال لي: أرجع بعد اسبوع وحاول أن تدرس قواعد المرور علي الطرقات العامة.

قال: رجعت بعد أسبوع وأنا واثق من أنني سأنجح هذه المرة في الامتحان، ولما أخذت مكاني ورآء عجلة القيادة متفادياً الأخطاء الثلاث السابقة، كنت أمسك المقود بيد واحدة لإظهار مهارتي في القيادة ودخلت الطريق. طلب مني المعلم التوقف.. وقفت ضناً مني أنه – المعلم أجازني لكنه أخذ يدي اليسري وثبتها علي ثلث المقود من أعلي، وأخذ اليمني ووضعها علي ثلث المقود من اليمين وقال: هكذا يجب أن تقود السيارة في الطريق العام عد بعد أسبوعين.

بعد أسبوعين عدت وأنا واثق هذه المرة من اجتياز الاختبار.

قال – الشاب – يتكلم – فلما سرت هذه المرة بسلام ما يقارب نصف كيلو متر رن منبه الهاتف في جيبي أخذته بيدي اليمني وقبل أن أقول (ألو) قال لي المعلم: قف من فضلك وعد بعد شهر، واستمرت المحاولة قرابة ستة أشهر وفي كل مرة يكتشف عندي أخطاء فاعود خائبا، ولم أتحصل علي رخصة قيادة السيارة إلا بعد جهد جهيد.

وعندما منحوني رخصة لقيادة سيارة قالوا لي: أحسب أن جميع هؤلاء الذين يسيرون علي الطريق ويقودون المركبات كلهم مجانين، وعميان وأنت مسئولا عن سلامتهم.

نعود إلي بقية الحكاية، أو علي الأصح النادرة في هذه الحكاية، والتي يقول صاحبها: أنها الحقت بي إهانة نفسية بالغة لم أقدر علي ردها في جميع الأحوال،

وجعلتني أنا الرجل المتعلم والمتحضر المعتد بنفسه ومتفوق علي غيره، غير قادر علي محاجّة رجل وصفني بصفة مهينة، وكنت انظر إليه بنوع من الدونية، وقد جعلني دونه بمراحل، وأن علمي الذي كنت أفتخر به مسحه بلذعة من لسانه، لن أنساها ما حييت.

يواصل الحكاية فيقول: كنت أقود سيارتي الفارهة علي طريق العزيزية نالوت، في زيارة لأهلي في الجبل، وفي بوابة بئر عياد توقفت في البوابة بإشارة من شرطي مرور دون رتبة – نفر – طلب مني رخصة القيادة.. بحثت في جيب السيارة أمامي لم أجدها فتشت في جيوبي دون طايل.. نزلت وأنا أرفل في ملابسي الفخمة.. تصنعت نوعا من الفخفحة وقلت للشرطي باعتداد: يظهر أنني نسيت الرخصة في البيت قال: قيادة السيارة دون رخصة يمنعه القانون.

قلت له: بشيء من الحدة والغضب يا سيد أنا طيار.. أنسوق في الطيارات في السماء.. ما أسوقش سيارة علي الأرض؟!

قال لي: في سخرية جلية وتهكم صريح: أحنا طلبنا منك رخصة تسوق بيها سيارة علي الأرض ما قنالك أطير وألا ما أطيرش.. الطيار حتي بو درنه أطير.

نادرة

تبرة ومصباح

كان يناديها: تبره، وتناديه مصباح، علي غير عادة أهل حيهم الذي ينادي الزوج زوجته فيقول: أنت.. وتناديه: يا هوه.

مصباح من أسماء الفال، وتبره من أسماء القيمة بمعني: الذهب أو الذهبة، هو فأل وبركة، يضوي: من الإضاءة، كالمصباح، وأسمها تبره من التبر الذهب وللذهب قيمة وثمن.

كانت في الغالب عندما تستيقض في الفجر تصلي ثم توقضه لأداء الصلاة في الموعد ذات يوم ضلت تبره تحت الغطاء يقضي.. نهض مصباح فصلي ولاحظ أن سجادة الصلاة غير مفروشة كالعادة، عرف أن زوجته لم تقم لأداء الصلاة، عاد إلي مخدعهما.. قال: تبره نوضى صليّ.

-أنا ما أنصليش.

-لاه.. بتولىّ إيهوديه؟!

-ما نصليش وخلاص.. ربي اجيب الفهم.

-وسوس له العقل أمرا.

-آه.. العادة يا محاميد.. عبارة تقال في الإشارة إلي ما يعتاده الناس من أمور طارئية.

مازال البعض لم يفهم.. كيف ما قال الذئب اللّى ما فهم أجعله باش فهم.

الليالي السود

هذا بدوي يضرب خيمته بعيدا عن طرف النجع.. طبع متأصل فيه حتي أخوته أشقاءه لا يجاورهم عن قرب.. أما الأباعد فلا يخالطهم إلا في أحيانا نادرة، ربما في المناسبات القاهرة جدا، كالمأتم والأفراح التي لا تقع إلا في فصل الصيف – الأفراح – حين يفرغ أهل الحي من الحصاد.. هذا الرجل له بنت وحيدة، حذقت كل أعمال البيت التي تعلّمتها من أمها، فهي تحصد الزرع وتدق السنابل وتذري وتصفي، وتطحن وتغربل، وتعجن الخبز وتعصد البازين.. أما ثقافتها فهي علي منهج مدرسة أمها.. وبعض تأخذه عن والدها محدود المعارف والخبرات، عدا ما يتعلق بالأنواء والأجواء من مطر ورياح، وقيض وبرد، وفصول تتعاقب، وليالي تمد، وشهور تتوالي، وما في المحيط من روابي ومنخفضات، غدران وأراضي صلدة ورمال، وأحراش ونباتات متنوعة، كلها عن طريق السماع من الوالد والوالدة.. تعرف النجوم: عيوق والميزان، وبنات نعش والجدي، والسميه ونجمة سهيل، ونجم أم ذيل والثريا وطريق خانب التبن، ونجمة المغرب والسرايا، والثور وبقية النجوم التي تتعدد أسمائها وتتغير من منطقة إلى أخري.. تعرف أيضا: اللّى حرث في اكتور ما يلحقه جوع مارس، وليا قوست في الضحوية سافر أو عليّ الحوية، وليا قوست في العشية دور شجرة تقية.. وقولو لركابة الخيل نجم أم ذيل جاكم الياغربت يا هناكم وليا شرقت يا شقاكم،.. وليا غرد أبريل يبسو عروق الشعير لو كان ايضلو في بير، وما بعد مارس ربيع، وقت الحسوم أرمي عباتك وعوم، تعرف فورار وقرة العنز، وقرة شوله، وقرة الشيباني، مطر الصيف دموع قبلي، والشرقي يسل العقل، والباش، والبحري من قراجيم الحوت، عجاج الغربي والقبلي ينسف من سيناون، البرق والرعد وسحاب الغيث، قوس قدح، تسمع قولهم: الخاش

غالب الظاهر وما يستحي وقت من وقته، فسوخ الليالي وظهور الميزان والمعدودة، تعرف المراح والمرسال، والمصدار والظمي، والدراس والحلب والمروب والمتراسه، والمخض والزبده واللبن والجبنه واللقط الذي تعده أمها.. هي تحذق كل ما يدور في بيتهم: المعارف المهارات التي تعلمتها من أترابها والنساء من في سنها، والعجايز الكبيرات بالسن حين تتاح لها فرصة زيارتهم أو الاتصال بهن في بعض المناسبات، هي تسمع أباها يذكر لأمها: دخول الفصول الربيع والخريف والشتاء والصيف، وأن في الشتاء ليالي منهم عشرون ليلة يسمونهم الليالي البيض والرعفرانيات، والليالي السود التي يخضار فيهم كل عود: صاقعات - باردات - الليل دافيات النهار.. هذا كل ما تعرف أو بعض من معارف لا تتعدي الخيمة ومشتقاتها.

وهي الآن مخطوبة لرجل من الحي معروف بالكرم والوجاهة والوجه حسن التصرف لبق، له فراسة البدو وحذقهم، المادي منه والمعنوي.. العادات والتقاليد والعرف بما فيها من الفرح والحزن، والفال والتشاؤم، والأمل والطيرة وما يعتقده أهل البادية ويؤمنون به.

نهاية الحكاية بني الرجل بزوجته ودخل عليها خباءها لأول مرة في الليلة الأولي.. وهي تسمع من النساء يقولون: علي المرأة عندما يدخل عليها زوجها، عليها أن تبدأه بالحديث فتتبسط معه فالرجل يحب المرأة المتحدثة. فما كان منها إلا أن بادرته بقولها: زعمه خشو الليالي السود؟؟

قال لها هذه أول ليل فيهم وخرج من عندها ولم يعد.

نـــادرة

كانت بينهما علاقة آثمة، هي متزوجة وهو متزوج، لم يحترم كل منهما رباط الزوجية المقدس، زين لهما الشيطان الفعل، فكانا في الهوي سوي، غافلين عن المعصية والذنوب التي يرتكبانها كلّما سنحت لهما الفرصة المسروقة، ونسيا أن الزنا من الفواحش الكبري ومنكر حرمه الله في محكم كتابه، ضلا سادرين في علاقتهما المحرمة حتي بعدما تقدم بهما العمر، كان هو خدينها وكانت هي له كذلك، وقد تسامع بأمرهما الناس، ولا كت سيرتهما الألسن فكان الغمز واللميز يطالهما وهما عارفين.

وتقترح المرأة ذات خلوه مع صاحبها، أن يرافقها إلي الحج، فقد قررت أن تزور البقاع المقدسة مع محرم لها دبرته، هو ابن أخت لها دفعت له تكاليف الحج.. اقترحت علي صاحبها أن يرافقهما في رحلة واحدة قائلة له: برّ خفف أذنوبك وطهر فريستك وتوب إلي الله فأنا قررت التوبة.

سادنا أنا وأنت اللي درناه.. الرجوع إليه.

قال: يا زنيك كلام.. حتي كان القلب ما زال أخضر.. وأنت زعمه خلاص ما عادش تجيك رفة شنيبات القطوس وين يشبح الفار؟!

-يا ودي فيه البركة.. إن شاء الله ربك يغفر.. لامته بنقعد وصغار أنا تو قريب عمري يوصل لربعين - وهي تجاوزت الستين بسنوات - حتي قستي قريب أتشيب، وبنت بنتي يخطبو فيها.. يا سرنا.

-اللي اتشوفيه أنا مستعد.. خليني بس نوتي روحي وعلي بركة الله.

-آماله هو هاكا.. كلمة فاتت كلمة.. وحتي ولد أختي تو أنقوله عمك فلان ماشي معانا.

-ردي بالك.. بالك طائفة علي وذنه كلمة منه وإلا منه، وعارف اللي بينا.. يبدأ يشبحلنا في شبحة مش هي.

-لا لا ما عنده علم بشيء.. هو راجل في حاله وما عنداش علي هالدواوي الفارغة.. غير ما تبدأش حتي أنت شنيباتك يرفو.

-يستر الله، الواحد ماش بيلوح أذنوبه في هاكه التراب الطاهر.. يزينا منه حتي كانا باهي المتاخذ.

-حتي أنا نعارك في نفس في الليل وفي النهار.. مرات نقول خلي انزويدو عام وإلا ثنين.. لكن ربي إن شاء الله يغلبنا علي النفس.. وكيف ما تقول صاحبة الكلام (قلبي بغي التوبة وعيني ما بت.. وغارت علي رزق العباد وجابت).

-الخلاف الدنيا علي أيام العز والصغر عديناها مع بعض في زهي وطرب. لكن خلّي نتوكل وعلي الله وربك ادير طريق.

وسافرت إلي الحج مع ابن اختها المحرم وسافر معهما الحاج.

طالت السفرة ذهبوا عن طريق السياحة مرورا بالقاهرة ومنها إلي بيروت، ثم دمشق، ومن دمشق رأسا إلي جدة.

في تلك المحطات اقترحت الحاجة علي الحاج صاحبها لقاءآت عابرة خفيفة في غفلة من المحرم الذي غالبا ما يخرج من محل سكناهم - طبعا الفندق - ثم وأن الحاجة وقد تجاوزت الستين وأصبح عندها - الشخير - ضرب البف

فطلبت من ولد أختها أن يحجز لها غرفة بمفردها حتي لا تزعجه أثناء النوم.

في مكة كما قال الراوي، وبعد أداء فرائض الحج والعمرة.. التقي الحاج بالحاجة في الليل بتدبير تم بنهار.. وعندما اعتلي الحاج الحاجة قالت له: يا حاج.. حتي غادي علينا الكلام.. تاهميني بيك.

قال الحاج: خلّهم ايقولو.. يا ويلهم من ربي يوم غدوه.

وحكاية المحمول

الهاتف المحمول كما يطلق عليه في بعض البلاد، وفي بلاد أخري يسمونه النقال، وهاتف الجيب، أو الخلوي، والبرطابل كما في تونس والجزائر والمغرب والموبايل في بلاد غيرها، خليط من الاصطلاحات بعضها فرنسي وبعضها إنجليزي وبعض آخر في لغات ولهجات محلية.. هذه بسطة في سياق اللزوم الذي لا يلزم فلا بأس إذ مهدت لحكاية حدثت في الواقع، علي أيام المحمول هذه ترتب عليها حوارات وجدال بين طرفين فيهما من الطرافة والمفارقات ما يضحك ويبكي ويستدر الشفقة والعطف، وفيها قصة وصدق أظهرت الحقائق جلية واضحة بعد التدليس والتزوير والمغالطة والغش من كلا الطرفين.

هي عانس تخطت سن اليأس وتجاوزتها بسنوات، معني ذلك أنها كانت في الخمسين من عمرها أو تزيد، قريبا من سن الشيخوخة، وكانت كما يصفونها (مدخمشة) أي أنها لا سوداء ولا بيضاء.. كانت عجفا وفي عينيها حول، وفي رجلها عرج، وهي علي كل حال لا لون ولا عون كما يقال. أما صاحبها مجازا – فهي لم تتعرف عليه بعد – فكان أنتن من الثوم غير الكرّات، كان الرجل أعرج بامتياز، أصابه الشلل حين كان طفلا ولم تكن توجد الامصال الواقية الخاصة بهذا المرض علي أيامه، هو أيضا كان كبيرا بالسن رغم أنه يصغرها بعشر سنوات.. كان المرض قد أصاب رجله اليسري ويده اليمني فأصبح مختل التوازن، وكان ضعيف البنية يميل إلي القصر، قميئ وفي لسانه رثة ينطق السين تاء وفيه عيوب أخري خافية وظاهرة.

رن الهاتف في جيبه.. فتحه بيده اليسري السليمة وضعه علي أدنه دون أن يدقق في الرقم الظاهر علي الشاشة قال: نعم تفضل.

-عفوا أماله قيسني غالطه؟

-لا حشاك من الغلط - سامحيني منو أنت؟

-أنا.. محسوبتك نرجس.

-محسوبتي ونصف.. أنت تنحسبي وينحسب لك ألف حساب: الاسم نرجس أحلي اسم.. والصوت ملائكي.. موسيقي تشنف الأسماع وما خفي لابد أنه أعظم.

-الله أخليك يا ذوق.. يا أدب.. يا أحسن من يقدر ويحترم ويبجل يا حاج وإلا شنو نقول؟

-محسوبك حميدة.. كيف ما اتنادي في أمي، والاسم المسجل في البلدية حمودة ونبّي انبدله أحمد.

-أسماواتك الثلاثة كلها حلوة، وأنا بنسميك حميدة، اسم فيه حنيه وتربيج، وفيه جرس موسيقي.. خليك حميده الله أخليك.

-يا ستي أمرك.. أنت تفصلي وأنا نلبس، اللي تبيه أنت أصير.

-يا ما نبي كان اللي نبيه أصير.

-وليش ما أصير.. غالي وطلب رخيص.. ومن قال مش اللي في خاطرك في خاطري؟

-إن شاء الله يا بنت قلبك عامر زي ما ايقولو.

-مني أنا عامر لين فايض، يا بعد عمري يا نرجس يا أجمل اسم سمعته في حياتي.

-بعيد السو عليك إن شاء الله أنت بعد عمري يا حميدة يا غالي.

-الله.. ما أحلاها منك.. يا حميدة موش كيف تقول فيها أمي.

-أمك تقول فيها حنان وشفقة وفخر واعتزاز، وقولها ليه طعم خاص. أما أنا ربما فيها معاني خلاف ما في قول أمك الله اخليك ويخلي أمك إن شاء الله.

-يسلم فمك ويصدق ما في قلبك.. يا نرجس يا غالية يا هدية يظهر أنها جتني من السماء.

-ومن قال أنت مش هدية وهدية غالية جاد بها الدهر عليّ أنا؟

-واحنا علاش كل واحد أخبي في مشاعره.. وأحاسيس ومشاعر كل واحد نحو الآخر مشاعر طبيعية إنسانية تنبض بالحياة الحلوة اللذيذة.. لماذا نحرم أنفسنا من لذة العيش وهي مباحة بل هي اكرام للنفس وراحة للبال، وإشباع للرغبات.

-خطوة خطوة نتلاقو في نفس الطريق.

-مني أنا جاي نجري جري.. أنقز بالخطوتين.

-وأنا جاياتك وطريقي ليك سامحه.

-مرحبتين بضيي العين.. نهاري مبروك سعيد ليام ساعة أنشوفك.

-حميدة أنت قداش عمرك؟

-هو تبي الحق أنا نشعر باني ظالمك شوي، من هذه الناحية.. فيه فرق بيني وبينك تقريب ١٣ سنة.. أنا زي ما قتلك في الثلاثين وأنت طبعا زي ما قلتي عمرك سبعطاش.. والفرق بين الرجل والمرأة لا يجب أن يتجاوز عشرة سنوات.. لكن حسب ضني فيك لابده أتسامحيني في ثلاثة.

-لا معلهش ثلاث سنوات زايدات مش كتير الراجل مش زي المرا المرا أطيح قبل تسلملي يا غالي.. عمرك طويل إن شاء الله.

-الله أخليك حبوبتي نرجس.. نبي نسمع منك وصفك كان ما عندكش مانع.

-ما يغلا عليك طلب.. أنت تاخد روحي يا روحي.. أسمع يا سيدي.. أنا طويلة مليانة.. بيضاء حمره.. صاحباتي أمسميني الجرمانية.. شعري أصفر بحمار.. عيوني خضر.. الشعر واقفة يوصل لخشم الساق أوين نقعمز يحوس وراي وقدامي.. الوجه اللي أشوف أصلي عالنبي والسيقان ما اتقولكش ديما لابسه قونه طويلة خايفه م العين.. الفم زي الخاتم والمضحك كيف الجمار.. واللي ما ينقالش ما ينقالش.

-ياسرني خذيتيني علي ظهر.. معادش في عقل.. أمتي انشوفك بس؟

-كيف هالساعة الصبر باهي.. انتم الرجال صبركم شوي واللي يصبر ينال.

-ومنين بيجيني الصبر يا نرجس يا غالية.. اللّي خلاه في عقلي الصوت المنغّم والاسم الجميل اللي يرقص بين الشفائف واللسان كمله الوصف اللي سمعته.

-وأنت شن نسمع منك؟ حتي النسا احبو ما يحب الرجال منهم.. كيف أنت؟

-أنا شن بنقولك.. هو الواحد ما يشكر في نفسه.. لكن معلهش ليك أنت يا حبيبتي بس.. أنا يا ستي طويل عريض المنكبين أجرد من اللحم - أسبط - الوجه أيقولو زي يونس الهلالي والفعل زي بو زيد.. مسميني ملح الميعاد ويقولو علي اللباس: حميده لبسه فرجه وكلامه غادي ما افوتوش.. الكلمة اللي نقولها تمت - طاح الكاف علي ضله.. ليا تكلمت أنا الناس أكل تسكت.. وهذا اللي موجود الواحد ما يبيش أزكي نفسه.. وأنت شن رأيك؟ ما عندي ما انقول بعد يونس وبو زيد الهلالي إن شاء الله من قسمي.. وضل المحمول (النقال) ينقل بينهما حديث الأماني والأوصاف التي لا تنطبق علي كل منهما لا من بعيد

ولا من قريب.. كذب وافتراء.. تدليس وتزوير للحقائق.. مبالغات لا صلة لها بالواقع.. كل منهما يجسم محاسنه الخلقية والخلقية للآخر.. زيف ما بعده زيف، وخداع وتغرير كبير.. وكان كل منهما تراوده الشكوك في تصديق ما يسمع من الآخر.. غير أن كل واحد منهما يحاول اقناع نفسه بطرح النصف علي الأقل من تلك المبالغات فيرضي بما تبقي، وما تبقي كثير لو صح علي وجه الحقيقة.. حتي جاء يوم الكشف.. يوم يحصحص الحق، ويتضح الأمر ويظهر كل شيء واقعاً ملموساً، لا مواربة ولا غطاء - كل شيء في الطبق - كانا قد اتفق علي الزواج بعد موانسة ومغازلة وحديث تلونه الأحلام بالورود، وتجنباً للامتحان العسير واللقاء الذي سيكون صادما لا شك بالنسبة لهما لو حدثت المعاينة نهارا جهارا، فهما يعرفان نفسيهما وما في كل منهما من عيوب ستكشفها المواجهة وإن كل منهما قد ضلل الآخر، وكذب عليه كذبا لا مثيل له، وانه ليس هناك شيء مما ذكر، بل إن عيوب الخلقة والخلق في البشر تجمعت في كل منهما، ولم تمنحهما الطبيعة شيئا من جمال لا في المنظر ولا في المخبر.. والحال هذه اتفقا وعلي أن يكون اللقاء يوم الخطبة اختصارا للوقت، وتجنبا للإحراج خاصة بالنسبة له فهو متزوج وله أولاد، واللقاءات سابقة الخطبه لا لزوم لها كما اقترح هو ووافقته هي فلكل علته التي قد تقوض الموضوع من أساسه، فيفسد كل شيء ويكون الإحباط وخيبة المسعي كان هو متزوج من امرأة جميلة طيبة ولود، أوقفها عليه خاله الذي كان يعطف عليه بسبب علته - الشلل - الذي أصابه وهو صغير، فكان الرجل يحب اخته التي تكبره بالسن ويقدرها بمنزلة امه فلما طلبت بنته لولدها وافقها رغم أنه ليس بكفوء لها.

وجاء اليوم المشهود حيث اتفقت واياه علي أن يتقدم لخطبتها رسميا، كانت

هي تتوجس خيفة من اللحظة التي تنكشف فيها الحقيقة، فهي قد زورت عمرها وشكلها وكل شيء فيها، ولا يعرف منها إلا أسمها المزور هو أيضا فاسمها الحقيق أمباركة ولكبر سنها ينادونها أمي امباركة، وكان هو أشد منها توجسا ورهبة، لأنه مزورا مغالطا للحقائق، فهو كما سبق وصفه أعرج مشلول، وكل عيوب الدنيا فيه مظهرا ومخبرا جاء يصحب معه ابن خاله يشد به ازره حين يشتد الموقف الذي كان يتوقعه.. وجاءت هي تقدم القهوة، وكانت علي الشكل الذي تقدم وصفه - اعوذ بالله من الشيطان الرجيم - قال لابن خاله: هذه قيسها الخدّامه أجابه الرجل: أكيد هي الخدامة، وستعقبها هي بعد أن تأخذ الخدامة الصفرة. جاءت مرة أخري تأخذ صفرة القهوة.. تململ هو استعدادا للمفاجأة فالعروس لابد قادمة، قال لها: هيا نادي لنا العروس كات هي قد عاينته من نافذة صغيرة عند دخوله وكانت تضنه الشاب الذي يرافقه.. قالت له: ومنو منكم العريس؟ قال: أنا العريس.. قالت: وأنا العروس.

فال أنت العروس؟؟! أنت العروس؟! شفشفه أكبر من أمي.. ندفل علي الوطي وما ندفلش عليك.. هالوجه المشئوم.. أنت اللي قلتي مسمينك الجرمانية؟!.. وشعرك أصفر وجهك زي القمر، وما خليتش حاجة سمحة في النسا إلا ولصقتيها فيك.. يا ملعونة يا كذابه يا شيطانة الأنس يا شن أيقول فمي.. خزيه علي ها لرمه.. وضعت يديها في نصفها وقالت كملت؟ قال شن كملت لو كان نقعد للصبح ما انكملش - أنت تجي مرا يا رسول الله!! قالت: باهي أسمع يا لعرج يا مشلول.. يا عائب يا خائب يا بوبريس.. حتي مشيتك علي ركن زي الضبع وإلا البغل المهجور بالخلاف.. يا مصدي يا لكشخ يا لحول قاطعها شوف شوف يا سالم منهو اللي اعيونه اصبو في بعضهم أنا والآهي؟!

كان الرجل رفيقه يغالب الضحك.. واصلت هي سبحة السباب والتعريض بالعريس: وأنت تحساب روحك راجل.. انت ربع بنادم يا سرافه يا وجه البوكشاش.. يا خامر يا مضحكة انداده.. أنا انديرك راجل؟!

ما أبعد مكة علبو حمار.. يعطوك كان الدّكم علي هالكشخه المشئومة.. نوض أظهر بلغمة علي كبدك، والله لو مش قدرها لراجل اللي معاك نكفي علي راسك هالصغره.. يا كلب يا غشاش، يا طماع يا خامج.

هيا نوضي يا سالم خوي الله لا تسامح هالنقال اللي عرفني بها لغوله اللي فيدها عمود.. صمهود إن شاء الله ياكل كبدها.. ير زيك في عمرك يا شفشه الشفات يا عزوز يا جقربه.. أنت كراع في القبر وكراع بره منه.. أش مازالك في عمرك، وبتزوزي، ما أصح والله وجهك.. خزيه.. خزيه.

وما كان منها إلا أن تركت الرجل رفيقه يخرج من الباب وتهجم عليه.. لعرج المسكين الذي جاء خطيبا – فتضرب رأسه بتلك الصفره في يدها وتركله برجلها علي قفاه وهو يحاول الخروج من الباب والماء وبقايا القهوة تسيل فوق رأسه.. خرج وهو يسب ويلعن ويشتم وهي تشيعه بأكثر مما يقول حتي غاب عنها.

عاد إلي بيته ونظر إلي زوجته فاخذ يقارن بينها وبين من ذهب لخطبتها، فلا وجه للمقارنة بين الاثنتين.. قال في نفسه هذا حال من لا يحمد النعمة يطرأ عليه ما طرأ عليّ اليوم.. الله لا تسامح النقال.. وانتشرت الرواية علي لسان صاحبه في الحي كله، وضلت حديث الناس لوقت طويل فكانوا يقولون: كيف عروس حميده عندما يصفون واحدة تماثلها شكلا وموضوعا.

تمت

تلك هي مشيئة الله

رجل أصبح له شأن وذكر، بعد أن اجتاز مرحلة الشباب والدراسة، عرفته صغيرا تلميذا في المدرسة، كان متوسط الذكاء في مرحلته العمرية الأولي، هو من عائلة ضعيفة الحال، رغم أن جده لابيه كان ميسور الحال وكان شيخا لقبيلته ومن أهل الكرم، له جاه ووجه كنا نسميه الشين -الفتي- لأنه فاقد لمسحة من جمال في الوجه لكنه كان زين الأفعال، فتي هادي متسامح ودود، اجتاز المرحلة الابتدائية بصعوبة، تحصل علي الشهادة في الدور الثاني، واصل دراسته الثانوية، نبغ فجأة في أغلب مواد المنهج ونجح بامتياز.. اضطرته ظروفه المادية للالتحاق بإحدي شركات النفط.. اتقن الإنجليزية، نجح في الإدارة نجاحا باهرا، ظهرت عبقريته وهو في ريعان الشباب.. أصبح ينعت بالعبقري والفيلسوف وفي بلدته عرف بهذا الاسم (الفيلسوف) هكذا هم أصحاب العبقريات في التاريخ، من أديسون إلي انشتاين ومن قبلهما وما بعدهما من عظماء الفكر وعباقرة الاختراع.. ذات مرة كان هذا الرجل يشغل موقعاً متقدما في الإدارة، كان مديرا عاما في إحدي الشركات التي تضمّ مئات الموظفين والعمال.. كان حازما وناجحا في عمله إلي أبعد الحدود، ومنصفا وعادلا بين العاملين معه.

جاءه أحد العمال في إدارة من الإدارات وقد سمع أن المدير العام – صاحبنا – يتقاضي مرتبا ضخما بالنسبة لمرتبه.

قال العامل للمدير:

-هذا مش عدل.

-عماد تتحدث؟

-عن المرتبات.. واحد يأخذ ألف واحد ياخد مئة.. مش معقول.

-تقصد أنا مرتبي ألف وأنت مئة؟

-قلتها بنفسك.. كيف واحد ياخذ ألف وواحد ياخد مئة كلنا أولاد تسعة.

-قلت مش عدل.. لكن هل الناس أكلها متساوية في كل شيء؟ أنت مثلا نشج فيك صحيح الله لا حسد.. هل تشكو من علة؟

-لا.. ما عندي غير الصحة نضرب الحيط انهده.

-قول الحمد لله علي أفضل نعمة أنعم الله بها عليك.. هل عندك أولاد؟

-خمسة أولاد ذكور حاشا عيونك وخمس بنات.. عشر وأنا وأمهم.

-اسمع يا سيدي.. أنا اللي قدامك عندي أمراض مزمنة.. السكر والضغط وضيق التنفس، وبلاني الله بآفة التدخين.. أنا لا أكل ما تشتهيه نفسي من أنواع الأكل وكل شيء عندي بحساب حتي النوم والطعام والشراب لابد أن أكون حذرا في هذا الخصوص، ثم الأخري أنا لم أرزق الولد لا ذكرا ولا أنثي.. هل هذا عدل كما كنت تقول؟ هل تتنازل لي عن ولد من أولادك وتاخد مرتبي وأنا أخد مرتبك؟

-لا مش ممكن.

-اذا فانت أحسن مني حالا.. لكنك انكرت نعمة الله عليك ولم ترض بما قسم الله لك.. هكذا هي الحياة يا خي لا يكتمل نعيمها.. هناك من فاز بالصحة وهي النعمة الكبري، وأنت فزت بها كما قلت، وهناك من فاز بالذرية وهذه نعمة أخري كان لك منها نصيب.. وهناك من اعطاه الله العقل، والجاه والحكمة، والإنسان إذا عد نعم الله عليه لا يحصيها لكنه غافل وغير شاكر.

عمـــران

عمران رجل له وجه في المحيط أينما حل، فهو من ذوي المعرفة والثقافة الشعبية الواسعة، هو مستمع جيد ومنصت في انتباه حينما يغش المجالس الموسعة والضيقة علي السواء رغم أنه لم ينال من التعليم الرسمي إلا قليلا، إلا أنه قارئ نهم ومستوعب، وعلي درجة كبيرة من التحصيل. فقد نشأ في وسط شعبي يزخر بالثقافات والمعارف الشعبية والمأثورات في الحكمة والحديث المفيد الذي تستخلص منه العبر والعضات ذلك لأن عمران كان ابن شيخ لتجمع بشري في منطقة باب بن غشير بطرابلس كامبو باتاريّا، الأمر الذي اتاح له الاختلاط بوجوه القوم الذين يستضيفهم والده، باعتباره شيخ مقدم لدي الدواير الرسمية الحكومية في ذلك الوقت، فكان له رافد من التحصيل الثقافي والمعرفي إلى جانب ما فطر عليه من نباهة وشغف بالتحصيل وذكاء، فكانت مكاسبه كبيرة من الحكمة وطلاوة الحديث والسير وقصص البطولة والمواعض والمواقف والمفارقات وهو مغرم باصطياد النوادر وحكايا التسالي وفكه الحديث، وله خاصية متفردة في خلق النوادر، وايجاد التخريجات للمواقف المختلفة منها علي سبيل المثال ما كان يتندر به بعد حدوث ثغرة الدفسرسوار اثناء حرب ٧٣ حين نصبت خيمة المفاوضات عند الكيلو ١٠١ والتي سميت خيمة العار أو خيمة شارون غرب القنال، وقد عبر الجيش المصري البطل قناة السويس شرقا ودمر خط بارليف وسحق القوة العسكرية الإسرائيلية المتواجدة علي حافة القنال وتوغل في سينا مسافات كبيرة في وقت قياسي حيث رد اعتبار ورد الأرض المحتلة.

كان عمران يتندر بشأن هذه الحادثة علي سبيل المزاح، فكان يقول لمن يسأله عن رقم هاتف بيته: كان يقول رقم هاتف هو: ١٠١ قبله ٥ بعده يمين العجائز، ويمين العجائز هو ٧٧ يمين.

لا شرطة ولا بلدية

هذا رجل ألم بالقراءة والكتابة وشيء من المعرفة وحذق بعض المهارات عندما التحق بسلك الشرطة في مدرسة تخرج الأفراد.. تم تعيينه في النقاط البعيدة التابعة لمراكز الشرطة في مكان خارج منطقته التي عاش وتربي فيها في بداية حياته.. تدرج في وظيفته حتي تحصل علي رتبة صف ضابط بعدما قضي عشر سنوات متغرباً عن مسقط رأسه، وكان لا يعود إلي بلدته إلا في مناسبات متباعدة كالأعياد مثلا أو حين يحصل علي إجازته السنوية، بعد سنوات أخري أصبح يجلس في بهو الضباط، حيث رقي إلي رتبة ملازم وضل بعيدا عشر سنوات أخري، حتي أصبح ضابطا كبيرا (رائد) عندها توسط له أحد معارفه فنقل إلي بلدته كرئيس لمركز الشرطة فيها.

كان الرجل وهو بعيدا في نقطة نائية تقع علي الطريق الطويل الرابط بين طرابلس وبنغازي، ولأن المكان يكاد أن يكون شبه خال، لم يؤنسه الا بعض أفراد من الشرطة، يستجد بعضهم بعد أن ينقل بديلا لهم من الأفراد القدامي.. ذات مرة حل بهذه النقطة فرد من أفراد الشرطة المشاغبين نقل إليها علي أثر خلاف نشب مع زميلا له، فابعد تأديبا له.. كان هذا الفرد سيء الخلق مشاغبا وغير منضبط، ويمارس عادات سيئة، منها علي سبيل المثال تعاطي المشروبات الروحية وغيرها من الأسوأ والأضر.

كان الضابط رئيس النقطة متسامحا كريما يتجاوز عن الأخطاء البسيطة

ويغفر الهنات التي لا تضر بمصلحة المواطنين، والمواطنون في تلك المنطقة من البدو الذين يسكنون بعيدا عن المركز، تقل المشاكل بينهم والخصومات لأنهم في الغالب من قبيلة واحدة متجانسة ومنسجمة، وأن حدثت بعض الخلافات غالبا ما تحل بواسطة العرف الاجتماعي الذي يتولاه الكبار والعقلاء منهم. يعود حديثنا إلي الضابط رئيس المركز والشرطي المشاكس، ونظرا للفراغ القاتل في تلك البقعة النائية البعيدة عن العمران إلا من بعض السيارات التي تمر في الاتجاهين بين بنغازي وطرابلس.. كان ذلك الشرطي يطلب أن يكون وقت عمله ليلا، أي من حلول الظلام وحتي الشروق، طلب هذا من رئيس المركز فوافق له، فكان هذا الشرطي يأمر بعض السيارات التي تمر في وقت متأخرا من الليل بالوقوف، محاولا تعطيلها عن مواصلة السير متظاهرا بالبحث عن الممنوعات وكان غرضه من ذلك الحصول علي بغيته: بعض قنينات الشراب الممنوع كان يجدها في بعض المرات فيستولي عليها عنوة قائلا لصاحبها: واصل يا ولد عمي ربي يوصلك سالما وما عادش اتعاود صنعك ثم ينتحي ركنا غير منظور ويصب منها ما يجعله منتشيا كأنه سلطان زمانه، بعد ذلك يغط في نوم عميق.. ذات مرة كان رئيس المركز يتفقد المكلف بالحراسة الليلية علي الطريق العام، وما هو إلا وذلك الشرطي المستهتر المشاكس لزملاءه يمتد علي جانب متوسدا بروزا من تراب وينام نوما هاديا عميقا يحلم بأحلام سعيدة، ايقضه بركلة من رجله وأخذ في تأنيبه وإهماله لواجبه.. فما كان من الشرطي المنسجم مع نفسه إلا أن خاطب الضابط وهو لا يزال يتمطي ويفرد رجليه في كسل ظاهر – بالله عليك ما أطير هاش – خلينا أحنا كيف خشينا في الرقدة الحلوة – قال الضابط: شنميّي اللي ما انطيرهاش؟ نوض يا حمار.. أنت تعمل وإلا راقد؟!

قال وهو يفتح عينيه بصعوبة وفي كسل – السكرة – بالله عليك أنا كيف خذتني عيني.. الله يرحم ولدين صاحب الداف.. الله يخلف عليه.. نشهد ونعلم أنها جغمة.. ثم مستدركا المفاجأة.. محمد أفندي؟ حاضر سيدي وحاول أن يقف علي رجليه فوجد صعوبة، فاخذه الضابط من يده حتي استقام طوله، ولما آفاق قليلا وجه كلامه إلى الضابط: بالله عليك يا افندي محمد عمرك ما ذقت ماء الحياة؟ وأضاف، نلقاه أنه يفوح ويرد الروح ويخلي الشائب شباب الله لا تكسر له محراث ولد العنبه.. مش أيقولو: الشلبه أو لد العنبه كيانتي يا بوي جاي من طاليا.. قالك بطله.. علي الطلاق ما انبطله.. يقولو ذاهب العقل.. اللي بلا عقل ومذهوب شيره اللي ما يشرباش.

–تو أنت بعقلك؟.. عبينا عليك، ويبتسم دون أن يلاحظه الشرطي ويأمره بالوقوف علي رجل واحدة.

–علي طول من الرقدة الحلوه إلي الوقوف علي رجل واحدة، توّ هذا إجيبي منه؟ إحنا غير نوقفو حتي علي رجلينا الزوز.. حتي انت يا افندي مكبر هبالك.. كان غير أدير لك ربي تفتح دماغك وتاخد طاصه، تو تشوف كيف تشبح الدنيا.. هالخلا المخلي يولّى عليك كيف باريس.

–وأنت ريتها باريس.. يا نزيس.. إبليس.. يا أحمار.

–خرف الله يهديك وخلاص.. طيرتها السكره الله أطير عليك الهم.. وإن شاء الله أتجيك زرفه لبلادك.. زي ما زرفوني أنا في هالبقعه اللي كل ليلة نحصل فيها ماء الحياة من كل نوع.. كيانتي علي جوني وكر علي جين علي فودكا علي براندي وسمي لين يعواج فمك.

بدأ الضابط يشفق علي الشرطي السكران ويرتاح لما في حواره معه من مفارقات، وقد أسعدته دعوته له بان ينقل إلى بلاده وقد تغرب عنها قرابة عشرين سنة.. أخذه من يده وذهب به إلي مكتبه، وهو لا يزال في نشوته وقد انبسطت أساريره وظهرت علي محياه السعادة والسرور.. أجلسه علي الكرسي المقابل لمكتبه وأخذ يحاوره بهدوء في شكل سؤال وجواب.

-انقولهم أديرو لك قهوة؟

-بعدين أطير.

-شن هيّ اللّى أطير.. يعطيك ما أطيرك

-السكره.. ويضيف إن شاء الله أطيرني لمالطا.

-وليش مالطا بالذات؟

-فيها اللّى سميتهولك أكل، من الجن للكنياك.

-يعطيك جن.. شنهو الجن؟ يا جن.

-اللّى انودّك.. من الكاس الثالث تحط كمراعك في النعيم.. وبعد الخامس تبدأ أطير في دنيا السعادة زي طوير الجنة.

-وأنت تعرف الجنة وإلا النار؟

-هاذي الجنّه وهاذي النار ويا عامي عماك الله.

-يضحك الضابط متعجباً من فصاحة الشرطي وسكينته وارتياحه التام، وقد كان في حالته الطبيعية متوترا متجنبًا لرفاقه ومنطوي علي نفسه لا يكلم أحد ولا أحد يكلمه.

-يسأل الظابط وأنت من أعطاك الحق في أن تأخذ من الراجل حاجته عنوة؟

-ناخذها منه ونصف.. لو كان خليتها له راهو صمتها ودار حادث مع ناقه قاطعة الطريق.. تورانا نجده واسعاف.. وتحقيق وسين وجيم.. هذا كانا ما انقطعتش رقبته، وخلي وراءه كمثة صغار وهات يا دموع ونواح وناس تعزي.. وأحد ايقول ناعس واحد ايقول مانيش عارف، وهو صامتها للعمي.. يلتفت إلي الضابط قائلا: بالله عليك ما عمركش شمشتها يا افندي؟؟

يبتسم الضابط ويقول متبسطا.. لا مره وإلا مرتين شربت لاقبي.. لا قبي فقهي.. لا هو حلو، لا هو طايت ما اديرش حاجة.

-فقهي؟ مهناش لا قبي فقهي.. هاكه غير باش يسموّه فقهي.. يقولو: اليوم الثالث من نخلته ينزل فقهي.. أنا مجربه وراسك انت يا افندي ويفداك راس ينزل ابيض يهدر أطيح الطير من السماء أسأل أوخيّك مجرب.. عام الشر الله لا تعوده عندنا عشر نخلات في قطعايه بين مليته والجد يده كان ما حجم أوخيّك عدينا بينهم العام من كبيرنا لصغيرنا، شر أحمر لا حد بلوم علي حد.. حتي من النسا ولّت تسكر.. أنت ما ريتش سكرة النسا؟ قوصطو.

استمرأ الضابط الحوار مع الشرطي الذي يا يخلو من فلسفة اكتسبها من عراكه للحياة.. فبدأ - الضابط - يلين له جانبه ويتبسط معه ويستحثه علي مداومة الحديث في شأنه مع شرب الحياة أو الروح كما كان يصف، وفجأة يسأل الشرطي الضابط في اغراء ورجاء ظاهر: تاخذش كويس؟ مازال في الشيشه أكثر من النصف.. ردمتها تحت راس وين ما نعست.

-برّ جيبها أنجربو هو النوم طار.. طار.

-الله يعزّك.. هو نيك عرفت الحق.. البل طيابه واطيب.. تشردح تشردخ وتشد الخط.

ويخرج يتعثر قاصد إمكانه أين دفن الشيشه وهو يغني:

طنطاوي يا حامي طنطا، والشيشه.. الشيشه في الشنطة.. ثم مستدركا.. لا الشيشه وين كنت راقد.

يعود وهو يخفي قنينة الشراب تحت أبطه.. يدخل علي الضابط الذي كان ينتظر ويفكر كيف تجربته مع هذا النوع من الشراب الذي سيجربه لأول مرة، ويحدث نفسه بأن هذا الشرب لن يؤثر فيه، كما يقول عنه الناس أنه ذاهب العقل.

جاء الشرطي بتلك القنينه التي مازالت تحتوي علي أكثر من نصف لتر من المشروب الروحي عالي الدرجة (كونياك).. جلس قباله رئيسه الضابط واخذ يصب في كاس أخرجه من جيبه حتي ملأ نصفه ثم مدّ به إلي الضابط فاخذه منه وهو يتهيبه محاذرا الوقوع فيما يقال عن المسكرات، لكنّه أخذه وسمع صاحبه يقول له مشجعا: دق الدنيا فانيه.. ساعة الطرب ما تبدّ لها بالغضب.. والله ما تندم إلا علي اللّي فاتك منها.. جغيمة مكرشمه تردّ الروح وتسرّح الخيال.

ضحك الضابط واخذ يرشف من الكاس رشفات صغيرة، وهو يمتعض من مذاقها اللاذع ويتأنف، وكاد أن يكف عن اكمال الكاس، لكن صاحبه لاحظ عدم تقبله لهذا النوع من الشراب عالي الكحول، فاخذ منه الكأس قائلا عفوا، في البداية لابد من مزجه بالكوكولا، ثم صب له منها حتي ملأ الكأس وأعاده إلي صاحبه قائلا: غمّض اعيونك وأحدف حدف.. بعد الثالثة لن يكون هناك طعم غير مستصاغ هاذي صنعة خوك، وبعد الخامسة.. دق واسكت.

أخذ نديمة الضابط الكاس وفعل كما اقترح عليه، ثم عاود الثانية والثالثة، بعدها أصبح الشرطي يصبّ والضابط يعبّ، ثم زالت الكلفة، وبدأ الاستخفاف

بكل الاحكام، وانطلق اللسان يخوض في حديث غير متحفظ، وكان الانسجام والانبساط، حتي أخذتهما في نهاية الأمر سنة من نعاس.. الضابط اتكب علي وجهه فوق مكتبه والشرطي أمتد فوق الكنبه المقابلة حتي الصباح.. حين دبت الحركة في المركز وجاء أحد الأفراد يبحث عن الضابط، ليقدم له فطوره وقهوة الصباح في غرفته، فلما لم يجده، دخل إلي المكتب فوجده علي حال لم يعهده من قبل، خرج وعلي وجهه علامات استغراب فاخبر نائب الضابط بالأمر، فغض هذا الطرف وجاء ليوقض رئيس المركز ليتناول فطوره وقهوته، هنا انتبه الضابط إلي وضعه الذي لم يكن علي ما يرام وخرج إلي الحمام ينضح الماء علي وجهه وجاء فلكز الشرطي الذي ورطه في أمر لا تحمد عقباه فنهض مسرعا واختفي في غرفته الي ساعة متأخرة من النهار، أما الضابط فقد لملم الموضوع مع نائبه خاصة وأن القنينة مازالت منتصبة فارغة فوق المكتب.

قبل أيام من واقعة القنينة كان الشرطي قد فرض طريقه أخري للابتزاز، فكان يسأل أصحاب السيارات عندما يأمرهم بالتوقف متظاهرا بالتفتيش عن أية ممنوعات.. يسأل عما إذا كانت عندهم فضلة من زاد متذرعا لهم بانهم ذاهبون صوب العمار، وهو في خلاء لا وجود لبعض المستلزمات فيه، فكان يحصل منهم علي شيء من المكرونة أو الأرز، وبعض الخبز وعلب السردين، وأحيانا يسأل عن العسل لمن هو قادم من الجبل الأخضر، والقادمون من الصحرا يحصل منهم علي الترفاس (الكماة) في فصل الربيع، وحتي الصيادون يحصل منهم علي لحم الأرانب والغزلان، فكان يعد مائدة عامرة بعد منتصف الليل ينادمه فيها صاحبه الضابط، واخيرا اقنع الشرطي رئيس المركز للقيام بجولة في الأودية القريبة لاصطياد الأرانب عندما ينتصف الشهر وتغيب القمر قبل الفجر.. فهو

قد دبر بندقية صيد من بعض البدو الذين عقد معهم صداقات من أجل مصالح متبادلة، وكانت الوسيلة الناجحة في هذه المهمة هي سيارة الأندروفر الوحيدة التي يتوفر عليها المركز تبدلت أحوال رئيس المركز الذي كان يشعر بالتذمر من سوء الحظ، حيث مرت عليه عشرون سنة بشهورها وأيامها دون أن تنقله الإدارة ولو إلي بلدة قريبة من موطنه الأصلي، رغم طلباته المتكررة التي أمتلأ بها ملفه الشخصي، فوجد عزاء في رفيقه الشرطي الغير منضبط والذي أستجد علي المركز منقولا علي سبيل التأديب.. طاب له العيش في هذا الجو الجديد الطارئ علي حياته، والذي تعلم فيه أشياء جديدة لم يألفها من قبل تعلم من هذا الشرطي الفرد الذي لا يعلق أي شريط علي بزته العسكرية والتي غالب لا يرتديها فهو منفلت منها هي أيضا، وهو الضابط الذي يحمل رتبة رائد، لا يحذق ما يحذقه هذا الشرطي الفرد – يوجد في البحيرة ما لا يوجد في البحر – ضل هذا الضابط الرايد سادرا في حياة استلذها مع رفيقه الشرطي، وقد زالت بينهما الكلفة والانضباطية المتعارف عليها بين الضباط والأفراد.. صرف ذهنه عن التفكير في الانتقال حتي ولو كان إلي بلده مسقط رأسه، وما هي إلا أيام وتأتي برقبة من الإدارة العامة لشئون الظباط تفيد بنقل الضابط إلي بلده مسقط رأسه وأن يتولي وظيفة رئيس المركز بها، فهو قد نسي أنه ذهب في أثناء اجازته السنوية منذ خمسة أشهر إلي أحد الوجهاء من معارف خاله ذي المكانة المتميزة في البلدة والذي له داله علي أحد النافذين يرجوه العمل علي نقل الضابط إلي بلدة خاصة وهو قد أمضي عشرين سنة بعيدا عن أهله.. فرح بنقله وحزن في نفس الوقت، فهو من ناحية ذاهب إلي بلده حيث أهله وأقاربه ومعارفه، ومن ناحية أخري سيفارق رفيقه الشرطي الذي أطلعه علي الدنيا الزاخرة بصنوف المتع ولذائذ

العيش، ما كان له بها علم في يوم من الأيام. وجاء يوم الرحيل فاخذ الضابط أشياءه الخاصة وودع صاحبه وداعا خاصاً بعد ما سلم ما بعهدته إلي نائبه وأخذ مكانه في سيارة دبرها له صاحبه الشرطي قائلا لصاحبها: ورأس أوخي عندنا رئيس المركز ماشي معاك إلي طرابلس كان ما عندكش مانع.

-لا ما فيش مانع.. غير راني بنوقف في سرت حوالي ساعة عندي غرض.

-معلهش يعقد معاك، وحتي أتغدو مع بعض وتوصلو بالسلامة إن شاء الله.

-عيني وراس يتغدي معاي عند نسيبي وبعدين نواصلو.

يصل محمد أفندي إلي طرابلس ومنها إلي مسقط راسه قرية صغيرة في الطرف الشمالي الغربي من الوطن.. يستسلم المركز من الضابط السابق المنقول يدوره إلي مكان آخر.. يصادف وجود المركز قبالة مبني الفرع البلدي للقرية.. كان رئيس الفرع البلدي من معارف محمد أفندي، مجرد المعرفة وتطورت إلي صداقة ورفقة.. كانت في البداية اجتماع علي طاسة شاهي، يتبادلانها مرة في المركز ومرة في البلدية، وكانت الألفة وتطرق الحديث إلي الخصوصيات.. الحياة رتيبة قاحلة وعلي رأي غناية العلم: (جريح صادفه بجروح أشاكو بكونين أنعمو) كل منهما أصبح يسبراغوار الآخر.. تكاشفا.. تشرب؟.. نشرب.. دبّر لنا زرده وإن شاء الله ترداس.. غالي يا صاحبي.. تو يخدم بخمسين.. خمسين والا ستين نتقاسموهم.. أرسل إلي صاحب له يتعامل مع أحد المهربين يطلب (طرف) سماه له.. حضر المطلوب.. جاء به الجيلاني إلى محمد أفندي في المركز.. في غرفة جانبية أخذا يتقاسمان قنينة الجن لكل منهما نصيب.. ذحل عليهما رجل بغتة.. سألهما: هذه البلدية؟ محمد أفندي: ماهيش البلدية لكن وصلت راجي شوي.

انتظر الرجل وهو غافل عما يدور حوله حتي فرغ الجيلاني ومحمد افندي من اقتسام القنينة بعدها التفت الجيلاني إلى الرجل وقال له: هاذي ماهيش البلدية.. البلدية ها ذيك اللي مقابلاتك.. لكن تو سكرت تعالي غدوه.

-محمد أفندي لا ما سكرتش، وطلب من الرجل أن يرافقهما إلي مبني البلدية وطلب من رئيس الفرع الجيلاني أن ينجز له ما طلب.. استخراج شهادة ولادة ختمها له وقال: هاذي البلدية وها ذاك المركز، ويا ريت الناس اكل زيك لا تعرف لا مركز لا بلدية.

وضلت الحكاية متداد له بين الساكنة.

بــن يونـــس

الأسماء والكني في ليبيا تتكرر طبق الأصل في البلدان والقري والمناطق وبين أفراد القبائل، ويحدث دائما الاشتباه والمفارقات والالتباس واحيانا المشاكل وحتي القضايا.. فانت واجد مثل هذا الاسم بن يونس في نالوت وطبرق والكفرة واجدابيا وغيرها تحمله بعض العائلات أما في بنغازي وطرابلس ومصراته وبقية المدن الكبيرة فتجد أكثر من عائلة وأكثر من شخص يسمي بنفس الاسم، وأسماء أخري تجدها في كل مكان مثل الفيتوري واللافي، والتواتي، والشماخي وغيرها، أما عن الأسماء التي تأخذ اسم المدنية التي ينتمي إليها الشخص الفرد: كالزاوي والمصراتي والغزاني والبنغازي والدرناوي والعجيلي، والطرابلس والغرياني، فهي لا تحصي ناهيك عن الأسماء التي تحمل اسم القبيلة مثل: الصويعي والورفلي والنائلي، والمقرجي والرجباني والزنتاني والورشفاني وغير ذلك أسماء تحمل اسم العائلة والقبيلة أيضا: السعودي والحربي والحاجي والصفراني والبرغش والعبيدي والعقوري والبرعص والحاس والدرناوى والمنصوري والادريسي والقاضي والفقهي والرائس وما إليها.

وما بن يونس إلا اسم من الأسماء، شخصي ينسب لأبيه مثل بن يخلف بن عطية بن الظاهر بن غريبة بن الشيخ وبن غرسة وبن أوحيده إلي آخر القائمة.

أما بن يونس هذا صاحب هذه النادرة أو الحكاية فهو كما حدثنا عنه أحد معاصريه: رجل وسيم أنيق فخم الملبس في شبابه وكهولته، قلبه أخضر، وعينه

واسعة، ويده مطلوقة – عدو جيبه – وكل هذه من صيفات أهل الهوي.

كان بن يونس يملك مزرعة في إحدي الضواحي من منطقة سكناه فكان يخرج لتفقد هذه المزرعة بين الحين والآخر، خاصة في فصول جني الثمار، في المزرعة اشجار زيتون ونخيل وعنب وتين، وكانت في المزرعة كرمة كبيرة ضليلة – شجرة تين – متشابكة الفروع ومتيمزة بثمارها الجيد تتوسط المزرعة تسترها شجيرات من الصنوبر متكاتفة في صف واحد.. كان بن يونس يقصدها كلما زار المزرعة ليأخذ قسطا من الراحة في ضلها الوارف، ولجمع منها ما طاب له من ثمار يعود بها إلي بيته الذي هو بعيدا عن مكان المزرعة، وفي يوم لاحظ أثر الإنسان حول الكرمة فقرر أن يراقب الكرمة وهو مختفي في ركن من المزرعة.. بعد وقت وجيز كانت امرأة في مقتبل العمر تخطر قاصدة الكرمة تنوي أن تجمع بعض ثمار التين كما اتضح فيما بعد، وكانت في يدها (قفة) من أجل ذلك. خرج بن يونس من مخباه واتجه نحو الكرمة حيث التقي بالمرأة التي أصابها شيء من الارتباك، لكنها تداركت الموقف وقررت أن تفعل كما يقال (الطيحه تمريغه) بادرت الرجل بقولها: يا بن يونس أعطينا (الكرموس).. قال: غالي وطلب رخيص.. من ياكله خير منك، في الجملة الأخيرة تورية.. وضعت قفتها ووقفت عن قرب.. ملأ لها الرجل القفه تينا وعادت إلي بيتها.. بعد يومين جاء بن يونس إلي المزرعة كعادته.. كانت صاحبته تنتظر قدومه فقد بيتت النية علي ألا تأخذ تينا من الكرمة مرة أخري إلا بحضوره – بن يونس – وعن طيب خاطره وهي واثقة من حصولها علي ما تريد وكما تريد: كثيرا من التين الجيد الذي ينتقيه بن يونس بعناية وعلي مهل كما لاحظت في المرة السابقة. في هذه المرة جاءت بقفه أكبر وفي زينة متعمدة أكثر، وبخطوات أسرع حين رأت بن يونس يقصد الكرمة.

حيث الرجل وهي منشرحة الصدر باسمة هاشة مرحبة قائلة: حتي اليوم نبوك تعطينا الكرموس يا بن يونس.. قال: ولمن نعطيه.

كان مش ليك؟.. ما تاخذي غير الباهي والحلو وضحك في خبث.

ثم أخذ يملأ لها القفه وهي تقول في غنج ظاهر: هذا ياسر يا بن يونس.. قال لها: مش خسارة فيك.. مد إيدك واتبعها كمشها وارتاح.. خوذي وقولي بيه وما اتقوليش.. كلام روسه لوطه.. مبطن لم تفتها معانيه.. في المرة الثالثة جاءت أكثر تبرجا وتدلها.. وقالت قولتها المعروفة التي تقولها كل مرة: يا بن يونس أعطينا الكرموس.

في هذه المرأة كانت جرأة الجسور قال لها ختي ما يعطي غير بن يونس الكرموس.. أنت ما عندك ما تعطي.. خش تحت الكرمة أعطينا ونعطوك.. وخشت تحت الكرمة.

وضلت حكاية كرمة بن يونس ونادرته شاهدة على هذه الحكاية.

تمت

نبّي أمــيّ

أحدهم من قرى الدواخل التي تبعد عن المدينة العاصمة مسافة يوم ذهابا وإيابا، كانا والداه الكبيران بالسن يسكنان القرية حيث مسقط رأسه وكان هو يسكن المدينة مكان عمله في وظيفة مع الدولة.

ذهب يزور والديه واصطحب معه ابنه ذي الخمسة سنوات وترك زوجته مع البنت الصغيرة ومعينة في البيت – شغاله – طاب له المقام اكثر من مدة ثلاثة أيام.. بعدها اشتاق واشتاق الولد الصغير إلي أمه، ودع والديه وقفل راجعا.. في الطريق تعطلت السيارة بسبب خلل بسط، لم يستطع معالجته.. حاول مرات لكنه لم يفلح.. بدأ النهار يرحل والليل يزحف.. استوحش الولد الصغير.. سأله والده: آش بيك؟

قال الولد: نبيّ أمي.. أجابه أمك أكل نبّوها.. لكن وينها أمك يا كبدي.. مبعد بعدها، وهم في هذا الحال، حتي كانت سيارة قادمة في الاتجاه المعاكس، توقفت، ترجل منها رجل ورفيق له.. قال الرجل لصاحب السيارة المتوقفة: يلزم خدمه؟.. كان تعمل معروف السيارة بها عطل والطفل يبّي أمه.. ضحك الرجل وأخذ يبحث عن مكان الخلل.. وجد الموصل الكهربائي متحول عن مكانه.. أعاده إلي وضعه الصحيح وقال لصاحب السيارة، دور المحرك.. صدر صوتا عن السيارة.. أطمئن صاحبها وقال لأبنه تو وصلت أمك وجلس وراء مقود السيارة وانطلق في طريقه.. نام الولد في الطريق.. وصل الرجل إلي بيته

جاءت الزوجة تستقبل زوجها وهي متشوقة إلي ابنها، قالت وينه حميدة؟.. قال لها زوجها.. بكري وهو ينعي يبي أمه.. هوينا في سابع حلمه.. حطيه في داره افتكينا منه.

ضحكت المرأة وقالت: اسم الله عليه وأنا من عندي غيره؟

قال لها زوجها صحيتي ولا لي ضره من توه.

شيل التراب علي ظهرك

اثنان تشاركا في إنشاء مزرعة لغراسة اشجار الزيتون.. كان أحدهما يملك الأرض، والآخر له جهده بالمغارسة، اتفاق معروف التعامل به جري به العرف بين الناس في منطقة ما.

بعد سنوات وغالبا لا تتعدي السبعة أو حين يثمر الشجر تتم قسمة المزرعة مناصفة كل ياخذ نصيبه يتعهده بنفسه بعد أن يحدّانه بحد فاصل يتفقان عليه.

جاء يوم وحضر الشهود ثم قسمت المزرعة بين المتشاركين.. وضعت علامات كحد فاصل بين الحصتين، عادة تكون مزروعات تاخد شكلا مستقيما تسمي: فرعون (نبات) تضل دائما حية وتعيش أمدا طويلا.. أرتضي كل منهما حصته وشهد الشهود وانفض الجمع.

في اليوم الثاني جاء الشريك الثاني الذي ساهم في إنشاء المزرعة بجهده، وكانت نفسه طامعه راغبه في ما ليس له فيه حق – رقة غرض – جاء فحول الخط الفاصل بحيث أخذ سطراً من أشجار الزيتون من حصة صاحبه وبعمق عشرين مترا طولا.. فعل ذلك ضناً منه أن صاحبه لا يأتي إلا بعد أسبوع، فهو يسكن بعيداً عن مكان المزرعة، وأن الرياح وافعال الطبيعة الأخري كفيلة بمحو الأثر، فحين يأتي صاحبه بعد أسبوع أو أكثر لن يفطن إلى ما فعل صاحبه.. لكن كما يقال: (اللّي في قلب السلوقي في قلب لأرنب) أو (كل واحد شيطانه في جيبه) بمعني كل يفكر ويدبر في ما قد يفعله صاحبه، وكل له مصلحة يحرص عليها وحق يصونه ويدافع عنه.

وجاء الرجل المتضرر الذي زور عليه صاحبه الحد الفاصل بينهما.

جاء ونادي صاحبه الذي يقيم قريبا من المزرعة والتي قسمت فيما بينهما منذ يوم واحد. ابتعد به قليلا داخل المزرعة.. سلم عليه ثم طلب منه ان يضع له مقدارا من تراب قائلا له: أريد أن أرمّم شقوق عندنا في الدار بعد خلطه بالأسمنت فهو تراب صالح للغرض.

وضع الرجل كمية من الرمل في كيس، قال له صاحبه هذا قليل لا يكفي أملأ الكيس من فضلك، فلما ملأ الكيس قال له ساعدني علي حمله إلي السيارة.. جاء يساعده فلم يقدر الاثنان علي حمل الكيس.. قال الرجل لصاحبه: هذا كيس واحد ولم نقدر أنا وأنت علي حمله وفيه أقل من قنطار فكيف بك يوم الحساب وقد أمرت بحمل قناطير مقنطرة علي ظهرك.. هي: تلك التي أضفتها إلي نصيبك من نصيبي، وتشمل من التراب ما يعلمه إلا الله.. يومها ملك الحساب يأمرك بحملها والناس شهود يتفرجون.

قال الرجل لصاحبه: إنها النفس الإمارة بالسوء.. الشيطان لعنه الله قعد لي وساقني إلى التهلكة ثم أخذ يعيد العلامات إلي سابق عهدها وطلب من صاحبه الصفح.. فهل من يعتبر.

كانش شميته شم

كان لها خاطر سريع وبديهة حاضرة، وفطنة واستجابة آنية، هي امرأة فصيحة جريئة لا ترد كلمتها حين تكون في محلها.

امرأة وسط عمر كما ينعتون: تجاوزت الأربعين.. صادف أن كانت في زيارة لطبيب فلبيني تعرض نفسها عليه من وعكة صحية ألمت بها.. هي موفورة الجسم تميل إلي البدانة، رية الشباب مرحة طلعة الوجه، صريحة تقول كلمتها في الوجه ولا تبالي.

نظر إليها الطبيب ثم قال:

-حاجه أنت هامل: يعني حامل.

-طيح سعدك بابو العوينات.. هذا فتات ودلاع منين بيجيني الحمل؟.. اليوم عام وأنا في دار والشيباني في دار.. كانش شميته شم.

ضحكت الممرضة الليبية التي كانت تساعد الطبيب وأدارت وجهها لم يستوعب الطبيب الموقف.

اقتربت منه الحاجة وقالت له: أنا مش هامل.. يا هامل.

الفتي العريان

رجل من البادية ذو عيال ومصبغة، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، يبني خيمة وضيعة مهلهلة تضيق بعياله وأمهم يفترشون التراب وليس فيها.. القوت إلا قوت اليوم الذي غالبا ما يتكففه الرجل من الناس، أو يجود به عليه الخيرون من أهل النجع الذي يجاوره. كان الرجل عديم الحيلة، سيئ الحظ، خامل لا يسعي في سبيل ما يوسع به علي عياله وأمهم، وكان له أولادا ذكورا وإناثا أرشدهم سعد الذي سماه علي اسم والده.

ذات يوم جاء إليه رجل موسر له قطعان كثيرة من الأغنام وإبل، طلب منه الرجل أن يأخذ ابنه الراشد ليرعي له قطيعا من الغنم نظير أجر زهيد – قدم له هذا العرض خدمة يسدي بها له معروفاً، لينتشله من ضايقة الفقر.. والرجل صاحب تطعان الإبل والغنم من أبخل أهل النجع.

فرح الرجل المسكين بالعرض وطلب فقط أن يشتري للولد قميصاً يستبدله باسماله البالية، وافق الرجل البخيل علي أن يستقطع ثمن القميص من أجرة الولد التي هي مقدرة في العام بخمس بركوسات خمسة إناث من إنتاج النعاج بعد الحول.

وافق المسكين الفقير، وفرح برزق ساقه الله إليه، ولو بعد عام كما هو العرف المتبع.. ذهب الولد الذي لم يتجاوز عمره الثانية عشر مع صاحب الأغنام الكثيرة.. سلم له قطيعا من الأغنام يرعاه، وأمره إلا يبتعد عن باقي الرعاة خوف عليه من مهاجمة الذئب فيفترس بعض النعاج.. لكن الولد وهو

صغير وقصير القامة، ضل يتبع القطيع وهو لا يكاد يظهر منه لقصر قامته خاتله الذئب وهو غير عابئ به فافترس شاة، والولد ينظر إلي الذئب خائفا مرتعدا ولم يجرء علي الاقتراب منه، لكن الأغنام فزعت من هجوم الذئب فابتعدت ولحق بها الولد مرعوبا.

في المساء جاء صاحب الأغنام يتفقد الرعاة والقطعان، وعمداً قصد القطيع الذي يرعاه الولد.. وجده يبكي خوفا من الذئب ومن صاحب القطيع، علم الرجل بما فعل الذئب بشاة من شياهه.. استشاط غضبا وضرب الولد ضربا مبرحا، ثم سلبه القميص وتركه عارياً يرتعد من شدة الخوف والبرد وأمره أن يلحق باهله يشيعه بالسب واللعنات. عاد الولد إلي أهله يبكي، ويستر عورته بيديه، ولأنه قريب من الحلم تخفي بشجرة صغيرة قرب الخيمة وضل ينتظر حلول الظلام ليدخل علي أهله وهو يستحي من نفسه.

شعرت به أمه فجاءت تتحسسه وهو يداري نفسه خجلا.. علمت منه ما ناله من عقاب الرجل له، ذلك المتجبر البخيل المعتز بماله وما كسب، وما العزه إلا بالله مالك الملك ورب كل شيء بين السموات والأرض.

قالت الأم: القسم علي ربي يا ولدي، هو من خلقنا وهو يرزقنا، والله سميع بصير عليم بذات الصدور.. أصبر يا كبدي وما صبرك إلا بالله، والله مع الصابرين.. قالت ذلك بأسلوبها الخاص وبلهجتها الدارجة، وبصدق النوايا، واليقين في أن الله، يجبر الخواطر، ويرزق بغير حساب، وكما يشاء وهو الفعال لما يريد.

علم الأب المسكين الذي لا حول له ولا قوة، وليس بقادر علي لوم الرجل الظالم المتجبر، ولا حتي يقوم بعتابه فهو - الأب - مهيض الجناح مكسورا الخاطر ذليلا بسبب الحاجة والعوز وما له إلا الصبر يلوذ به حتي يغير الله من

حال إلي حال دبرت الأم ما تستر به ولدها أسمالا بالية من بقايا قديمة رتقتها فصنعت منها قميصاً سترت به الولد وانتظرت من الله الفرج.

هذه الحكاية وقعت بالفعل وفي زمن قريب.. آواخر الخمسينات من القرن الماضي، حين كانت جاليات ليبية متفرقة بين دول الجوار: مصر وتونس والنيجر وتشاد، هاجرت هجرات بسبب الجفاف وقبلها هجرات بسبب الغزو الإيطالي ودارت الأيام، وظهر الذهب الأسود في البلد الأصل، فعاد الغريب إلي وطنه وعاش بين أهله، كما في قولهم (سيور الغريب لبلاده) عادت أسرة الرجل الفقير الذي ذاق مرارة الغربة وذل القهر والعوز والحاجة، عاد إلي وطنه، وكان الولد الذي كان راعيا صغيرا عند أحدهم، قد كبر فاصبح شابا يعتمد عليه ويعتمد علي نفسه.

حطت الأسرة رجالها بين العائدين الذين جاؤوا من كل مكان، فكانت منازلهم في بادئ الأمر بيوتا من زنك (براريك) والكل يعرف أين كانت البراريك التي نزل بها هؤلاء المعدمين في غالبيتهم.. كانت علي سبيل المثال في مدينة طرابلس تشكل حزاما يحيط بها من كل جانب، كان هناك كامبو منصور، ومن عاصره يعرف موقعه: منطقة مستشفي الجلاء والشارع الغربي، وهناك فيا تاناك، أو سوق الثلاث القديم حيث توجد الأبراج الآن، وهناك كامبو باب بن غشير، وكامبو عكاره وكامبو باتريا، والهاني والهضبة وطريق السور وبؤر أخري كثيرة.

كان صاحبنا وأسرته قد حط رحاله في إحدي هذه البؤر، وأخذ يكدح في سبيل الرزق، توفي والده وترك له عبئاً ثقيلاً: أخوته الصغار ذكورا وإناثا وأم طاعنة في السن.

ضل الشاب يطرق أبواب الرزق واحدا بعد آخر. هداه تفكيره وربما من صدف الحظ السعيد، ففتتح وكالة للخدمات العامة، كانت منها الانطلاقة،

توسع رزقه، ضل يبعث مشروعا بعد آخر كلها مشاريع صغيرة غير منظورة ولا تلفت النظر وبرسمال بسيط وبعمالة قليلة: فتح دكان لإصلاح الدراجات، كانت في تلك الأيام وسيلة تنقل مطلوبة، دكان آخر لإصلاح الأحذية، ورشة لتغير إطارات السيارات، وغيرها من المشاريع الصغيرة التي تدر الربح ولا تستهلك من رأس المال. وذات مرة بعث مشروعا في الحي الذي يسكنه: حي أغلب أهله من محدودي الدخل، عمال وأصحاب صنائع صغيرة تلائم أهل الحي.. هذا المشروع كان محلا لبيع وإصلاح الذهب.. من البداية كلفه رأس مال كبير مؤله بما عنده من مدخرات، ومنذ الشهر الأول حسب كسبه منه فوجده أقل بكثير من كسبه في أصغر مشاريعه الأخري كدكان إصلاح الدراجات، وبحدسه الصائب أهتدي إلي خلل في دراسة الجدوي الاقتصادية.. كيف له أن يبعث مشروعا يكلف رأس ماله ما يزيد علي ما يملك أهل الحي كلهم؟ ثم إن هؤلاء الناس البسطاء في مدخراتهم وأغلبهم عمال باجور يومية، وهم الطبقة الأضعف حالا في المجتمع.. هل هم في حاجة إلي اقتناء الذهب، أو عندهم منه ما يستوجب إصلاحه؟ - الذهب - حاجه كمالية لا يحفل بها إلا الأثرياء، وبالنسبة لأهل الحي حاجة تسبقها الضروريات من مأكل وملبس ودواء والسكن اللائق أوجب والزم.. هل يعقل من أن يلبس الذهب والبطن جائعة والظهر يطلب الستر؟!

هذا لعمري مشروع خاطئ في محله - قال في نفسه - الذهب مكانه سوق الرباع حيث مركز المدينة، بؤرة المتسوقين من كبار التجار والموسرين الوافدين من الدواخل، ومن أصحاب النعمة والترف.. أخذ يعمل علي تحويل المشروع بيع وإصلاح الذهب إلي مكانه الصائب وجعله شراكه مع أحد أصحاب الصنعة ممن يحذقونها ويعرفون كيفية التعامل فيها.. أما محله السابق حيث كان للذهب

وإصلاحه فقد بعث فيه مشروعا درس جدواه جيدا واستخدم له من يحذقه علي أوصوله.. يعرف متطلباته ومصادر تمويله ومركباته وكل ما يتعلق به من استيراد وتصدير وإدارة وتوزيع ومن يستهلكه وفيئاتهم العمرية، وأماكن تواجدهم وما إلي ذلك من أمور تتعلق به كان مشروعه هذا الذي بعثه في محل بيع الذهب سابقا هو: أعداد النفه وبيعها وتوزيعها علي طالبيها في أماكن معروفة وفيئات عمرية محددة.. مثلا هذه المادة مطلوبة في: الدريبي، وغوط الشعال، وبو سليم، وفي كافة الكامبوات التي يسكنها أناس من أصيلي المنطقة الغربية والجبل، من الزاوية شرقا وحتي العسة غربا شاملة صرمان والعلالقة والعجيلات وزوارة والجميل ورقد الين وزلطن، كذلك من يسكن في تلك التجمعات في بوسليم والدريبي من أهل الجبل الغري ونفوسه، توزع النفة أيضا في المدينة علي التجار الكبار والموظفين من أهل المناطق المذكورة الغربية والجبلية وعلي كافة العائدين من تونس.. أخبرني الرجل الذي كان يقاربني بالعمر.. كان هذا قبل خمس سنوات من الآن – ٢٠١٥ – أن ثروته التي أصبحت طائلة في ذلك الوقت.. سببها محل بيع النفه، وأن هذه النفة والتي مادتها: دخان سوفي: نسبة إلي واد سوف في الشرق الجزائري، في خامته الأولية مع قليل من رماد بعض النباتات: الهبا، تخلط بالماء وتعبأ في أكياس حسب الطلب، والنفة معروفة وليس ممنوعا تعاطيها ولا بيعها وترويجها، كما هي النفة الأخري المحضرة كيميائيا والمستخرجة من نباتات مختلفة تزرع في بلاد بعينها والتي عرفت في عهد قريب.. لها تجارها الحرفيون، ومروجوها وأصحابها المتعاطون والتي هي من الممنوعات ويحرمها القانون.. تجلب تهريبا، وتباع سرا ولها مافيات خطيرة ضالعة في الإجرام تنافس بعضها البعض، ويصفي بعضها البعض، رأس مالها بالملائمين ومكاسبها بالمليارات، وهي مادة عابرة للقارات

لها رؤوس كبيرة تديرها، وتتعامل علي مستويات عالية مع بعض الحكومات والمنظمات الإرهابية وحتي كبار المسئولين في المكافحة في أغلب الدول.

سيطر سعد ذلك الغني الفقير المهان المسلوب قميصه - العريان - علي سوق النفه وأسرارها فأصبح بعد سنوات بارونها الكبير الذي لا يقطع بأمر في شأن النفة، صناعة وتروجا الآّية وبأمر وتوجيها منه.. استخدم العارفين بمكوناتها وتحضيرها من أصحاب الخبرة السابقة، وأغلبهم كانوا في الغربة مثله، الذين يعرفون النفة وأنها سلعة رائجة بين الطبقات الشعبية.. كما درب آخرين علي أعدادها وبيعها حين زاد عليها الطلب، فاخذ يورد مادتها الأولية: أوراق الدخان السوفي من الجزاير.. حيث يزرع الدخان في واد سوف وغيره من شرق الجزائر وهو من أجود أنواع الدخان.. احتكر سعد مصادر التوريد واحتفظ بأسرار المهنة دون سواه، فنجح نجاحا باهرا في صناعتها وتجارتها.. وفتح أكثر من محل في أماكن طلبها حتي تناقص طالبوها بحكم سنة الحياة وتبدل العصر، وغادر الدنيا أغلب متعاطوها، فتناقص الطلب عليها سنة بعد أخري وظهرت تلك البيضاء فى جيل ما بعد جيل سعد، فسيطر علي السوق أناس آخرون وبأساليب أخري.. حينها انسحب سعد تاركا المجال لبارونات كبار لهم رؤوس أموال كبيرة، وعلاقات واسعة مشبوهة في أغلبها. ساعتها ركن سعد إلي الراحة بعد أن جمع ثروة كبيرة نماها في مشاريع أخري تنمية مستدامة تدر عليه كل يوم ارباحا طائلة.

انقطعت عنّي اخباره منذ سنوات مذكورا بالخير إن شاء الله إن كان علي قيد الحياة، ومرحوماً بإذن الله أن وافاه الأجل.

وتلك هي حكاية الفتي العريان كما كان يحكيها لي.

تمت

الفســـيه

والفسية أو الفساء في لسان العرب القديم المتداول هو: الريح يخرج من الإنساء عن السبيل المعروف.

ذات مرة كان شيخا موقرا من العارفين بالدين والتفقه فيه، وكان يحرص علي الحديث بلسان فصيح حتي مع العامة، ومع الخاصة أوجب

كان الشيخ في مقابلة مع السيد المبجل عالي المقام رأس الدولة.. خرجت من الشيخ فسية.. وكان المحل محسورا.. دارت وفعلت فعلها.. نظر السيد في وجوه الحضور في مجلسه المصغر في تلك الساعة مستفسرا في صمت.. أنبري الشيخ بفصاحته المعهودة.

يبرر الفعل ويبرئ بقية الحضور، قائلا: أنا يا سيدي دافعتني فدفعتها، وهي علي كل حال: حاجة بشرية تحرج صاحبها وتقلق جليسه، وهي لا تدوم.. أرجو عنها الصفح والعفو المغفرة.

قال السيد: لا جناح عليك ما دمت جيئت لها بهذه المقدمة البليغة ولم تخطئ في أحكام النحو.. فضحك الجميع وضلت نادرة.

الدّف والزّق

تختلف بعض مفردات اللهجة وحتي المصطلحات من مدينة إلي أخري متباعدتان وأحيانا بين قبيلة وأخري خاصة في وطن مترامي الأطراف كليبيا مثلا.

كان في حضرة السيد الكبير في عهد ما – وهو من الوسط – بعض المساعدين والمقربين وأصحاب المهمات، لاحظ السيد أن واحدا من المساعدين لا يحضر في لقاءات – السيد – كثيرا، فسأله لم أراك منذ وقت ما السبب؟

أنبري الرجل بداهة وصدقاً: (إزقّو في وأنا ما أنريدش من يزقني) كان الرجل من الشرق والكلمة إزقوفيّ لا غبار عليها في ذلك الطرف من البلاد.

رد عليه رجل من الغرب: (ما عادش اتقول ازفو في مرة أخري).

رد الرجل في سرعة يفحم صاحبه: أما له شن أتريد انقول؟!

ادفو في؟ أحرف.. ما أنتن من الثوم غير الكراث.

قال واحد من الجنوب.. الثنتين ما فيهن بركه.. قولو: يدفعو لا تزفو لا أدفو.. ضحكو جميعا وضحك السيد وقال: حسب النوايا اللي تقولوه أنا فاهمة.. وتجنبو ما يخدش السمع.

ما من اللّى تلفي ويلفي نعيمها

هذه حكاية طريفة وجدير بالوقوف عندها لما فيها من حث علي ركوب المعالي، وقعت أحداثها في عصرنا هذا، وفي جيل بعد جيلنا ونحن الآن نكتبها في شهر إبريل من سنة ٢٠١٦م أي أن من نتحدث عنها زوج وزوجة في العقد الرابع من العمر تقريبا حين استمعت إلي هذه الحكاية، وهي ليست بمستغربة لمن يملك العزيمة والإصرار، والدافع القوي للنجاح وركوب المعالي والتميز وطلب العلم والتفوق.

حين استمعت إلي هذه الحكاية، جاء علي الذاكرة الحافظة بيت من الشعر الشعبي المأثور الذي تناقلته الأجيال وصار مضرباً للأمثال يجرى علي السنة الناس متداولا في ذاكرتهم الجمعية.

هذا البيت نصه ما يلي: (ما من اللّى تلفي ويلفى نعيمها.. وما من اللّى قدامها تسفاه.. وما من اللي تسوي سته وستين ناقة.. وما من اللّى قياد حمار ما تسواه) والحكاية الطريفة والتي فيها عبرة وحافز لمن يروم المعالي ويقدر الاجتهاد وحلاوة النجاح والتفوق بين الأقران، ويعشق المثابرة والتحصيل.

كانت فتاة في سن الصبا، قد التحقت بأحد المنارات لتحفيظ القرآن الكريم، في مدينة كبيرة من مدن المنطقة الغربية ربما تكون الثانية أو الثالثة تحديدا بعد العاصمة إذا نظرنا إليها من الناحية - الديمغرافيا - العددية السكانية وانتشار العمران وحتي الحضارة والثقافة، وعدد المنارات التي تقوم بتحفيظ كتاب الله العزيز القرآن الكريم.

كانت الفتاة مجتهدة ومثابرة ومداومة، سريعة الحفظ حريصة علي ضبط الاحكام، سليمة النطق جميلة الصوت.. وكان الإعلان عن مسابقة لحفظ القرآن يشارك فيها عدد من الحافظات من بلدان إسلامية في أقطار العالم، وتعقد في العاصمة طرابلس، كان هذا منذ سنوات مضت ربما زادت عن العشر سنوات.. جاءت هذه الفتاة تدفعها الرغبة ويحذوها الأمل، مع تفاؤل بالخير وصدق العزيمة علي خوض التجربة.

كانت التصفية الأولي في المدينة مسقط رأس الفتاة والتي صادفت يوم كسوة الفتاة (القفة) في اليوم الأول من أيام عرسها.. أصّرت علي المشاركة في التصفية الأولي فنالت المرتبة الأولي من بين المشاركات اللاتي جاءت من كل المراكز لتحفيظ القرآن في المدينة.. طلب منها المشاركة في المسابقة الكبري في العاصمة بعد يومين فقط.. دخل بها زوجها ثم سافرت يوم صباحيتها إلي مكان المشاركة علي مستوي العالم الإسلامي – الفندق الكبير – منح الجميع راحة يوم بعد تكامل عدد المشاركين، وجاء الامتحان.

فازت هذه السيدة وهي عروس في أيامها الأولي بالمرتبة الأولي.. كانت جائزتها سيارة ركوبة فاخرة ومبلغ كبير من المال.

وهكذا كانت هذه السيدة فال خير (ناصية) وقد انطبق عليها معني الشطرة الأولي من البيت السابق (ما من اللّي تلغي ويلغي نعيمها) وهناك غيرها من ينطبق عليهن شطر البيت الثاني (وما من اللّي قدّامها تسفاه) أي أن هناك من ينزعن البركة من بيوت أزواجهن فيدخلن وتدخل معهن التعاسة وسوء الحال، فكم من واحدة مات بعلها قبل الدخول عليها بساعات وغيرها دخل بها زوجها وفي اليوم التالي دخل زوجها السجن، وهناك من دخلت بيتها في اليوم الأولي،

وفي اليوم الثاني خسر زوجها رأس مال له: المادي والمعنوي أو فقد حيازة من الأرض وغراسات كان يملكها والأمثال كثيرة في هذا المجال.

أما حكاية المرأة الأولي المولعة بحفظ القرآن بأحكامه والتي نالت الترتيب الأول في تلك المسابقة، فقد أصبح أسمها علي كل لسان، وهي الآن معروفة في مدينتها يشار لها بالبنان وانتشر ذكرها حتي عم مدنا أخري، وأصبحت مثلا يحتذي.. جزاءها الله خيرا بحفظها لكتابه العزيز، فاعتبروا يا أولوا الألباب.

شاب عمره خمسة عشر يوما في بطن أمه

دخل الأب والأم رفقة كهل في العقد الخامس من عمره، هو جد الشاب – المنتظر – لأمه تصحبه زوجته الجدة، وبمعية جدته لابيه وجده، دخلوا جميعا إلي محل لبيع ملابس المواليد، طلبوا من البائع مجموعة من بدلات أطفال، قال جده لأمه للبائع: نريد مجموعة بدلات مختلفة الألوان ومن نوعية راقية لولد ذكر.

–قال البايع كم عمر الولد.

–خمسة عشر يوما في بطن أمه.

استغرب البائع الأمر حتي ضنّ أن بالرجل خبل في عقله قال:

ومن قال لك أنه ولدا ذكرا؟!

–لا هو ذكر هذا شيء مؤكد.

–من أكد ذلك؟ صحيح أن العلم أصبح متقدماً جداً في تعيين نوعية الجنين في بطن أمه، لكن بعد ثلاثة أشهر تقريبا من تخلق الجنين، وهذا ما زال في بطن أمه وعمره خمسة عشر يوما، فكيف عرفتم أنه ولد ذكر؟!

–يظهر أنك بايع مناكف، أمازال لك كلام آخر بعد هذه المحاضرة؟ نحن قلنا لك نريد بدلات لمولود ذكرا، عليك أن تلبي طلبنا وتطلب الثمن.

–لكن يا أخي نحن في جدال منطقي.. أليس الجنين بمر بهذه المراحل: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاما يكسوها لحما؟؟ بعدها ربما تعرف نوعية

الجنين.. هذا ما يقول به العلم، وهذه فترة تستمر ثلاثة أشهر تقريبا، وأنت تقول أن الولد عمره خمسة عشر يوما في بطن أمه.

-هذا ما يقوله العلم، وما يقوله يقيني أنه ولد ذكر.. وهذا ما خطر علي بالي حين ظهرت نتيجة التحاليل تفيد بأن أمه حامل وأنا أريده ولدا ذكرا.. هذا ما طلبته من الله، وليس علي الله بعزيز كان الذي يجادل البائع جد الولد لأمه، فهو لم ينجب من الذرية إلا ولدا واحدا ذكرا فتمنّي علي الله أن ترزق ابنته البكر بولد ذكرا.

أذعن البائع لرغبة الجماعة التي كان يتكلم باسمها الجد للأم، فلبي طلبهم، خرجو من عنده فرحين يحملون مجموعة من ملابس الأطفال الخاصة بالذكور وضلوا يترقبون تسعة أشهر إلا خمسة عشر يوما، حتي وضعت الأم حملها، فكان ولدا ذكرا قرّت به أعينهم جميعا، أصبح بعد أعوام صبياً، ثم فتي يافعا فشاباً اجتاز مراحل التعلم الأساسي والثانوي، ثم دخل الجامعة وأكمل الدراسة العالية بتفوق ليس له نظير وفي تخصص علمي نادر، أكمل دورة الحياة وليدا وصبيناً وشاباً ثم كهلا فشيخا مسناً، عاش حتي هرم وراي أولاده وأحفاده وأحفاداً لأولاد، وأصبح أسلافه جميعاً في ذمة التاريخ، بعد أن أكمل كل منهم دورة حياته وجاء أجله فغادر الأخرة، وتلك هي نهاية كل حي.

الفانـــس

منذ كان عمرها خمس سنوات كانت تلفت انظار عائلها، أمها ووالدها، وأخوتها الأكبر منها، وأقاربها والإجوار، كانت بيضاء تلون بشرتها حمرة غير معهودة في جميع أفراد أسرتها، شعرها أصفر، وعيونها خضر، عبلة الجسم تظهر كأنها أكبر من عمرها بسنتين، كان الجميع يقولون عنها: جميلة، وكانوا يسمونها: الشهبة، أبوها كان يسر لأمها: لمن ستكون هذه زوجة في المستقبل يا ترى؟.. لابد أنه من المحظوظين.. فترد أمها وقد اعتراها نوع من الزهو..

-ولمن سوي ابن خالها عميره، تصغير أو تبجيل (عمران)

-عمران بوخنانه!! مازال نسمع.. ولد خوك ما يستاهلهاش، وبعدين هو نديدها.. هذا مش معقول، وين تكون هي حاضة المحل.. مازال هو يرقد تحت أمه.

-شوق منهم خذو نديداتهم.. لا أنا شن بيني وبينك؟ ست أسنين بس.

-لا أنت الصادقة بينا عامين بس وإلا اتصغري في روحك.. وأنت عززتي.. قستك شابت، واخدودك أنصرو، قيسك ما تشوفيش في المرايه.

-اسم الله عليّ.. لا شبت لا روس الخدود انصرت.. مازال سن العقل كيف تورت.. كيف ما قالت القواله.

-لا والله حق.. مازلت بنت عشر وثنين.. أنت قريب تولي تمضيغي في الما.

-وليتلك شينه توّ.. الجمل ما يشبحش لعوج رقبته، وأنت فرح؟؟

-أنا مازال انبيد ثلاثة وإلا أربعة.

-بالك حتي خمسة والاّ ستّه.

-لا خمسة ممنوع.. ولربعه عندي فيهم حق.. شرع، بالك تقولي لا؟

-غير أطمع وراس رويسك في رقبتك لين اتموت.

-وبالك تموني أنت قبلي.

-بعدين يخلا وتنبت فيه نخلة.

-إن شاء الله في راسك وحق الله ما نجيبها الا فتي.. تعفس في البحر اتكبه.

-خوذ.. خوذ طاستك واسكت.. أنت بركتك اسكات.

-ماك ما تبيش الحق.. طار تلك؟ غير انبصر.. تهني.

-بصارتك ساعات باسله.. توشن جاب الفارغة للمليانه؟

-أنت تنابش خلينا في حكاية سعدي - اسم الفتاة - أنا مانيش عارف هالعيون الخضر لمن جايات؟! وهالوجه المفرعط تقول جرمانيه وهالشعر لصفر.. هذا قبل ما عنداش في لحمتنا اكلها.

-جدتي أم جدي.. علي ما اخبرو.. كانوا عيونها خضر تقول قضوم.. وشعرها كيف عروق الترفاس. والخدود تتواقد تقول تركيه، والقد تقول بابور، واللي يشوف يصلي عالنبي.

-أماله أنت آش بيك ما جبتيش حتي حاجه منها ما دامها جدتك؟ وإلا هذا من كبر سعدى؟!

-هو ينك وليت لعادتك.. ما عاجبك مني شي وأنت من ضربك علي إيدك قالك خوذني.. تو وليتلك شينه؟.. وإلا بديت تطمح؟ يا أنتم الرجال يا ويل اللي ما يعرفكمش.

-تو احنا كنا جابدين سعدي دخلتينا في سريب آخر ما كانش علي بالنا.. ديما وأنت أتلقمي في الكلام.

-ما هو اكله منك.. أدور غير في شن أشغشب عليّ.

-توّ خلينا في سريب سعدي.. حق من جدك تبيها لولد خوك؟

-وش ناقصة ما هو إلا ولد سعد لنقر.. اللي اسمه يملا الفم ويفرغه.

-لكن منهو خاله؟ سعيد البخيل.. اللي اغسله ايده ونوّضه.. والضيف عمره ما خش بيته، وأمه يزه القيبوعه.

-ما تجبدش الناس وهي غائبه.. ما هناش حد ما فيهش لولا.

-ومنو جبد الدّوّه من لول؟ أنت وين توحلي اديري في الحق.

-باهي يا سرنا تو.. غير يولد ويسموه.. هي سعدي قاعده ما فقصتش.. واحنا نخمو عليها منويا خذها.. بنتي الله وحد عليها كان ما جت لأمها اتجي لجداها.. زين وفعل، واللي انوض بيهم يقول بيهم.

شكارة العروس.. أمها حشاها.. آهو كل شيء في الطبق.. لكن جداها اللي مالحقناهاش يمكن.. بالك اتجي كيفها زي ما قلتي.. كان كلامك صحيح علي جداها.

-انت اليوم باين عليك تشري في النشاف بالفلوس.

-هانا سكتنا.. غير أرض. علاش هذا اكله.. قبل ما ابان كل شيء.

كان ابو سعدي وأهلها وعشيرتها قوم بين البادية والحضر، أو علي الأصح بين الضعن والاقامة أو قل هم أقرب إلي الإقامة في مكان واحد: السواني والجناين التي تقع قرب الساحل، حيث الأرض صالحة لغراسة أشجار النخيل والزيتون وانواع الكروم الأخري، وحيث الابار التي توفر المياه العذبة للإنسان

والحيوان ولسقي المزروعات من الخضر المتواضعة في فصلي الصيف والخريف.. لذلك هم يقيمون طيلة الفصول: الشتاء والصيف والخريف في تلك الجناين والسواني، أما فصل الربيع فانهم يقضونه علي أطراف سهل الجفارة الغربي غير بعيد عن الواحات.. يرتحلون مع بداية هذا الفصل طلباً للمرعي والاستمتاع باجواء الربيع الطبيعية حيث الأرض تكسوها الأعشاب الخضراء، والأزهار المتفتحة من كل شكل ولون، ونسمات الربيع الرطبة، والشمس المشرقة الدافئة، وخيرات الأرض، من ترفاس وعلوز وقازول واعشاب أخري تؤكل، وحيث تدر أنعامهم اللبن الذي يصنع منه الجبن واللقط والرائب وتستخرج الزبدة والسمن ومشتقاته الأخري.. هناك تكون فرصة للرجال من أجل اصطياد الأرانب والغزلان وطيور الحباري وبعض الوحوش كالودان.

تلك هي أيام الربيع زاهية مبهجة، فواحة ازهارها، خضراء أشجارها، مغردة طيورها، نسائمها عليلة رطبة ندية، مثقلة سحائبها بامطار نافعة تغسل الأجواء، وتحيي الأرض وتخلف غدران ترسل بريقًا لامعاً تحت أشعة الشمس، فترسم لوحة سريالية بالغة الروعة والبهاء.

في هذه الأجواء يخرج الشباب اترابا من كلا الجنسين جماعات تتقاطع أهدافها ومشاربها، جماعات الشباب من الذكور في نزهات ربيعية لا تخلو من صبواتهم البريئة متفقدين قطعان الأغنام والماعز، تحت نظر الرعاة، وزرافات البنات (عرضات) لحلب ما تدره النعاج والماعز من لبن المساء.. هناك تكون المقاربة بين الجنسين، والتناوش بالعيون واللسان.. تميل القلوب كل إلي من يأنس ويألف.. هناك تتفجر العواطف، ويمتلئ الوجدان بالمشاعر والأحاسيس العذبة اللذيذة.. وكل من الفتيان والفتيات قد أصطاد غزالا يداعب خياله الخصب فيرسم الأماني

والأحلام والآمال العريضة، التي ستتحقق مع الأيام حين تتهيأ الفرص فتتوج حياتهم بالزواج الذي هو منتهي مني كل منهم في تلك السن.

وسعدي فتاة الحيي التي ترمقها كل العيون نساء ورجالا، كانت كالوردة المتفتحة، وقد بلغت السادسة عشر من العمر، فهي (الشهبة) كما يطلقون عليها هذا الاسم: شقراء شعرها أصفر وعيونها خضر، ومقومات تميزها عن جميع فتيات الحي.. نادرة لا تجدها بين أغلب فتيات الأحياء المجاورة، لذلك كانت حديث نساء ورجال كل النجوع التي تضرب خيامها متجاورة في تلك الربوع، من بدو أقحاح لا يبرحون تلك الأماكن طوال السنة ومن غيرهم شبه الرحل كنجع أهل سعدي، التي باتت حديث سمر الشباب والشابات يذكرونها باطراء واعجاب، ويوراود قلوبهم أمل الفوز بها وكل يسرها في نفسه – الشباب – أما الشابات فسيرتها لا تسلم من الغبطة والتعريض وحتي الحسد، وكذلك الغيرة والمنافسة لذلك لا يعدمن ما يستوجب التقليل من شأنها وجمالها المتفرد بين قريناتها.. فهذه تقول: أن أنفها فيه قصر، وبياضها كالعجين، وعيونها الخضراء ليس في جمال العيون السود، أما شعرها الأصفر فهو قصير اكرت إلا أنها تخفيه داخل عكستها، وأخري تقول عنها: لا تتحشم فلا تجيد غطاءها بمعني: تسفر عن وجهها متعمدة حين تلتقي بالشباب، وتتحدث حديثا فيه غنج تستميل به قلوبهم وتثير عواطفهم.. هي: (فانس) نعت تنعت به الفتاة المستهترة التي لا تحترم نفسها، وبعضهن يبالغن في النيل منها، عائبات سلوكها وسيرتها العامة.

ذات مرة خرجت تحتطب صحبة رفيقة لها هي ذهبية أبنة خالها سالم وأخت عمران المرشح للزواج منها، فصادف وجودهما مرور شاب من حيي مجاور لهم أيام الربيع، أهله من البدو الأقحاح، الذين لا يفارقون تلك الربوع طيلة فصول

السنة.. بهره جمالها.. وقف مبهوتا.. قالت له رفيقتها: خيرك وين راح عقلك؟ بخ عقلك بالما.. كانت سعدي مزهوة ترنو إليه بعينيها الخضراوين الواسعتين وتبتسم في إغراء يشجعه علي المزيد من النظر إليها والتأمل في جمالها، وربما كانت تنتظر منه كلمات الإعجاب والإطراء، أضافت أخت خطيبها المرشح بعد جملتها الأولي: بخ عقلك بالماء، وقالت: هي زينها بدع في بدع وما سفهت من مضائع وهي ردع وطرابلس ردع وبالحق ما هن ردائع.

قال الشاب: نلقاه أن زينها بدع في بدع.

تكلمت سعدي: أنا الزين زينه والمرارة مرة.. أنا عشبتي عشبة اكليل أوحره.. قالت رفيقتها: سمعت والا أنعاود لك.. حبارتنا صقرها واتي علي مركازه.

لم يرد الشاب جواباه لكنه نظر نظرة خاصة إلي سعدي نفذت إلي أعماقها وسار في طريقه بخطي سريعة.

ضلت سعدي واقفة وقد تشاغلت عن رفيقتها دون أن تدري، فقد داهمها من الشاب شيء هزها وكان له أثر فيما بعد.

أما الشاب فبعد أن ابتعد قليلا، التفت دون أرادة فوجد سعدي ساهمة ترنو إليه ببصرها من بعيد.

اطمأن هو إلي ان نظرته الخاصة ذات المعني الذي لا يخفي علي من في فطنة سعدي وفترة عمرها، فعرف أنه أصابها في مقتل، ثم واصل سيره مبتعدا حتي غاب.

قالت رفيقة سعدي تخاطبها: خيرك؟ باسم الله الشافي العافي.. اكملت سعدي النصي: بنقول أمي قلت أو لا في.

-أمتي هذا صار في رمشة عين؟!

-العين رسيله القلب.

-يثبت الله علينا عقولنا.. أنتم النساء ما أخف ريحكم.

-الزين لولته خفّة العقل.

-أنا انقول ما تسلميش من صاحبك اليوم.

-طيح سعدك ما ريته غير هو.. بنتعمتك أطيح وما اطيحوهاش تلعب بيمم زي الخوصة في صبعها وين تقلق منها تبدلها.

-وعلاش هذا كله.. وأنت عندك عمرين خوي زي الجناح يحلف براسك ما يحنث.. وبالك في هالصيف يبني بيت.

-من قال شوف المكتوب وما يكتب.

-مازال عندك شك؟.. أمك راضية وباباك ما يلويش فيدها العصا، وحتي هو علي كلام أمك يبيك لعمران.

-ومن قالك أنا راضيه؟ وإلاّ أنا ما عنديش راي؟!

-قهره وانت بتلقي خير من عمران ولد الفخذ والركبه؟

-ما تدريش الرجال علي من ترضي، وزي ما قالت القوالة: (مازال راس بالعصابة مايل.. وما زال شبحي للرجال شغايل)

-أنا عارفاتك طهاقه.. وعينك واسعة ما يملاها غير التراب.

-عيني خضره ويملاها الراجل اللّي يستاهلها.

-وعمران خوي ما يستاهلهاش؟! حتى هو ماهوش رامي عليك روحه.

-ما حد رامي روحه علي حد.. تبي الحق يا بنت خالي.. أنا نبي براني.

-صدقت اللي قالت: (يا ولد عمي يا لحم ذراعاني.. خشوشك عليّ خير ما لبراني)

-صدقت وإلاّ كذبت.. كل حد يعرف ما يصلح بيه.. صمت.. ثم قالت: المغصوبة ما تلقح.

-وأنت من غاصبك؟ تبعي عينك.. وعمران خوي علي ما يرضي.

-اجيبها له الله زينه.. أنا من زمان قلت لأمي ولدخوك ماهوش طيري.

-طاح الغطي يا أمبكه.. أنا عارفاتك من مده عينك خائنه.

-طاح الغطا.. وقريب انلوح حتي الردي وزيدي قولي لخوك: (مانيش صيدتك ولا نك طيري.. أواعيك مكتوبك وتلقي غيري)

-أطلع يا حق ربي أنا عارفة من زمان ماكش لقمتنا غير ما القيت من يسمع.

-أنا سمعتك.. وكيف ما قلتي ما نيش لقمة خوك.

-منك مش مني يا جامع.. أنا رضيت بالهم والهم مارضاش بيه.

-قولي اللي في خاطرك. واش لازكم علي الهم؟ خوك ماهوش راجلي توصله وتفوته غادى وماذا بييّ توصليها له سخونه.

وتعود سعدي إلى النجع رفقه صاحبتها أخت عمران الخطيب المرشح، كانت رفقه بالرجل فقط، لأن الوجهة واحدة.. أما الخاطر فكان مشغولا بذلك الشاب الذي وقف عليهما منذ قليل، وحاورها بكلمة واحدة نعتها بها: حلوة وزينه، لم يزد عليها لكنه رماها بنظرة ذات معني نفذت إلي سويداء القلب ثم غادر.

ضل الصمت بينها وبين رفيقتها إلى أن قاربتا النجع وعلي كل منهما أن تقصد بيت أبيها.. فجأة لم تتحكم رفيقه سعدة في فلتة من لسانها طفحت من أعماقها في نبرة انكارية: مازلت في رائك مصره علي أن أبلغ أخي عمران ما قلته منذ قليل؟!

-أنا لم أقل شيئا لا اعنيه.. ولا ما اندم عليه.

-ولكنك ستندمين حين لا ينفعك الندم.

-هذا حكمك وفيه انحياز إلي عاطفتك.. أما أنا فلا أنحاز إلا إلي ما أومن به.

-وكم من واحد أمنت به من قبل؟! أنا اعرفك ولا شيء خاف عليّ.

-اعرفي كما تشاءين.. لكن أخاك لم يكن منهم في يوم من الأيام.

-أخي ليس لمن تعرف كل يوم واحدا جديدا.

-عادت سعدي إلي بيتهم الخيمة وهي تستحضر وقفة ذلك الشاب بالقرب منها، والحوار القصير الذي دار بينهما بمشاركة بنت عمتها، ثم تلك النظرة النافذة التي رماها بها حين غادر وقد مست شغاف القلب حاملة الإعجاب والمشاعر الوجدانية التي حست بها واستجابت لها سريعا فضلت واقفة في مكانها يهزها الشوق ويلعب بها الهوي.. وقد تمنت لو ضل الشاب وقتا يحاورها ويتملاها أو تتملي به شغفًا وغراما.. لكن رفيقها وهي الرقيب العتيد، أفسدت كل شيء وزادت فجرحت الشاب بقول لم تحمله شهامته وعزة نفسه فعجل بالفراق بعد أن خلف طعنه من نظره ساهمه، فحرك عاطفة كانت مخبوه علي غير توقع، اججت مشاعر عذراء غمر وجدانها البكر الخالي من الهوي.. حينها حست كأنها تطير في الفضاء تداعب خيالها احلام وردية لم تعهدها من قبل.

انتحت ركنا من الخيمة حيث كانت أمها مشغولة بمخض الرائب عند الرواق أما والدها فقد كان يتفقد أغناما له ولم يعد بعد.

ليلتها لم يداعب أجفانها النعاس، ضلت يقضي إلي قرب الفجر، تستعيد مشهد ذلك اللقاء، الذي هزها لأول مرة هزًّا عنيفا، وفجر فيها عاطفة وشعور

لم تألفه من قبل، رغم كثرة المعجبين بها من الشباب ومناوشاتهم لها بالنظر واللسان، وعلي كثر ما تتلقاه من نظرات الإعجاب وكلمات الإطراء لجمالها الفتان من النساء والرجال علي السواء.. استعادت المشهد بحذافيره والحوار كله كلمة كلمة علي قصره حين وقف عليهما ذلك الشاب في البداية علي بعد ثم حين أقترب، أكثر كيف كانت نظرة الانبهار بجمالها والانعكاس الذي كان منها وكيف ظهر علي وجهه فاحدث عنده ردة فعل كانت كلها احتواء واعجاب، ارتدت فلامست منها الفؤاد وحرّكت المشاعر، حتي إن لسانها انعقد عن الكلام.. ولو لم تنطق بنت عمتها بذلك البيت من الشعر الذي كان مفتاحا للحوار، لما تكلمت بعد ذلك، وأوردت بيتا من الشعر من محفوظها فيه عجب وتحدي كانت تناصي به الشباب المعجبين من قبل وقد ندمت علي قوله في حضرة ذلك الشاب ولعنت زلة اللسان.

نظرة صاعقة صادفت استجابة سريعة.. هو كأنه كان علي موعد مع الحب في تلك الوقفة القصيرة.. وهي كانت في سن النضوج المبكر، عند استواء المراهقة الأخيرة، حين يميل الجنس إلي الجنس، وتلك نزعة إنسانية لكل طرف من الأطراف: الانثي والذكر.. لم يهدأ بالها ولم يركن هو إلي السكون، ضلت هي تكابد تباريح الهوي، جراء تلك النظرة النافذة إلي عمق الأعماق في الفؤاد الخالي من كل إرهاصات للحب.. وكان هو قد أصبح يعالج غراما ملك عليه نفسه، وشغله عن كل شاغل.. بل أرقه في الليل، واقلقه في النهار، فضل ينتظر الفرصة المواتية التي تمكنه من اللقاء بتلك الفتاة التي سلبت عقله وسيطرت علي كيانه، واستولت عليه دفعة واحدة وضل يردد: (حب النساء يا ويل من لا جيله لا صبر ينفع لا تفيد الحيلة)

بات يفكر كيف الوصول إليها.. ويبحث عن الوسيلة التي تقربه منها، والسبيل الذي يوصل إليها ويحفظ عليه كرامته تلك التي ناشتها رفيقتها حين القت علي سمعه: أن لها – سعد – صقر تنتظره وكأنها تعرض به وتقلل من حيثيته التي تجهلها– وإن كان قد خطر علي باله: أن ليس في الحب كرامه – فهذه الرفيقة الجاهلة بمن هو: هي لا تعلم أنه ابن شيخ لقبيلة كبيرة له جاه ووجه، وصاحب ثروة أبل وأغنام كثيرة الأعداد، وله ذكر بين القبائل في المنطقة، والشاب نفسه فارس لا يشق له غبار، حذق ركوب الخيل منذ الصغر، وتربي علي الشهامة والمروءة، والفضل والكرم، ونظافة السيرة وحسن الخلق مع الناس جميعا في محيطه، وهو من ترشحه القبيلة لخلافة والده، وتحفظ له مكانته وفضله.

كان خليفة وهذا اسمه: شقيق لسبع من الاخوات، كل منهن كانت ترشح له فتاة للاقتران بها، وهن جميعا متزوجات متفرقات بين أقارب لهن في القبيلة، وأخريات في قبائل أخري مجاورة، وكانت أمه من جهة أخري تريده أن يتزوج من بنت أختها، وهذه من سكان الواحات القريبة من شواطئ البحر، الذين لا يرتحلون طوال السنة ويسمونهم: الشطوطة، نسبة إلي الشاطئ، فتاة لم يراها إلا مرات قليلة متباعدة وحين كانت طفلة صغيرة تتبع أمها حين تزورهم – خالته – أيام (السفارية) وقت جني التمر، وما عدا تلك المرات القليلة ومنذ سنوات انقطعت عنه أخبارها.. فامها التي كانت تزورهم وافاها الأجل فانقطعت صلتهم باسرتها.. كانت أخته الكبري قد رشحت له زوجة تراها من وجهة نظرها مثالية بين أقرانها هي: حماتها أخت زوجها، وأخته الصغري المتزوجة من شيخ معروف رشحت له بدورها فتاة صديقة لها، وتعرفها – كما قالت – معرفة تامة، وقالت عنها هي أجمل بنات النجع، وأخواته الآخريات كل منهن كانت

ترشح له من تروق لها، ولكل منهن رأي واهتمام باخيهن الوحيد، وقد جاء بعد سبع بنات – علي شوق كما يقولون – لكن خليفة رشح له قلبه سعدي ولم تدخله واحدة غيرها ورغم أنه كان يحسب حسابا لراي والده، ولا يمكنه تجاوزه والقطع في أمر كهذا دون مشورته وأخذ رايه، إلا أنه عندما تداولت الأسرة الأمر فيما بينها: امه واخواته ووالده الذي له القول الفصل والكلمة الأولي والأخيرة في أمر كهذا، وكل قال ما عنده – هني أنبري الوالد فقال: زوجتك هي غيثية بنت الشيخ مسعود.. وقد قطعت أمري معه في هذا الشأن.

-قالت أمه: يا ودي غيثية ما هيش قرعة خليفة لنقر.. غيثية استغفر الله – خلقة ربي ما فيها ما ينشج.

-أخته الكبري حق أميمتي.. شينه.. شينه، غوله تهرب منها ما دام الوطي قدامك

-الوالد: غولة النسا تجيب فارس الرجال.. ما هي إلا بنت الشيخ مسعود اللي ايقول بيه البعيد والقريب.

-أخته: اجيب عليها ضره من النهار لول.

-أمه: أجيب حتي ثلاثة عنده فيهم حق – شرع –

-لا يا أمي وحده بس.. سعدي.. هي اللّى في القلب.

-اخته: مني سعدي؟ جالك السعد إن شاء الله.

-سعدي بنت عماره.. هاك اللّى ينزل في الربيع علي نجع الشيخ ضو

-والده: الشيخ ضو؟!.. نزيل.. شطي؟!

-هذا ما أراد القلب.. يا بابا.

-أي يا ولدي: القلب وما يريد.. لكن هواك هذا زي ما قال صاحب

القول: (هم جو وين الكاف يكسر ضله.. في وين ما هامل ارقيق ساقه
وناجيت وين البحر يكبر غله.. عليّ غرانيق البحر تزاقه)

-أمه واللي قال: (صاحبت صحبة الحوتات هن والغار.. يا نفس شورك غروره
الفار ما اخش لبحار.. والحوت واعر أظهوره)

-أخته: صدق: (الفار ما اخش لبحار والحوت واعر أظهوره

-أمه: أنا ريتها مره.. الزين زينه لكن معاها خفة العقل.

-أخته: كل زين فيه لولا.

-أمه: واش لا زنا عليها بنات النسا واجدات.

-اخته: وخليفةعلي من يرضي.

-والده: خليفه تبع قلبه.

-هو: صدقت يا يا بابا.. القلب علّته ما لعين تمش تلوج واتجي تقوله.

-جيبها يا ولدي عندك لاذن.. لكن بعد بنت الشيخ مسعود.. راني عطيت الكلمة.. والكلمة واعره يا ولدي.

-كلمتك ما اطيحش في وطي ان شاء الله.

-اخته الكبيرة: تخالي أمها سرا في أدنها: (يقولوا عليها فانس).

-امه: سامعها كل حد.

-هو: شنهو (تخالو): ماذا تقولون سرا؟

-أمه: ما عليك غنوه.. اختك قالت شاد فيها ولد خالها.

-هو: كان خلوها له الصحاح.. اللي أشد أصحح السلاسل.

-أمه: حق يا ولدي كان ما تبيش تقطع سلاسل الحديد.. والمغصوبه ما تلقح.

-هو: تو قلتي الحق.. خلو كل شيء علي اللي يركبها يعرف كيف أسيرها.. غولة الشيخ مسعود قابلها علي عيون باباي.. وسعدي بغاها القلب يا أمي.

طال سهاد سعدي ف ياالليل، وانشغل فكرها بالنهار.. تفجرت عاطفتها وخفق قلبها، وضل فؤادها تداعيه أحاسيس جميلة لم يألفها من قبل.. تحدثت مع نفسها، تعيد المشهد في خيالها.. ذلك الذي وقفت فيه مع خليفة عن قرب، وابنة خالها رفيقتها كانت في انتباه تراقبها وتراقب ذلك الشاب الذي اقتحم عليها خلوتهما صدفة.. وحاورهما حوارا سريعا.. فارقهما علي أثره بعد مناوشته له - الرفيقة - بكلام عرضت به فيه، فغضت وذهب بعيدا، ورمي لسعدي بنظرة هيام طعنت قلبها في الصميم.

لم تطق سعدي البعاد، ولا انقطاع أخبار ذلك الفارس الذي أصبحت تحلم به في المنام واليقضة.. هو من غزاها الغزوة الكبري لأول مرة، بل هو من حرك فيها الميل إلي الجنس - الطرف الآخر - وكانت لا تأبه من قبل وتأنس له من الشباب.. استغربت هذا التحول الذي طرأ عليها فجأة حقاً أنه فارس الأحلام.. شاع عنها بين أهلها وأقاربها: رفضها الاقتران بابن خالها، وقد مارسوا عليها الضغوطات.. هي لا تهواه من قبل ولا تفكر فيه، لا يحرك لها ساكنا ولا تحسبه في حسابها، وما ترشيحه لها كزوج في المستقبل الا من قبل أماني أمه واخته التي كانت ترافقها دائما وحضرت معها ذلك اللقاء مع الفارس الشاب الغريب، وهي التي نقلت أخيارها معه، وأن سعدي أصبحت متعلقة به، بعد أن رماها بنظرة غرام وناوشته هي بجمالها المكشوف ونواياها الصريحة تدعوه إلي المحبة والعشق.

ضلت سعدي تتقلب في فراشها ليلا بلا طايل من نعاس، وفي النهار منشغلا بالها بمن مسها بجذوة الهوي واختفي دون أن تعرف له سبيلا، لكنها القلوب تهفو إلي بعضها، والمشاعر تضل تتلمس طريقها نحو المحبوب، إذا كانت صادقه حتي تعثر علي ضالتها، وهو الذي كان بين خليفة وسعدي.. علي غير توقع يظهر ساعة من عشية فارس شاب يمتطي صهوة جواد مسرجاً بسرج مطهم بالفضة والحرير، علي عادة أبناء شيوخ القبائل ووجهاء القوم، وقد حام حول الحمي.. والحمي في البادية أيام النجعة والربيع مفتوحا ومباحا دونما خدش للحياء، كان هو: خليفة يمر بقرب من نجع سعدي عمدا، ثم قاصدا مكانات الصيد – الأرانب والغزلان – لكنه في نفس الوقت يروم صيد غزاله الذي نواه.

لم يغب طويلا بحثا عن صيد الأرانب والغزلان، وعاد يملأه الأمل في أن يحضي برؤية حبيبته سعدي.. تلك التي ملكت قلبه وروحه، وسيطرت علي وجدانه مرة واحدة، بجمال أخاذ وفتنة صارخة، لم يعهدها من قبل في من نظر اليهن من بنات النجع.. وطن العزم علي أن تكون هي قرينته منذ أن راها لأول مرة، مهما عارضته المصاعب والظروف هو يعرف أن (العراضة) تخرج عشية قرب المغرب: تلك النسوة فتيات وشابات متزوجات من أجل حلب الضان والماعز – حلابات – وفي هذا الخروج عادة يلتقي الشباب والشابات في سن الزواج ويباح الحديث ومطارحة الغرام.. تكون المعاينات.. وتبين المشاعر والأهواء بين الراغبين في الزواج والراغبات، ثم تكون الخطبة الرسمية والاتفاق بين الأمل حين تنادي القلوب بعضها، وتهفو نفس كلٌ لمن يروق له ويدخل قلبه.

اقترب خليفة من سعدي التي قادتها رجلها تدفعها اللهفة والشوق لرؤية

حبيبها الذي لم تعد تري أو تحس بأحد غيره.. فلما التقت به وهو علي صهوة جواده، ترجل وصافحها عن بعد قائلا:

-أين الرفيق الرقيب اليوم؟!

-يراقب من بعيد.. هي مع المجموعة التي تجلب الضان.. هل تهمك في شيء؟

-أنا لا يهمني أحد في الوجود عدا سعدي التي ملكت القلب وتربعت فيه.

-زوز.. بمعني: تفضل.

-قال شاعر قديم: حلو كلمة زور للّي جايع.

-قالت: يقال: رد عليه شاعر آخر فقال: زي من شري وكمل عليه البائع.

-قال خليفة: نحن شرينا.

-قالت: ونحن بعنا

-وصدقنا قول الشاعر ورد صاحبه.. أضاف غدوه باباي ومعه الشيوخ ضيوف عليكم.

-مرحبا بهم حاجتهم مقضية.

-قولي لباباك.

-باباي يكرمهم.. أما ما تفكر فيه فهو كما قلت بعنا بيعا لا رجعة فيه.

-ونحن من اشتري الغالي.

-وأنت اغلا من الروح علي غاليك.

-الرقيب ينادي من بعيد.

-لا تشغل بالك.. بما تدبر هي وأمها أما بوها فلا كلمة له ولا راي، وأخوها العريس المرشح فهو عندي كما قالت القوالة:

(أنا اليوم نشبحلك وقلبي هازي.. والعين حد فاتك وراء بنغازي)

-سبحان الذي أودع الفطنة والعقل، وزانه بالجمال في من أراد وزاده البهاء في كل شيء.. الله متفضل علي عباده، وأنت يا سعدي حباك الله بكل شيء فكوني من الشاكرين.

-اني شاكرة علي كل حال.. لكن قولك هذا فيّ.. هو ما تراه انت وربما للآخرين راي آخر، يخالف رأيك.

-هم الجاحدون أو الحاسدون.. فانت يا سعدي في نظري أجمل من ولدت النساء، ولا تنقصك الفطنة والعقل، وأنا المحضوض بك وهذا من رضي الوالدين.

-وأنا ماذا أقول.. أنا أكثر منك حضاً، وأشدّ بك اعجابا، وها هو الرقيب العتيد، الذي هو من الحاسدين والجاحدين كما قلت.. تفلت من النساء وجاء يصحبني، وفي جعبته لا شك تقريعا ولوما، وغدا تشنيعا وافتراء، لكنها ستموت بفيضها.

ويفارق خليفة سعدي وقد أمتلأ بها شغفًا وغراما وانسا ٠حتي فاض.. حلقت نفسه في دنيا الأحلام، وتمني قرب اليوم الذي تزف فيه إليه عروسا.. إلا أن هاجسا نّغص عليه فرحته هذه.. ذلك الوعد الذي قطعه مع والده للزواج من بنت الشيخ مسعود أولا، ثم له أن يأتي عليها بضرة أو أكثر إذا شاء.. وكيف يكون الحال بالنسبة لسعدي إذا علمت بهذا الشرط الذي اشترطه والده؟ هل تراها ترض أن تأتي ضرة علي أخري سبقتها علي فارس أحلامها، ومناط أمالها، وفتاها الأثير، أم أنها لا تعير لذلك بالا ولا تابه له، وانها عشقته وماتت في هواه.. وعدته جادة أن تكون له، وله وحده.. شوشت عليه هذه الأُفكار مشاعره، وهو في الطريق إلي منازل أهله، وكان يعيش مع الآمال، وما قالته له سعدي صادقة في قولها ومشاعرها مبدئية عشقا وغراما لا حدود له، ومعاهدة

علي الوفاء والاخلاص وانها لا ترضي به بديلا مهما كانت الأسباب وليس لها إلا هو ولا أحد سواه.

وجاءت ابنة عمة سعدي، أخت الخطيب المرتجى تمتلئ غيضا وحقدا وحسدا، وعلي لسانها كلمات التقريع والتشنيع، والعار والتعزير، والوعد وقول الفضيحة كما تحسبها هي، التي اقترفتها سعدي بوقوفها مع شاب غريب، ومطارحته الغرام، وعلي رؤوس الاشهاد من النسوة الخلابات، وحتي الرعاة الذين كانوا ينظرون من بعيد.. فدار بينهما الحوار التالي:

-حاد مادرت.. عار عيني عينك.. قدام اللي يسوي واللي ما يسواش.. يا املعبه يا فانس.

-تميزت سعدي غيضا، وفاض إحساسها بالإهانة والتقريع باطلاً، فانبرت لها: ظميّ فمك يا ملهط.. يا بتاعت راعيكم سعد وإلا ما تحسابيش شاهده عليك، وهو يمرغ فيك في زريبة الجديان قداش مرة في مرة.. ومصمصي فمك بالزهر قبل ما تجبديني بكلمة، أنا سعدي بنت أمها وبوها، والناس تعرف من هي الفانس.

اسقط في يد بنت خال سعدي، وشيمتها دائماً الحسد والافتراء والتشنيع بالباطل، ترمي الآخرين بسوء الخلق وهي سيئة الأخلاق، مذمومة السيرة، وكأنها ترمي بما فيها علي الآخرين.. لاذت بالصمت، أمام حجة سعدي الدامغة ضدها.. حيث كانت شاهدة عليها في بعض المرات متلبسة بجرم الرذيلة.. فما كان منها إلا أن غادرت المكان الذي كانت تقف فيه سعدي مع خليفة في وضع لا غبار عليه مجرد مناجاة بينهما دون ما اقتراب.

تسامع الحي كله الذي يضم نجع الشيخ مسعود ونجع خليفة نفسه، والنجع الذي ينزل عليه والد سعدي.. بحكاية تعلق خليفة بسعدي وتعلقها

به، وهو الخاطب لابنة الشيخ مسعود (غيثية) وأنه قبل بها – غيثية – نزولا عن رغبة والده الشيخ مفتاح، وستكون ضرتها سعدي في القريب، فما كان من غيثية بنت الشيخ مسعود إلا أن بعثت برسالة شفوية عن طريق مرسول لها إلى خليفة تقول فيها: أنت طامح فيَّ قبل أن أكون في بيتك بمعني زاهد في وستاتي عليَّ بضرة كما قيل لي وتنوي.. وأنا أقول لك: بنت الشيخ مسعود فارس الفرسان التي يلهد علي النار، وكفة عش للمصابي هي ليس لك.. غيثية طيرها صقر حر، والباف ما يلحقهاش منتهي التقريع بخليفة – وأنت صيدتك سعدي الشهبة الشطية.. الفانس.. كانت بنت الشيخ مسعود ليس لها نصيب من جمال لكنها ورثت الانفة والشموخ وعزة النفس من والدها صاحب المروءات والفضل الكبير علي حيه والإحياء المجاورة، وكان علم بين جميع الناس.. من جهة أخري كانت سعدي عالمة بما بدور في الحي من أخبار، وأن خليفة مخطوبة له بنت الشيخ مسعود وسيبني بها قريباً، وانها – سعدي – ستكون الضرّة الأولي.. فما كان منها الا أن أرسلت بدورها إلي خليفة تقول له: انت اطعت والدك في زواجك القريب من غيثية بنت مسعود.. واعرف أنك مخلص لي ووفي بعهدك.. وأنا اطعت قلبي وعند عهدي، ولو تزوجت قبلي ثلاثة وكنت أنا الضرّة بعدهن، لرضيت وانا لك وليس لغيرك من الرجال. وانت في حل من عهدك لي، فتزوج من شيئت.. هي أو غيرها، أما أنا فلا زوج لي سواك.. نفسي لا تهفو إلا إليك.. وقلبي لا يعرف غيرك.. دمت لي يا حبيبي.

وصلت رسالة سعدي إلي خليفة ليس بنصها لكن بمعناها عن طريق طرف ثالث عجوز معروفة في الحي، كانت تنقل رسائل المحبين مسخرة بأجر أكبر خليفة في سعدي وفاءها وإخلاصها، وحفاظها علي عهدها وتضحيتها، وانها

كانت علي خلق كريم وحصافة راي، فايقن أنها الزوجة المثالية، التي ينشدها كل رجل عاقل حكيم، وهي إلي جمالها المتفرد، كان الوفاء والإخلاص حلية أخري ميزتها عن غيرها من النساء، فازداد تمسكا بها وشغف ومحبة، فقال في نفسه لعل صدق نية سعدي وكرم أصلها ونقاء سريرتها هي التي دفعت بينت الشيخ مسعود المرشحة له كزوجة إلي أن ترتكب تلك الحماقة، حيث بعثت إليه، بقول يستخف به، وترد عليه خطبته، وترفضه كزوج حين علمت بقصته مع سعدي الشطيّه الفانس كما كانت تنعتها وينعتها الاخرون ظلما وبهتانا.

وجد خليفة في رسالة غيثية بنت مسعود الخطيبة المفروضة عليه بحكم طاعته لوالده.. وجد ذريعة خلّصته منها فلا لوم عليه بعد ذلك ولا عتاب، لا من والده ولا من غيره – من وجهاء القوم – وبراءة امام الشيخ مسعود الذي يجله ويحترمه ويقدره هو ووالده.

بعد أيام تقدم لبنت الشيخ مسعود خطيب من القبيلة ليس له حيثية ولا ذكر فوافقت عليه دونما تردد، كردة فعل علي ما بدر من خليفة.. وافق والدها وبني الرجل بها في سرعة واسدل الستار عن حكايتها مع خليفة جاء والد خليفة في جمع من وجهاء قومه خطابا لسعدي من والدها، فكان الرجل مسرورا بهذه الحضوة التي نالها عند الشيخ مفتاح والد خليفة ومن هو مكانة بين أهله وقبيلته، وعدها مكرمة عليه وتفضلا بالنظر إلي ما عليه الشيخ مفتاح من ذكر بين أحياء البدو في تلك الربوع، ولما يتمتع به خليفة نفسه من نباهه وسمعه طيبة وخلق كريم، وأنه مرشح لتولي أمر القبيلة بعد والده كشيخ لها ومتصرف في أمرها، وأنه – والد سعدي – يعد هذه المصاهرة فاتحة خير وشرف له عند شيخ من شيوخ البادية المعدودين، الذين لهم شأن وأهل حل وعقد.

تمت خطبة خليفة وسعدي.. أعقبها فرح كبير أستمر ليالي وأيام، شهده كل شيوخ القبائل في الحي وكبار القوم والوجهاء.

دخل خليفة بزوجته سعدي فكانت كما هي جميلة في صيفاتها الخلقية كانت في أخلاقها أجمل.. عفيفة طاهرة شريفة، وليس كما ينعتونها (فانس) ظلما وبهتانا.

تمت

نار عمنول

رجل من الموسرين أنعم الله عليه بثروة يحسده عليها الحاسدون، ثروة حيوانية، تتمثل في (شلايا) من الأغنام وقطعان من الإبل.. ثروة أهل البادية: (المواله) الذين يقومون علي تنمية مواشيهم ورعايتها الرعاية الحقة لتزداد أعدادها كل عام، كان الرجل قد تجاوز سن الكهولة، فهو في الستينات من عمره، - شبياني - كما ينعته أبناءه الذين استقلوا عنه، بعد أن انحازوا إلي أمهم التي تزوج عليها الرجل شابة في مقتبل العمر، فزوجته الأولي اصبحت في حكم العاجزة، بعد أن أصيبت بمرض عضال أقعدها عن الحركة، وهو قد تزوج من شابة صغيرة السن من أجلها بالدرجة الأولي لتقوم علي خدمتها، وفاء منه كما كان يصرح لاصحابه.. لكن المرأة العجوز المقعدة، احتجت بشدة ورفضت الضرّة قائلة له: ما نبيلها خدمة.. ولا نبي شبح وجهها.. ولا وجهك أنت.. بره داهية اتشيلك أنت واياها.. قاعده ملوحتلها سلم ولاد بطني علي من نرضي.. كان الرجل كربما ترك لها بيتها بما فيه: خيمة البدوي - من الوبر والشعر كما هي العادة - وابتعد عنها قليلا وبني لزوجته الجديدة بيتا جديداً، وضلت الأولي في بيت الزوجية تعيش في كنف أولادها المتزوجين، وترعاها بناتها المتزوجات بين الحين والآخر.

أما الرجل فضل ينعم بطيب العيش مع زوجته الشابة التي لم يبخل عليها ولم يقتر، وإنما كان يعيش عيشة أهل البادية التي تخلو عادة من بهرج الحياة، ووسائل الترفية.. هم دائما يتبعون نمط عيش فرضته العادات والتقاليد وعرف الجماعة.

لم تشكو المرأة من شيئ يشوب معاملة زوجها لها.. وكانت قانعة راضية، وكان هو هاشا باشا في وجهها، فرح بها، لا يجد في سلوكها ما يعيب، فهي تستقبله باسمه منبسطة الاسارير.. تقول الكلمة الطيبة، وتهيئ المقعد اللين وتقدم افضل ما عندها من طعام.. توانسه وتحادثه حديث الرضاء والسرور، حتي كان يوم زارتها فيه عجوز فتانة منكرة السيرة خبيثة النوايا، لا تدخل بيتا إلا واغتابت فيه الناس، وسعت بالنميمة، وافسدت الروابط والعلاقات بين الأقارب والأجوار.

دخلت عند تلك الشابة الهانئة في حياتها مع زوجها، وكانت دائما – تلك العجوز – تغشي البيوت تطلب حاجات علي اختلافها. فهي تدبر كل عيشها وزوجها الطاعن في السن، وبنتها العانس من بيوت الناس، يعطوها احيانا ويمنعوها أحيانا. عندما دخلت العجوز إلي الشابة.. كان الرجل زوج الشابة يتواجد أمام البيت يتفقد جوادا له ويقدم له العلف.

عندما دخلت العجوز إلي بيته تطلب حاجة لها، قالت للزوجة: منو هذا الشيباني اللي قدام بيتك؟!

-هذا مولي بيتي: زوجي محفوظ إن شاء الله.

-نحاسبه باباك والا عمك.

-سكوت من الزوجة.. خواطر سلبية.

-بالله يا بنتي أقبسيلي قبسة نار.. بنديرللشيباني غداه.

خرجت العجوز الفتانة.. صاحبة السوء وهيي تحمل في يدها قبسة من النار في عود مشتعل قاصدة خيمتها التي ليست ببعيدة.

بعد وقت دخل الرجل إلي بيته.. تفرس في وجه زوجته.. وجدها ليست كما هي.. بدأت تراوده الشكوك.. ما الذي غير زوجته.. ليست الا هي تلك العجوز الحرنيتة.. تغافل عن الأمر وأبدي مزيدا من التودد إلى زوجته، ولم يري ضرورة إلي سؤالها عن تغيرها لا تلميحا ولا تصريحا.. لكن العجوز عاودت المجيء إلي بيته في غفلة منه.. ضلت ترصد ابتعاده عن البيت لقضاء شئونه الحياتية كلما ارادت ان تزور تلك الشابة وفي كل مرة تلقي في أذنها كلمة من هنا وأخري من هناك، تبدأ بزين الكلام الذي يدخل البهجة والزهو في نفس الشابة.. كأن تقول لها: الصلاة عالنبي علي هالزين الكامل.. اللي ماريتاش في النجع كامل.. عيني ما اتضركش.. وجه زي القمر، وعين زي الارخة، ورقبة زي رقبة الغزال، وما إلي ذلك من أقوال الإطراء والثناء الذي تتشوّق إليه المرأة عموما، فالمرأة كما يقال، (تسمن من وذنها) ثم في نهاية الزيارة تنعت ذلك الزوج: بالشيباني، كان تقول اليوم شيبانيك ما قابلنيش.. أو اليوم قيسه الشيباني غايب.. أو شن حال شيبانيك.

وعقب كل زيارة تراجع الشابة أمرها، وتحاصرها الأفكار والهواجس.. وكيف هي تزوجت رجلا يكبرها بنصف عمرها، وهي كما تقول لها العجوز.. يتمناها كل شاب في النجع، وإن خيرة الرجال يثنون علي جمالها وشبابها.. هواجس وافكار شتي تنازعتها فاختلطت مشاعرها بين الرضاء ولو كان نسبياً عن الحال التي هي فيه وبين حال ربما كان غير هذا الحال، وكما زينته العجوز بقولها: كم من شاب يتمناها وهي علي هذا القدر من الجمال، وأنها – العجوز – كم من سرة تذكرها بانها متزوجة من شيباني.. فقد قالت في المرة الأولي: لمن هالشيباني اللّى قدام بيتكم، ومرة أخري قالت لها: وينه شيبانيك ما قابلنيش اليوم.. وتذكر أنها مازالت في الثلاثين من العمر، وهذه السن كما تسمع من النساء.. تكون فيها

المرأة محط أعجاب العشاق من الرجال.. ثم تسأل نفسها هل فرطت في شبابي حقا حين تزوجت رجلا مسناً؟ فهي تسمع أيضا أن الرجل إذا تجاوز الستين من العمر يصبح شيخا يسير نحو نهاية العمر.. لكنها لم تلاحظ عليه تغيرا يذكر فهو مازال كما عهدها به منذ خمس سنوات عندما تزوجها.. هو ما زال يعتني باناقته، يلبس الملبس النظيف الفخم، ويحلق ذقنه كل يوم، ويعتني بشاربه، ينظف اسنانه عقب كل وجبة بالماء والصابون، ثم يدعكها بفوطة يطلبها دائما عقب كل وجبة ويحرس علي أن تكون نظيفة.. ثم إن الرجل يعاملها معاملة حسنة، ويحادثها بلسان حلو ووجه منبسط وبحميمية وانشراح لا يفتي يغاز لها بطريقته كلّما دخل البيت، حتي أثناء جلوسه معها في الأوقات العادية، وحين يدخلان إلي مخدعهما يغدق عليها من المعاملة والكلام الطيب ما يدخل عليها الفرح والسرور.

تراجع نفسها كثيرا، والمشاعر شتي تتنازعها بين حال وحال، غير أن زيارة العجوز المتكررة، والتي لا تعدم الوسائل والأساليب التي تجعل المرأة تزداد نفورا من زوجها، فيلاحظ عليها كل مرة تغييرا في سلوكها ومعاملتها معه، بل حتي حديثها معه أصبح فيه شيء من التذمر وعدم الارتياح، فيسالها هل زارتك اليوم العجوز؟

-كيف ما تعرف.. تولّع في النار بمعني: تاخذ قبسة من نار لتشعل نارا في بيتها.. وهذا أمر معروف عند أهل البادية.

-كثرت من التوليع.. يا خوفي تشعل فينا حريقه..

-تشعل في بيتها.. شن جابها لينا.

-أصحاب السو

-افكنا الله من السو

-أمين

لجأ الرجل إلى أسلوب آخر محاولا تغيير سلوك زوجته نحوه وكسب رضاء فأخذ يتودد إليها بالهدايا.. أشتري لها الذهب، والذهب وصفة سحرية لكسب رضاء النساء، اشتري الحرير والملابس الفاخرة وسمي لها نعاجا وبعضا من نياق لتكون حلالا لها تتصرّف فيها كما تشاء.. عادت إلي بعض من معاملتها الحسنة معه لكنها سرعان ما تنسي ما أغدق عليها من مكاسب مادية ومعنوية.. وتعود إلي التفكير فيما قالته لها العجوز، وتزيد في القول كلما تكررت الزيارة صادف أن ارتحل الرجل باغنامه الكثيرة وابله إلي مكان متسع بعيدا عن مضارب النجع أو غاب لمدة سنة كاملة، وقد كانت العجوز تعيش في كنفه هي وزوجها الهرم وبنتها العانس.. كان له في هذه السنة التي غابها متسع من الوقت أصلح فيه الرجل أمره مع زوجته الشابة، وقد كلفه ذلك ما كلفه من عنت ومشقة فقد كان لا يالو جهدا في السعي لرضاءها بشتي الوسائل حتي لان قلبها، وكادت أن تنس وسوسة الشيطان: تلك العجوز الماكرة.. وتمر الأيام ويعود الرجل من غربته عن النجع سنة كاملة.

حين عاد جاءت العجوز وقصدت حالا بيت ذلك الرجل، ويعلم الله بما كانت تنويه هذه المرة.. لا شك عنده في أنها ستقوض بيته علي رأسه.. هذا ما تبادر إلي ذهنه حين رأها قادمة.. كان يجلس قريباً من بيته فلما وصلت إليه قال لها: وين ماشية؟؟ وعلت نبرة صوته في إنكار وتوعد.

-ما شيه بنولع نار.

-ولىّ علي قفاك.. نار تاكل كبدك.. النار اللّى ولعتيها من عام فات مازلنا ما طفيناهاش.

خـــالك عامـــر

رجل ليس من عامة الناس، صحيح هو من السواد الأعظم منهم.. لكنه رجل استثناء.. لم يدخل كتاب ولا مدرسة.. حباه الله بعقل نير، وذكاء حاد وفطنة غير معهودة في جيله، بل في الوسط الذي عاش فيه، حتي الشيوخ الذين يكبرونه بالسن، منح أيضا بسطة في الجسم، وقوة في البدن، وحيوية ونشاط لازمه حتي قارب السبعين من العمر.. ولما يتمتع به خالك عامر من طلاوة في الحديث، وحضور للبديهة، وسرعة الخاطر والنباهة الملحوظة، كانت له فرصة للانخراط في سلك البوليس، ولمزياه الفطرية، ألحق بالقسم السري – التحريات – ضل يعمل في بلدته، وهذه ميزة تعطي للنابهين، غير أنه كان يستعان به في البلدان القريبة من سكناه، واحيانا ينتدب إلى مهام صعبة في أماكن بعيدة، بما فيها العاصمة، التي تكثر فيها موجبات التحري، التي تحتاج إلى فطنة وخبرة وطول مران.. كان خالك عامر ينجز ما يسند إليه من أعمال السرية والتحري علي الوجه الأكمل، الأمر الذي جعله يتدرج في الترقيات من نائب عريف إلي عريف، ثم إلي نائب ضابط (صول) وصادف مره أن دخل أحد أبناءه المستشفي علي أثر حادث سيارة.. كان ولده هذا هو الأثير عنده لما كان يلمس فيه من نجابة ومستقبل زاهر.. خف خالك عامر لزيارة ابنه، غير أن التعليمات صادرة إلي رئيس الحراسة في البوابة الرئيسية بعدم الدخول في ذلك الوقت.. فلما جاء خالك عامر اعترضه شرطي يمنعه من الدخول فطلب أن يخبر رئيسه بأنه زميلا له يطلبه جاء نائب الضابط المكلف بالحراسة يستطلع الأمر، فوجد خالك عامر

بمهابته وثباته المعهود مع شيء من تكلف التعالي والتجهم.

قال الصول مخاطبا خالك عامر: تفضل يا أفندي.

-زميلك أكبر منك.. يقصد المعنيين القريب والبعيد - أكبر بالعمر أو بالرتبه - عندي مهمة داخل.

-تفضل يا أفندي.. تفضل أفندي.. وحياة التحية العسكرية لرتبة توهمها كأن يكون الرجل مقدما أو رائدا علي الأقل.

دخل خالك عامر فزار ولده واطمأن عليه ثم خرج مارا بحضرة الصول.

اعترضه الصول هاشا متذللا.. قائلا أهلا وسهلا مع السلام يا أفندي، وهم بالتحية العسكرية.. فاوقفه خالك عامر قائلا: تشوف صوابع إيدك؟ ما همش سوا.. والله إلا رئيس عرفاء زيك.. لكن التريس فيهم فرق.

حلومه عندك أمّا عين

كان شخص طرابلس نسبة إلي المدينة – ولد بلاد – يطلق النكات في كل اتجاه ينال بها أصحابه بلسان لاذع.. واصحابه خليط من بلاد مختلفة.. من نالوت مثلا ومن الزاوية ومصراته، والقرابو لي والخمس ومن زوراه وترهونه وغيرها وكان أكثر من يستهدفه: الترهوني، والترهوني كان دمث الخلق خجول متسامح كريم إلى حد بعيد، فكان يأخذ نكات صاحبه علي محمل المزاح البرئ.. وأصحاب الطرابلسي الآخرون يردون عليه بنكات علي سبيل ردات الفعل.. لكنها لم تكن لاذعة بقدر يشفي الغليل منه كما قدر الترهوني.. فالطرابلس له قدرة عجيبة علي تأليف النكات والتشنيعات علي أصحابه وخاصة الترهوني الذي يستهدفه أكثر من مرة في الجلسة الواحدة.. أخيرا وبعد طول سكات، أنبري الترهوني يروي لاصحابه بما فيهم الطرابلس نكتة البسها لباس الواقع، فكانت مرة لاذعة ساحقة ماحقة اشفت غليل المجموعة من الطرابلس المتطاول عليهم دائما.

قال الترهوني: الطرابلسية دائما متسلطة علي زوجها.. تنهره وتسبه وتستخدمه في أداء واجباتها البيتية، وليس له كلمة معها إلا ما ترضي به، وذات يوم عاد إلي البيت (الحوش) وللحوش سقيفة طويلة تفضي إلى الغرف المطلة علي الفناء الداخلي، وكان ينوي أن يرفع صوته علي أمراته ويتمرد عليها منذ الساعة، لانه ضاق ضرعا بقهرها له واذلاله.. أخذ يطرق الباب بعنف.. لم تتحرك هي لفتح الباب.. كانت تعالج أضافرها بطلاء جديد اشتراه لها بأمر

منها في اليوم السابق.. ولما اشتد الطرق علي الباب بعثت بابنتها الصغيرة لفتح الباب.. دخل هو السقيفة وصرخ باعلي صوته: حلّومه.. حلّومه وأخذ صوته يخف حين أقترب منها صرخت في وجهه: خير دين أمك؟!

قال وهو يطاطئ رأسه وفي صوت واه، صاغرا متذللا: عندك أمّا عين يبو الغسل؟ قالت دون أن تنظر في وجهه: هو ينهم عرم من امبارح خش المطبخ نظفهم وسيقه وسكر فمك.

خليفة والطماطم

خليفة شاب بدوي، يتخلق باخلاق القرية، أصيل قبيلة تنتشر مساكنها بين مليته والجديدة في منطقة العجيلات.. نال قسطا من التعليم الرسمي لا يتجاوز المرحلة الاعدادية، مكّنه عضو المجلس التشريعي عن المنطقة من وظيفة كاتب جلسات بالنيابة العامة في مركز المقاطعة الغربية – الزاوية – كان خليفة معتداً بنفسه واثقا من امكانياته حذقا لوظيفته، مداوما علي الحضور في الوقت المحدّد لا يتغيب عن عمله، ويقوم بأدائه علي الوجه الأكمل.. تم تنسيب خليفة إلى النيابة الجزئية ككاتب جلسات مع وكيل النيابة المعين حديثا والقادم منذ شهور إلى الوطن بعد أن انهي دراسته في كلية دار العلوم بالقاهرة وكان الرجل قد تزوج من زميله له مصرية الجنسية رافقته حين عاد واستقرت معه في بيت منحته له الدولة في مكان عمله.. ضل خليفة يعمل في وظيفته الجديدة بحرس واتقان، واحترام وتقدير لزملاءه ورؤساءه.. كان يجالس الموظفين في الدائرة التي يعمل بها، ويتحدث معهم ويتفكه ويتندر ويجادل في جميع المسائل والمستجدات، حديث الندللند.. أما مع الرؤساء والقضاة ووكلاء النيابة العامة فكان يتحفظ ويتجنب الحديث خارج نطاق العمل.. حتي كان يوما طلب منه رئيسه وكيل النيابة الذي يرافقه في كتابة محاضر الجلسات أن يمر عليه مساء في البيت.. ضن خليفة أن الأمر يتعلق بالعمل.. كان يساعد وكيل النيابة في ترتيب بعض الملفات الخاصة بقضايا الناس وما شابه ذلك.. لكنه حين دخل بيت وكيل النيابة بعد أن طرق الباب وأذن له بالدخول رابه الأمر.. وجد رئيسه

وكيل النيابة في لباس خاص بالبيت: بيجامه قديمة رثة متسخة ببقع لم يتبينها بادئ الأمر.. جلس خليفة علي كرسي صادفه في بهو البيت الذي كان مفتوحا علي السماء – وسط الحوش – فما كان من وكيل النيابة رئيس خليفة إلا أن قال له: وقد كان منهمكاً في تفصيص كمية من الطماطم موضوعة في (قفه) كبيرة وتقابله زوجته – قال: تعالي شاركنا في العمل: فصص وإلا أصعد إلى الصطح أنشر ما قصصناه نظر خليفة إلي رئيسه شزرا وباحتقار وقال: طماطم شنو اللّى ننشره؟! وإلاّ أنفصصه!!.. أنا نرقي ننشر الطماطم؟! وإلاّ انشرحه؟ وهالبقره اللّى جائيها أتكر فيها شن قاعدة أدير.. ونهض خليفة غاضبا يرجم رئيسه بلعنات غاضبة قائلا: لعنة الله عليك وعليها وعلي الطماطم، وعليّ حتي أنا اللّى حاسبك راجل.. وخرج يزمجر من فوره.

جاء خليفة الينا في حال غير الحال متعجبا ومنكراً الموقف الذي تعرض له.. كان يسكن معنا نحن جماعة من المدرسين في بيت واحد – عزّاب – وأخذ يقص علينا الموقف بحذافيره، وبين الحين والآخر يقول: هذا ما زال غير خليفة يفصص وينشر الطماطم.. تعيش وتسمع.. عمركم سمعتو راجل يغصّص وينشر الطماطم؟!

في صباح اليوم التالي دخل خليفة علي مدير النيابة العامة وفي جيبه استقالته إذا لزم الأمر، وفي يده طلب نقله إلي أي وظيفة أخري غير العمل مع وكيل النيابة صاحب الطماطم.. لكن المدير كان له حدس صائب ثبت بعد ذلك بخصوص انتقال خليفة أو استقالته.. وضل يستدرج خليفة في الحديث حتي أفصح له عن الأمر فنقله علي الفور، وضل يطلب خليفة بين الحين والحين ويطلب منه إعادة المشهد كما عاشه.. فكانت حادثة الطماطم.. نادرة تسامع بها كل الموظفين في الدائرة وتداولت خارجها.

عمك الزنتاني وشباب المدينة

الزنتان قبيلة عربية معروفة يشتهر أفرادها بالفطنة والذكاء، وحضور البديهة وسرعة الخاطر، وحلاوة الحديث الذي لا يجاريهم فيه أحد.. وهم من النباهة والمبادرة ما يعرفه عنهم الناس ويسمع به الجميع في ليبيا، وخاصة في المناطق الغربية والجنوبية حيث ينتشر أفراد وعائلات هذه القبيلة، التي مركزها بلدة (تاغر مين) الاسم القديم للزنتان، وتقع في وسط جبل نفوسة: الجبل الغربي كما يعرف الآن.

ربما كانت هذه المقدمة الموجزة لازمة ونحن نقدم هذا الحوار الذي دار بين رجل بسيط متواضع في مظهره، لكن مخبره كان عن عقل راجح، وفكر نير، وبديهة حاضرة وفطنة لا مثيل لها.. قد لا نعهدها في المتعلمين وأهل الثقافة والمعرفة.

هذا الرجل الذي حاوره شباب من المدينة – طرابلس – لا شك أنهم من أصحاب الشهادات والعلم، ومن أهل الحضارة والتمدن، ونحن عندما نقول من المدينة دون غيرها كان نقول: مدينة الزاوية أو الخمس أو مصراته وغريان، فاننا نعني العاصمة، فهي تمثل دائما الحضارة والثقافة والأخذ باسباب المدنية والتقدم العلمي علي الأقل مجازا.. وحتي لا نطيل فيصبح هذا الحوار الذي أشرنا إليه.. ياخذ شكل القصة، أو الحكاية الصغيرة.. علينا أن نسوق هنا الحوار المصاغ كما سمعناه من الرواة، وباللهجة الشعبية.

كان عمي الزنتاني قاعدا فوق ربوة صغيرة في ركن عن الحمادة، بعد أن جمع كمية من الكمأة (الترفاس).. كان ينتظر ابنه الذي سياتي إليه من البلاد ليصحبه معه كما اتفق واياه.

علي غير توقع تقف سيارة صحراوية - دفع رباعي - فارهة جديدة من آخر طراز.. ينزل منها ثلاثة من الشباب.. توسم فيهم عميّ الزنتاني بحدسة أنهم من المدينة.

-الأول: خير

-الزنتاني وعليكم السلام ورحمة الله

-الثاني: شنو هذا.. ترفاس؟

-الزنتاني: وما دامك تعرف ترفاس ليش تنشد؟ والا أتصحح؟

-قيسه بحري - يقصد من وراء البحر - محاولا السخرية.

-الزنتاني: قاعد قباله بحري.

-الأول: منين من روما والا باريس.. ويبتسم.

-الزنتاني: من داك الظهاري اللي غربي مالطه - طعنه في الصميم

-الثاني: ورينا وين نلقو الترفاس يا عمي الزنتاني.

-الزنتاني: سلمك لأمك.. أنت وطاتك أغرسها بوصره وعمك الزنتاني يوريك وين تلقي الترفاسات اللي يراجي فيهم من العام للعام.. هذا كان صبت مطرهم.

-الثالث: توهكي انروحو من غير ترفاس؟! واحنا قولنا للعويله بنجيبو لكم الترفاس.

-الثاني: هيا تبيعلنا هالترفاس يا عمي؟

-الزنتاني: يا كلوهم الواشين أبجل.

-الأول: فهمتوش حاجة من غير كلمة ياكلوهم.

-الثاني: شن معناها ابجل؟

-الثالث: حسب ما فهمت افضل.

-الثاني: وشن معني الواشين؟

-الزنتاني: الدراري.. العويله.. الصغار علي رائكم.

-الأول: تو انروحو من غير ترفاس.. والعويله اراجو فينا.

-الزنتاني: هذا كان روحتو.. الليل قريب أطيح عليكم يا أكبادي والبرفيه ذئب عادي.. حتي سيارتكم هاذي ما تمنعكمش منه.

-الثاني: فيه ذئب هناي.. حيه عليكم حيه.

-الزنتاني: فيه ديب وضبع.. وحنش وعقرب، وارنب تعض.

-الثالث: حيه عليكم هيا فيسع أنروحو.

-الأول: والترفاس

-الزنتاني: خوده من طريق الزبس

تم الحوار

طريق الزبس – مكان – طريق طرابلس السواني الآن عند مدخل طرابلس الجنوبي.. يباع فيه الترفاس الذي يجلبه البدو من مضانه وأشهرها الحمادة الحمراء.

أستاذ الفلسفة يرعي الإبل

ليست النوادر بمعني: فكاهة الحديث والمواقف النابهة وطرايف القصص والحكايات الصغيرة، والأخبار والحوارات الذكية التي توصف بالفطنة والنباهة ورد الإجابة السريعة حين الأسئلة المفاجئة عن عمد، فقط هي التي تدخل في هذا الباب. إنها القصص الصغيرة والطريفة والمستغربة أحيانا التي تثير الإعجاب هي أيضا تعتبر من النوادر لقلة ما تقع بين كل جيل، وفي كل زمان ومكان.

وهذه إحدي القصص التي سمعتها من رواة ثقاة عن رجل معروف لدي منذ سنوات طويلة مضت، ثم انقطعت عني بعد ذلك اخباره، لأن ظروف الحياة فرقتنا.

كان الخنجاري زميلا لي في معهد محمد بن علي السنوسي خلال السنوات ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ حيث كنا نقوم بالتدريس في ذلك المعهد.. كنت مدرسا للغة العربية والدين، وكان هو مدرسا للاجتماعيات.. وكنا نشرف علي القسم الداخلي، واحد في الصباح والآخر في المساء.. كان الكوني حديث التخرج من الجامعة الليبية في بنغازي: كلية الآداب قسم الفلسفة، ومنذ سنة ٦٤ تفرقنا.. نقلت إلي وزارة الأنباء والارشاد رئيسا لقسم الفنون الشعبية والتراث، وذهب هو إلي اليونان لتحضير رسالة الماجستير في الفلسفة، بعدها عاد إلي ليبيا واشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية علي ما أذكر في المنطقة الغربية، حيث أنّه من مواطن تلك المنطقة من جماعة الصيعان أولاد أمحمد قبيلة العضائمة - وذات صيف في فترة تعطيل الدراسة كان في المساء يلعب الورق مع أصحاب له فكان

ينادي كل من الجماعة الثلاثة المشاركين للكوني في اللعبة.. ينادي بعضهم: حط يا دكتور.. أرمي يا دكتور.. وحين يكون دوره يقولون: ورقتك يا كوني.

والرجل شهادة للتاريخ من الذكاء بمكان، وعلي قدر من التواضع أسرها في نفسه، وعزم علي أن يحضر رسالة الدكتوراه وفي تخصص نادر وصعب، ذهب للدراسة في أمريكا وأكمل رسالته في زمن قياسي.. اتقن اللغة الإنجليزية كتابة ومحادثة.. ليس هذا بيت القصيد، ولا هي الطرافة في الحكاية إنما الطريف الذي أثار إعجاب جماعة من الإنجليز، نذكره الآن: كان الدكتور الكوني الخنجاري يربي قطعانا من الإبل في الطرف الغربي من سهل الجفاره حيث مضارب قومه.. ذهب مرة يتفقد قطيعا له من الابل ويزود الراعي بما يلزمه من مؤنه أكل وشراب، أوقف سيارته في مكان تبات فيه الإبل، ووضع ما احضر للراعي من تموين، ثم ذهب إلى الراعي وهو يتبع الإبل علي مسافة منه، فلما وصل إليه سلم فلم يرد الراعي.. بعد برهة انفجر غاضبا بكلام فيه لوم شديد، لأن الدكتور الكوني تأخر عليه بعض الوقت، فاخذ الرجل يتلطف معه ويطيب خاطره، لكن الراعي تمادي في ثورته الغاضبة وقال: والله من اليوم ما عاد امتبعلها جره.. يعني الإبل.. هاذي يبلك قدامك الغدد والصمد إن شاء الله.

استشاط الدكتور غضبا لكنه تحلي بالحلم وكضم غيضه فالوضع محرج بالنسبة له.. هو جاء في ملابس أفرنجية – قميص وبنطلون – والسيارة متوقفة بالقرب منه وفيها لوازم عليه أن يذهب بها إلي بيته: خضراوات ولحم وخلافه، والراعي يغلظ الإيمان في ترك الإبل مهما كان الأمر. ويردف قائلاً: والله ما عاد امتبعلها جره لو كان تعطيها لي بلاش الكوني يفيض به الكيل غضبا.. تثور أعصابه فيرد علي الراعي: ملوحتلك تحسابها.. هو ذو ما أنياقي الحمر من عقب إبل جدي اللي

مات بينهم في تراب زار أنسلمهم لك يا هامل.. هات الشكوه والمخلة وانتلف من قدام وجهي.. وكان في يد الكوني (مشغيط) ضرب به الراعي علي اكتافه، وقال له: خوذ وجهك يا شن أيقول فميّ أرتعد الراعي وخاف العاقبه فسلب المخلة من رقبته ورمي بها اليه هي والشكوة وابتعد تجنباً لمزيد من الضرب وتأجيج ثورة عند الرجل - الكوني - أخذ الكوني المخلاة والشكوة وقصد الإبل يجمع أطرافها التي ابتعدت قليلا، فالوقت علي وشك الغروب ذهب الراعي إلي زميل له يرعي قطيعا آخر بالقرب منه كانت له به قرابه.. أما الدكتور الكوني فقد جمع الإبل وساقها إلي مراحها - مكان بيت الإبل - كان قريبا من مكان وقوف السيارة.. أخذ يعقد كبار الإبل ثم تناول شيئا من الزاد الذي أحضره معه بعد أن حلب من نوقه ما يكفيه لوجبة العشاء وفضله للصباح، ثم توسد كومة من تراب ونام حتي شروق الشمس.. حينها أخذ يفك عقال الكبار من الإبل لتسرح ثم تبعها وهو ينوي رعايتها حتي يدبر لها راعي آخر.

استبطأ أهل الكوني رجوعه فتنادي بعضهم للحاق به وكانوا يعرفون أنه منذ يومين قصد مضمان وجود الإبل من أجل تزويد الراعي بالتموين غير أن أخاه الأصغر منه كفاهم ذلك، ولحق به رفيق له.. وصلا إلي الإبل فوجدا الكوني يتبعها من بعيد وفي يده عصاة يهش بها، وشكوة فيها ركوة من حليب، ومخلاته في رقبته، وقد نزع حذاءه الذي لم يعد صالحا لتلك الأحراش، وتبع الإبل حافيا، وهو في غاية الغبطة والانشراح.. بادره أخوه قائلا: شن غريبتك اليوم يومين ما روحتش.. انشغلنا عليك وين السارح؟!.. رد الكوني السارح خوك.. ما تشبحش في الشكوة فيدي والمخلة في رقبتي؟! ونياقي أهم رائضات قدامي خير من الدنيا وما فيها.

-صاحبه الذي رافق أخاه: ريت هالحزازي.. وليت زيداني وإلا فدعي دلال البل يا حسرة.

-الكوني: ولا جميل الكعاليف.. اللي لوحو بالة المرمة وجو يرعولنا في اكحيله الغالية.

-أخوه: ترعاها في سروال بو طويل وسورية نصف كم؟!

-الكوني: ولا إدرة كبدي كعلّي ما يسواش خمسة صوردي.

-أخوه: والله ما تسمي علينا ولد الخنجاري لنقر فارس العطب يرعي البل.

-الكوني: بره سلم خوي أرفع السيارة ما دام جي معاك عماره.. وجبيلي وزره وبلغه كسلستها وقدّه، وقشطه نلويها علي رأس وسورية واسعة كمها زوز ميتر وتهني معادش أدور خوك.

لم يقترب بعد موعد السنة الجامعية الجديدة حيث علي الدكتور أن يلتحق بالكلية التي يدرس لطلبتها فلسفة المناهج التعليمية الحديثة.. لذلك قرر الدكتور أن يقضي قرابة الشهرين وهو يتبع الإبل، ويتخير لها المرعي الجيد، ويوردها مورد الماء في الوقت المحدد الظمي يمتح لها الماء بنفسه من البئر.

وصادف يوما والإبل صادرة من مورد الماء وهو يتبعها ويفرز غرائب الإبل التي خالطتها حين كانت علي المورد فيطردها خارج إبله.. صادف مرور جماعة من المهندسين الجيلوجين الأجانب، يختبرون الأرض بحثا عن النفط.. فكان أعجابهم بالإبل، وهي تسرح يتبعها صغارها وتقودها الكبار منها في اتجاه المرعي، والدكتور يصفر وينطق بأصوات تعرفها الإبل فتجد في السير وتتجمع في اتجاه واحد.

رغب أحد المهندسين الأجانب – إنجليز – في الحديث مع الراعي، فقال رفيقه له وبأية لغة تحادثه؟.. أنه من بدو الصحراء الذي لا يعرف يقينا إلا لهجته.. لكن المهندس اقترب من الراعي ضنا منه أنه لابد يعرف بعض مفردات اللغة الإيطالية.. باعتبار أن ليبيا كانت مستعمرة إيطالية ولعل هذا البدو يعرف بعض مفرداتها وخاطبه: برلالي طليانو؟ رد الراعي – الكوني – وهل تعرف أنت الإغريقية سأتكلم معك أن كنت تعرفها.. قال هذا بلغة إنجليزية سليمة وبطلاقة وأسلوب فصيح.

ذهل الجماعة – وهم إنجليز – وبداوا يحاورونه في شئون كثيرة.. أين درس؟ والبلاد التي زارها، والجامعات التي تخرج منها.. حاوروه في التاريخ والجغرافيا وفي السياسة وعلم الاجتماع، وكان يطارحهم الحديث في الشأن الاقتصاد والثقافة العامة وحتي في ما يتعلق باختصاصهم.. في الجيلوجيا والتعدين والتنقيب كمعلومات عامة وليس كرجل متخصص بالطبع، فكان إعجاب هؤلاء شديدا بهذا الرجل الذي يتبع قطيعا من الإبل في الصحراء والذي يتحدث معهم بلغتهم كواحد منهم، بل أكثر فصاحة وحرصا علي التقيد بقواعدها كما في الكتب أخيراً علموا أن الرجل يحمل درجة الدكتوراه في الفلسفة وعلم النفس وشهادات عليا في المناهج التربوية الحديثة، وأنه موسوعة في كثير من المعارف والثقافات، وانه من الذين جابو معظم الولايات المتحدة الأمريكية، وزار معظم دول أوروبا الغربية والشرقية وانه استاذ جامعة ولا يستنكف من رعاية إبله عند الضرورة.. وفي مشهد حي قام بحلب ثلاثة نياق وقدم لهم شربة من حليب النوق.. شرح لهم خصائصه الغذائية وفايدته في علاج بعض الأمراض، وأنه مع حفنة من تمر وقليل من دقيق السويق يعيش عليه الراعي شهورا وأسابيع.

هذا هو الدكتور الكوني رحمة الله عليه.. لقد علمت من سنوات أنه قضي نحبه وهو يقود سيارته فجرا في الطريق من بلدته بدر نحو طرابلس.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الدكتور الكوني لما عاد من أمريكا يحمل شهادة الدكتوراه في تخصصه النادر، استضاف جماعته الذين كانوا يلعبون معه الورق وطلب منهم بعد أن تناولوا الطعام.. أن يلعبوا طرح (كارطه) قائلا لهم لكن بدون أرمي يا دكتور.. حط يا دكتور.. راهو معادش فيه حط يا كوني كلنا تدكترنا، والشهاد مش باش انغيرو بيها الاسم.. الشهادة باش نعلموا بيها الأجيال.. وخاطب الدكتور الذي كان يقابله في اللعبة: حط يا صالح.. بعدها التفت إلي من بجانبه وقال: حط يا حميدة.

١-زار: مكان قرب الحدود التونسية الليبية من جهة ليبيا به بئر ترده الإبل.

٢- يذكر أن جد الكدتور الكوني الأول - جدا بيه - كان فارسا مشهورا، وكان ذات يوم يتواجد مع إبله في منطقة (زار) فهاجمه فرسان من التوازين من قبيلة أولاد حامد عائلة الزغاديد طلبا للإبل حين كانت الغزوات عرفا سايدا في ذلك الوقت فقاتلهم حتي تمكن أحدهم من قتله ونهبو الإبل.. فذهب أخوه إلي إبل للزغاديد فقتل الفارس الذي يرافقها وساق الإبل وضلت الغارات والثارات سجالا بين الخناجرة من الصيعان والزغاديد من التوازن إلي أن تدخل العقلا بينهم فكفوا عن القتال.

٣-كسلتها فده: نقالها من جلد بعير.

٤-الزيداني والقديمي: نسبة إلي الزيادين والقدادمه قوم يقومون بتربية الإبل ورعايتها الرعاية الحقة.

حسبنا الله ونعم الوكيل

كانت سيدة من أهل الصلاح.. خيرة طيبة، صابرة محتسبة يقينها في الله لا حد له.. وكل اعتمادها وتوكلها عليه.. لا تغفل عن ذكره وشكره طرفة عين، عابدة زاهدة.. كانت منفصلة عن زوجها لسبب من الأسباب.. هي لا تذكره تسامحا وكرما منها.. كانت لها أبنة بارة بها تلازمها البيت حين تفرغ من عملها.. فالسيدة لاتخرج من بيتها إلا في الضرورات القصوي كعيادة المرضي من الأقارب المقربين، أو حضور أفراحهم واتراحهم.. صادف يوما والحال كان صياما في شهر رمضان الكريم، وفي ليلة السابع والعشرين منه.. ليلة القدر كما يخرص الناس – وعلمها عند الله – كان المغرب قارب أن يحل، والبنت تتلمض حيري ماذا تفعل.. البيت ليس فيه من الطعام شيء، فالبنت تعمل في مؤسسة بأجر زهيد، وقد مرت ثلاثة أشهر دون أن تستلم مرتبها – عادة المؤسسة دائما – البيت خال من فضلة ما يؤكل.

قالت البنت لأمها: ما العمل يا أمي.. وأنت تعلمي الحال، لا طعام لنا في هذا اليوم والشمس أزفت علي الغروب.

–قالت الأم: الصابرة المحتسبة رزقها علي الله، وانه غير غافل عنهما.. لا تجزعي يا بنت طعامنا المقدر لنا في هذا اليوم قليلا أو كثيرا عند الله وسيأتينا إن شاء.. الله يرانا ويسمعنا ويعلم حالنا.. أليس هو بالسميع البصير العليم بذات الصدور؟!

–لكن المغرب بعد ربع ساعة.. متي نطبخ ومتي نأكل وليس لنا ما نطبخ أصلا؟!

-ومن قال لك أننا سنطبخ؟ أنا علي يقين من أنه رزقنا سيأتي إلينا.. وقرأت الآية الكريمة (وما من دابة علي الأرض إلا وعلي الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب معلوم) هود

-صدق الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

-يا بنت الله يبعث لتلك الدابة علي الأرض مهما كان حجمها وضآلتها كالنحلة وأصغر منها، رزقها كل يوم.. فهل ينسانا نحن؟ هو يسمعنا الآن وطعامنا في هذا اليوم آت الينا إن شاء الله.

وهما في هذا الحال والشمس قاربت أن تغيب في الأفق.. حتي دق الباب الخارجي للبيت.

-قالت البنت سمعت طرقاً علي الباب.

-لعله رزقنا جاء إلينا.

-تعجّبت البنت وقالت يأتي في هذا الوقت والشمس غاب نصفها في الأفق؟

ومتي نعده فرضا جاء.

-يأتي الفرج بين طرفة العين والتفاتها.. وكما في المثل يأتي الفرج بين السدي والنيره.. قولي خيرا يا بنت ويقينا بالله.

يعاد طرق الباب وتتبعه تنبيهة من منبه سيارة.

تخرج البنت تستطلع الأمر فتجد رجلا من أجوارهم.. ليس جار قريب لكنه من سكان الحي، له بهم صلة قربي.. كان مع الرجل ابنته، وهو يناولها أطباق الطعام والبنت تضعها فوق مقدمة السيارة.. حتي جاءت صاحبة البيت: -البنت- فسلمت ثم طلب منها الرجل ومن ابنته: أن تقوما بادخال ما أحضر من

طعام إلي الداخل.. فكانت المائدة المنقولة من بيته إلي بيت السيدة وابنتها تحوي: أصنافا من الطعام: ما لذ منه وطاب.. مرق بلحم الخراف (شربه) محشيات ومقليات.. عصبان.. بازين أنواع عديدة من المقبلات والمشهيات مما يقدم في شهر الصيام.. أطباق بها سمك مشوي أطباق بها مقليات من أحشاء الخروف.. أصناف مختلفة من فاكهة الموسم، وأخري مجففة، مشروبات من كل لون ونوع.. كانت مائدة من موائد الرحمان التي يتبرع بها أهل الخير علي من بهم عوز وحاجة.

أدخلت تلك المائدة العامرة إلي بيت السيدة صاحبة اليقين والضن الحسن في الله.. فكانت هي الرزق الذي أخبرت به ابنتها، ساقه الله لها فهو الذي لا يغفل علي أحد من خلقه، ويرزق من يشاء بغير حساب، ونعم الله وحسبنا هو.. فليعتبر من تنفعه العبرة ولا يأس من رحمة الله.

بـــن يعـــلى

رجب أو ساس أو ميلود.. بدروش أو شعيلي أو خليفة ومنصور وغيره كل من هذه الأسماء قد يكون من ولد يعلي.. فيعلي اسم لرجل ينسب إلي عايلات اليعلات، واسم يعلي معروف في غدامس وفي زواره.. ومعروف أيضا أن معظم سكان مدينة زواره وبعض من أهل غدامس يعودون في أوصولهم الامازيغية إلي أصل واحد، وحتي اللغة تتشابه في بعض مفرداتها، وفي كل الأحوال لا تهمنا المثلوجيا بقدر ما تهمنا هذه الحكاية النادرة، أو النادرة المحكية.

بن يعلي هذا رجل من النابهين، أصحاب الفطنة والذكاء وحسن التخلص في المواقف المحرجة التي تورط صاحبها في تبعات غير محمودة العواقب ترمل بن يعلي بعد زواج سعيد، دام لسنوات، ولأن الرجل لا يطيق العزوبية، فهو يحتاج إلي من يعوله في شئون بيته، يقوم لحاجته ويسهر علي راحته، فالرجل بخلاف المرأة التي غالبا ما يكون لها سند وعائل كأبيها أو أخيها أوحتي كفالة من قريب لها.. نعود بالحديث إلي بن يعلي الذي أخذ يوصي أهله وأقاربه، ليبحثوا له عن زوجة، وأشترط أن تكون أرملة وليس مطلقة، فهو يؤمن بالقول: (لا تأخذ اللي مهول ولا تاخذ اللي سرزها متحول علي بنت في العشرين عول عوّل.. إلي آخر الكلام وربما لبن يعلي فلسفة خاصة في المقارنة بين المطلقة والأرملة، فالأولي يقول ربما مازالت عندها ذكريات مع مطلقها، وأيام عاشتها معه لا يعرف كنهها، قد تكون قريبة أو بعيدة، وفيها ما فيها من سعادة وسرور أو علي كل حال مازال زوجها الأول في المحيط يصول ويجول، وتنقل أخباره وما يطرأ

في حياته وما إلي ذلك من أمور.. أما الأرملة فقد انقطعت أسبابها مع المرحوم وهو علي كل حال ليس علي وجه الأرض، وكل يوم يمر تنساه وينساه أهله فهو في حياة البرزخ ينتظر بين القيامة والدنيا.. هكذا كان يفكر بن يعلي.

عثرت قريبات بن يعلي علي امرأة ترملت من عهد قريب، تم الاتفاق بين أهله وأهلها - عقد القران وكانت الليلة الأولي.. صعد بن يعلي إلي السدة وتبعته زوجته - فكان تمهيد الحديث لما يأتي من فعل.. بدأت المسكينة أول ما بدأت في سرد شيئا من سيرة زوجها الفقيد.. كظم الرجل غيضه وهو يستمع علي مضض.. عادت إلي سرد جزء آخر من السيرة المحمودة استشاط الرجل غضبا فلم يملك نفسه بأن دفعها من أعلي.. وقعت علي أرض الغرفة.. أصيبت بكسور ورضوض.. ضلت تئن تحت وهو يزفر فوق حتي طلع الصباح.. جاء نساء من أهلها للقيام ببعض الواجبات وتهنئة العروس.. وجدوها في حال لا تحسد عليه - أخذوها معهم إلي بيت أخيها.. سألها.. أخبرت بالخبر ذهب أخوها إلي قاضي المدينة برفع قضية علي بن يعلي.. طلب الرجل. جاء خالي البال إلا مما فعل ليلة البارحة..

سأل القاضي: لماذا فعلت بالمرأة ما فعلت؟

-قال: وماذا فعلت أنا بالذات؟

أخبره القاضي أنه دفع بزوجته من أعلي السده كما أخبرت فوقعت وكسرت رجلها.. أليس كذلك؟ فإذا كان ما أخبرت به صحيحا فأنت أجرمت في حق المرأة وعليك ما عليك من حقوق.

-بن يعلي ألا يريد أن يسمع مني سيدي القاضي كما سمع منها؟

-ماذا تقول؟ أنا مستمع إليك.

-يا سيدي القاضي: لما طلعنا السدة بنرقدو.. هي جبدت المرحوم وأنا جبرت المرحومة.. أصبحنا أربعة والسده ما تحمل إلا اثنين.. صار الدعاك.. طاح من طاح، وقعد من قعد.. آش كون قب الآخر ما ناش عارفين: منو اللي عليه الحق ما ناش عارفين.

ضحك القاضي وبرأ بن يعلي وضلت قولته نادرة ترويها الأجيال، وهكذا هي النوادر، يأتي بها من أوتي الحكمة.

القســـم

طالما استمعنا إلي هذا القول المأثور عن السلف قسمك أجيك وأجلك تمشيلها نعم هو الرزق المقدر من الله يأتي إليك كل يوم عندما تأخذ بالأسباب وهي: السعي وراء الرزق، والضرب في مناكب الأرض بذلا للجهد لتوفير المعاش من مأكل ومشرب وملبس، وليس الرزق أو المعاش تمطره السماء، فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة.. إنما تمطر الغيث، والغيث سبب من الأسباب هو عون للإنسان علي شق الأرض وبذر البذر.. زرع وتعهد وحصاد، وذلك يحسب سعياً مشكوراً للحصول علي القسم.. ربما هذا التمهيد البسيط يصبح لازما في شكله الموجز ونحن نذكر القسم الذي جاء في هذا القول مقرونا بالأجل، بمعني الموت ونهاية العمر وتوقف الحياة التي لا نعلم أين تكون (ولا تدري نفس بأي أرض تموت) فنحن قد نذهب إلي الأرض التي نموت فيها علي أية صورة ولا يخطر ببالنا أين موقعها.. قد يكون في ساحات القتال أو في البحر أو الصحراء أو نحن في فسحة في بلاد غير التي نسكنها.. في بروج مشيدة: فنادق فخمة من ذوات الخمسة نجوم مثلا وربما في طائرة تنهب الأجواء، أو باخرة تمخر عباب البحر.. طائرة تصاب بخلل بسيط تسقط علي أثره في البحر أو علي قمة جبل أو باخرة تغرق في مياه المحيطات فتذهب بركابها إلي أعماقه حيث الحيتان والأسماك.

حكايتنا هذه المرة محورها: القسم بمعني: الرزق المقدر لنا كل يوم من سعينا في الأرض، عن طريق التجارة أو الحرف اليدوية المختلفة، أو أي مهنة من المهن كالزراعة

والرعي، أو الخدمة في المرافق العامة أو الوضائف في المؤسسات حكايتنا هذه تتعلق بالبحر والبحارة، فالبحر فيه رزق لاهل الشواطئ والجزر، كما هو الرزق يجده أهل البر والصحراء في الرعي والزرع، وأهل المدن في التجارة والصناعة والحرف.

حكايتنا هذه واقعة حية، عاشها أحد البحارة وقصها علي في معرض حديثة معي ونحن نجلس علي شاطئ البحر تحت (وشكة) من نخيل، ونتأمل في المياه الزرقاء أمامنا.. مياه البحر التي تغطي ثلاثة أرباع الأرض.. وهي بين مد وجزر وقد جعل الله لنا منها مركبا وفيها رزق.

أخبرني هذا الرجل قال: كنت بحارا مع جماعة في مركب يملكه رجل في نفس الوقت هو: الرئيس الذي يقوده والمراكب الصغيرة التي تستخدم في صيد السمك يصنعها أهل الشواطئ صناعة محلية وينزلون بها البحر يلتمسون رزقهم، للبحارة طقوس وتقاليد متبعة، واعراف يعملون بموجبها ولا يحيدون قال: كما هو معروف ومتعارف عليه انزلنا المركب إلي المياه أي (عومناه) وعدنا فحملنا الرايس علي اكتافنا نحن البحارة أجلسناه في مكان القيادة واخذنا نستعد لتهيئة الشباك التي سنرمي بها في البحر بالأسلوب الذي يشير به علينا الرايس، ولما أنجزنا مهمتنا علي خير وجه – عدنا – بالمركب كما يحدد لنا الرايس طريقنا نحو اليابسة انتظارا إلي صباح اليوم التالي حتي نعود فنخرج الشباك بما فيها من رزق.

قال: نذكر أن هذا الرئيس الذي كان يستخدمنا هو من أبخل البحارة في حينا الذي يتاخم البحر، ولبخله وقلة معروفة كنا ونحن نعمل معه نخرج من البحر خالي الوفاض.. وكان أجرنا حصة مما نحصل عليه من البحر فاذا لم نحصل علي شيء يذهب جهدنا دون عناء.. ولولا حاجتنا والعوز الذي كنا فيه ما كنا رافقناه يوما في البحر.

قال: دخلنا ذات يوم نستخرج الشباك مؤملين الحصول علي رزق أكثر معللين النفس بالأماني.. وإذا بنا نستخرج شباكنا، وقد علقت بها كثير من الطحالب، ولم نحصل إلا علي خمس سمكات، وكنا ثلاثة من البحارة ورابعنا الرئس الذي أخذ سمكتين اختارهما الأكبر والأجود نوعا، باعتبار أن الريس له حصتان من المحصول وبحري حصة واحدة.. كان الفصل بداية الصيف، والناس بدأوا يتوافدون علي البحر يتبردون ومن الناس الوافدين من هم ليسوا أهل الشواطئ، والعرف المعروف المتبع: أن البحارة عندما يخرجون من البحر حاملين صيدهم، يمنحون جزء من هذا الصيد إلي هؤلاء الذين يعدون من الاغراب عندما يصادف وجودهم علي الشاطئ.. يواصل الرجل القول: أمرنا الريس أن نعود إلي المركب علي قرب منا حتي يبتعد عنا هؤلاء الذين فأجونا بحضورهم.. رجعلنا خطوات نحو البحر لنخفي ما حصلنا عليه من صيد زهيد كي لا يطمع فينا هؤلاء.. يقول في الاثناء خطر علي بالي خاطر.. قلت في نفس لو أن هذه السمكة التي في يدي هي رزق (قسم) من عند الله – لأحدهم – فلا بده آخذه شيئت أم أبيت.. قال خرجت بها في يدي وخرج الزملاء والريس دون سمك بعد أن اخفوه في المركب، يواصل القول: صادفتني عجوز كبيرة في السن فاعطيتها لها ثم ملت قليلا عن رفاقي بمحاذاة البحر قاصدا محل سكناي القريب، وإذا بي أري شيئا عن بعد عرفت علي الفور انه من أحياء البحر.. قصدته.. وجدت سمكة كبيرة من أسماك (الشوله): نوع من أسماك البحر عالية الجودة، لازالت تستنشق الهواء بصعوبة انحسرت عنها المياه فلم تعد قادرة علي الرجوع إلي البحر.. أخذت أحاول جرها إلي بيتي القريب حتي لحق بي رفاقي البحارة والريس فلما وصلوا إليّ قلت لهم: أريتم كيف عوضنا الله؟!.. الله

يخلف ما تعطيه عن طيب خاطر، وهو الخلاف الكريم.. سكت أحد رفاقي أما الآخر فقال: يعطي الله لمن يشاء بغير حساب.. أعطيت القليل فاعطاك الكثير هنيئا لك برزقك.. قال الريس هذا رزقنا جميعا.. نحن شركاء فيما نعثر عليه من البحر: ريس وبحّاره.. فجأة ينطق رفيقي الذي كان ساكتا – يظهر أنه كان يتدبر في حكمة الله الذي عوضني في التو واللحظة، وقبل أن اتحول عن موضعي الذي وجدت فيه العجوز.. نطق الرجل فقال: والله ما هو أمشاركة واحد في رزق أعطاه له الله، وموجها كلامه إلي الريس: أما أنت فرجل طماع.. الطمع في طبعك، والطبع جبل زي ما ايقولو.. وأنا من اليوم والله ما عاد طاق معاك طقه.. ثم يخاطبني: خذ ما كافاك الله به.. رزق حلال من عند الرزاق.

قال الرجل: ذهبت إلي أهلي فناديتهم ليعينوني علي حمل تلك السمكة التي كانت تزن أكثر من ٨٠ كيلو.. قال بعت السمكة بمبلغ ١٥٠ دينارا في تلك الأيام، وبحسبة بسيطة حسبنا ما حصلت عليه فوجدناه يساوي مرتب موظف في الدولة لمدة ثلاثة شهور إذ أن متوسط المرتب لا يزيد عن خمسين دينارا هكذا تفضل علينا الله بمعاش لمدة ثلاثة أشهر، وهكذا ضلت تلك الحادثة لا تبرح ذاكرتي، فكانت عضة وعبرة لي ولمن حدثته بها.

شـــراب عاشـــور

عاشور رجل (يتكيف) بمعني: أطيس نسبة للطاسة.. إجغّم تنسب للجغمة من الشراب.. يتفّح أو يشرب وكلها توريات تاتي علي اللسان المحلي.. فهو صاحب كيف أو طاسة وباللفظ الصريح: يتعاطي الخمر، فهو شارب لها أو معاقر، يعقد مجلسها مع ندماء له يأنس بهم ويرتاحون إليه.. ذات مرة جلس عاشور مع صاحب له وجده في حانة، عندما كانت الحانات منتشرة في المدنية وفي الأحياء التي يسكنها الأجانب كالإيطاليين والمالطين واليهود، وأصحاب حانات الشراب غالبا، كانوا من الملاطيين واليهود في زمن مضي قبل الاستغلال. وبعده حانات راقية وأخري شعبية مثل: القط الأسود، وبار الفول والقلارية وغيرها، في مدينة طرابلس

كان صاحب عاشور سابقاً في المجلس ينتظر عاشور، وكان الوقت قبل بالظهر جاء النادل فأشار أن يأتي إليهما بقنينات من البيره (الجعه) فلما وضعها النادل أمامهما.. قال عاشور شنو هذا؟!

قال صاحبه أخفيفه صالحة في هذا الوقت

قال عاشور هاذي!! هاذي شراب نساوين.. هات الصحيح.

-شنو الصحيح يا عم عاشور.

-مكر شم وإلا ولد العنبه.

-قصدك عنقود أعنب يعصروه ليك في طاسة؟!

-قصدي: وذنك.. قصدي ولد العنبه اللي امخبي غمسطاس أنعام في خوابي تحت لرضي.. مش شراب أمك.. عنقود عنب يعصروه ليك في طاسه!!

خليك يا راجل من شراب النساوين.. وهات شراب التريس وإلا معادش تقعد معاي.. يعتذر صاحب عاشور وينادي القرصون فيأمره أرفع هذا شراب نساوين.. وهات زور بالصودا، ومعروف الشراب الذي بمزج بالصودا.

-قال عاشور: توسي.. يوم سردوك ولا ستين يوم دجاجة لين اتكمّلهم

-شنو اللّي انكملهم؟

-طاساتك اللي مكتوبات.. سيورهم يكملو شن بتقعد ديها ضال؟

-يا رب خففهم.. قول أمين يا عشور.

-احنا والسامعين.

المرابطـــون

وماذا عن المرابطين بمعني أوليا الله الصالحين وليست تلك التسمية التي تسمّت بها جماعة من المسلمين كانو يرابطون في الثغور دفاعا عن ديار الإسلام ثم بعد ذلك تسمت بها جماعة كونت دولة في المغرب العربي سمتها بهذا الاسم، دالت دولتهم عقودا من الزمن.

المرابطون الذين سنتحدث عنهم لهم حكايات أخري كانت لنا معهم ذكريات بعضها وقفنا عليها وقوف المشاهد الشاهد وبعضها وصلت إلينا عن طريق السماع من الثقاة الذين حدثت في محيطهم وعاشوها تجربة وعيانا وحدثونا بها.. ونحن نقدمها كما عشناها أو سمعناها – فمن أراد أن يصدق له ذلك ومن ينكر ويكذب له شأنه.

خليفة رجل طيب بسيط، تجده أحيانا يغيب عنك وأنت تجالسه وتتحدث معه – تخاله يحلق بعيدا في ملكوت آخر.. هو رجل من بيت طيب فقير وفي حاله كما يقولون.. رجل هادي مسالم يحدب علي عياله، ويجاهد في الحياة كغيره من الناس.. كان ذات مره كما أخبرني في مهمه من الخلا صحبة صغار معه من عائلته، وكان الوقت صيفا.. كانو في طريقهم إلي الحي، أدركهم الليل، وكانوا في حالة من العطش شديدة، جلسوا علي الأرض لا يستطيعون مواصلة السير، أخذت الرجل سنة من النوم.. استيقض فجأة علي بكاء الأطفال الصغار من شدة الظماء.. لا شعوريا يصرخ الرجل رافعا بصره إلي السماء، ويخاطب في حدة

وعشم، لا يعرف من كان يخاطب.. لكنها هكذا كانت كلماته (الذرية بيموتوا بين إديه بالعطش.. لاه عليكم يا رسول الله) يصمت منفعلا برهة ثم ينظر وراءّ فيجد جرة ماء (وعاء) بارد يسحبها ويبدأ يسقي الأطفال واحدا بعد الآخر، ثم شرب هو حتي أرتوي.. ينام الجميع حتي الصباح.. بعدها يواصلون السير نحو الحي.. أخبرني هو شخصيا بهذه الحكاية قال: قمت في الصباح أيقضت الصغار وأستانفنا السير ولم أبالي بما إذا كانت هناك جرة ماء في المكان، وأقسم أنه لم يري أحدا ولم يجد أثرا وعدها كرامة من عند الله انقذته والأطفال من موت محقق.

وهذا سيدي مسعود، أخبرني هو شخصيا وهو حي يرزق إلي منتصف سنة ٢٠١٦ – أخيرا أخبرني ابنه – عبد السلام – بانتقاله إلي رحمه الله.

الرجل من بيت مبارك في منطقة الزاوية الغربية (أولاد بو حميرة كان مسعود كما أخبرني وهو شاب في مقتبل العمر.. أخذ فرسا لابيه وذهب بها إلي حفلة عرس في حيهم، ولما افتقد والده الفرس وكانت عزيزة عليه، غضب غضبا شديدا وتوعده باللوم والتقريع حين يعود، وكان والده الشيخ من أهل الصلاح والتقوي.. ولا نزكي علي الله أحد: مرابط معروف في المنطقة.. فلما حضر مسعود يركب الفرس، وكانت مجهدة يقطر منها العرق.. أعترضه والده، يرغي ويزيد، شاتما متوعدا، فما كان من مسعود الا أن ربط الفرس في مربطه، وأخذ طريقه نحو الشرق هائما علي وجهه دون زاد ولا ماء.. قال: بعد السير مسافة لا بأس بها مستني الجوع والعطش فوجدت في طريقي نخلة ومحجومة بمعني مقطوع أعلاها من أجل أن تدر مشروبا اسمه (اللاقبي) كان الناس يقتاتون به، ويشربونه في سنوات القحط قال: صعدت النخلة فانزلت الوعاء وشربت ونمت، وفي الصباح استانفت السير، دائماً نحو الشرق، وعلي بعد خمسين

كيلومتر تقريبا، حط مسعود الرحال، وأخذ يعمل في مزارع الطليان يجمع الثمار ويزرع ويحصد، ثم توطن في ذلك المكان تزوج مسعود وأنجب وملك الملك، والملك لله كما يقول.

بيت القصيد أن مسعود هذا ظهرت له كرامات حدث بها الناس وما من أحد من متساكني المنطقة، إلا ويعرف هذه الكرامات التي تداولت بين الناس، ويعرف سيدي مسعود كما - ينادونه - حدثني شخصيا بهذه الحادثة، ويحاسبني الله إذا زدت فيها او نقصت من حيث مضمونها، عدا اختلاف اللفظ اللساني فلا حرج فيه.. أو ما يتماشي مع أسلوب الكتابة وتصوير المشهد، وقبل أن أروي المشهد الذي حدث أقول أن أهل الصوفية يقول الناس عنهم: عندما يشرب بعضهم الخمر التي يعرفها الناس وهي مرة المذاق ومسكرة. يقولون أن الصوفية يجدونها في ريقهم عسلا مصفي وليس كالخمرة التي يعرفها الجميع مرة لاذعة تذهب بالعقل أقول هذا والعهدة علي من قال.

نعود إلي سيدي مسعود وكما قلت حدثني فقال: كنت اشتغل في إحدي مزارع الطليان وكان بجانب المزرعة إيطالي آخر يملك مزرعة مزروعة (كاكوية) الفول السوداني، وكان للإيطالي بيتا علي الطريق يدير فيه بارا يبيع المشروبات الروحية. قال: كنت ذات مساء في ذلك المقهي وكان الإيطالي يسمع من الناس يقولون: مسعود مرابط.. مسعود مرابط قال والكلام لمسعود: جاء الي الإيطالي وأنا أشرب قهوتي وجلس قبالتي وقال لي يا مسعود أنت مربوط.. أطلب ربي اجيبلنا المطر - كانت الأرض مجدبة في تلك السنة قال في عفوية ودون وعي مني قلت له: باهي ونسيت الموضوع.. طال السهر ومسعود مازال في المقهي.. ويظهر أن الإيطالي أخبر زوجته: الروميه كما يسميها مسعود، فقال

لها أن مسعود سيطلب لنا المطر.. جاءت وقدمت لمسعود شيئا من نبيذ.. قال مسعود شربت ما قدم لي وضلت الروميه تصب وأنا أشرب إلي ساعة متأخرة من الليل وعندها قفل المقهي قال ذهبت إلى المزرعة التي أقيم فيها ونمت نوما عميقا.. فجأة استيقضت كمن نسي شيئا، ورفعت وجهي إلي السماء وقلت يا ربي وينها المطر؟ توهكي نقعدو متحشمين مع الرومي؟ قال ما هي إلا لحظات حتي ابرقت واردعت فنزل غيثا مدرارا سالت منه الأرض ولم يتجاوز حدود مزرعة الإيطالي.. قال: ومن ذلك اليوم أصبح مسعود كل ما يطلب يستجاب، وأصبح في نظر الإيطالي أكبر مربوط. والناس في تلك المنطقة سمعت منهم الكثير عن كرامات سيدي مسعود، وهو إلي حد الآن، ونحن في سنة ٢٠١١ يوسطه الناس في النزاعات بينهم، فيعملون بما يقترح ولا يخالفون، والرجل مبجل عندهم مكرم، وهو عفيف زاهد عما في أيدي الناس، وحاله ميسورا يملك مزرعة وبيتا حديثا، وله ولع بالخيل لا تفارقه أبدا، يتبرك بها ويسوسها ويركبها بمهارة في شبابه وكهولته، وعندما كبر ضل يقتنيها ولا تخلو منها مزرعته، والرجل يزوره الناس فيذبح لهم الذبائح ويكرمهم، ويفرح بهم ويدعو لهم الدعوات الصالحات، ويقول: علينا بالدعاء وعلي الله الإجابة والله علي كل شيء قدير.

وهذا ابو فارس لم نعد نراه منذ سنوات، وكان يدير كشكاً يبيع الدخان والولاعات، وخردوات بسيطذة في ميدان الجزائر بطرابلس، كانت له كرامات تحدث بها الناس، سمعت بالرجل فجئت إليه أطلب منه الدعاء بالصلاح والخير لي وللناس أجمعين، قال لي: (الواصل يأخذ بيد أخيه) ادعو الله لنفسك وأدعو لي معك وللمؤمنين فالله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وله الأمر من قبل ومن بعد، وليس بين الله وعبده واسطة ثم أضاف ولماذا تأتي إلي أنا؟ وفي بلدك رجل

مبارك هو من أوليا الله الصالحين، هناك يبيح الماء لأصحاب الدكاكين يحمله علي ظهره مسافة بعيدة نظير قروش معدودة.. سألته هل تعرف اسمه؟ أجابني أنا لا أعرف اسمه وعمري ما ذهبت إلي بلدك ولا اعرف أين تقع.. لكنه هو الشيخ المبارك في تلك البلاد.. ذهبت إلي البلد يوم العطلة الأسبوعية، وسألت عن (حموده) إذا كان علي قيد الحياة، وكنت أعرفه وأنا طالب في المدرسة الابتدائية.. كان في عمري تقريبا وكان يجلب جرار الماء من بئر بعيدة عن السوق ويوزعها علي أصحاب الدكاكين، قيل لي أنه ما زال حيا يعيش مع أخوته في بيوتهم، علي أطراف القرية، ذهبت لزيارته وكان معي صاحبي الشاعر علي.. وجدنا الرجل خارج البيت يجلس في ركن قصي بعيدا عن الأطفال وحركة الحياة في بيوت أخوته، وجدناه في حالة هيام وتجلي خارج الوعي تقريبا، سلمنا عليه رد السلام طلبنا منه الفاتحة.. ضل يردد يا أوخييني يا أوخييني.. ودعناه وعدنا.. بعد يومين سمعنا: أنه وافاه الأجل رحمه الله عليه، يقال أن أهل الصلاح إذا عرفوا رفعوا.. وبو فارس هذا هو الذي عرفه.. ونعود إلي أبي فارس الذي طلب من أحد أصحابه أن يذهب إلي دار البيجو ليشتري له سيارة فما كان من صاحبه الا أن اتصل بمدير الشركة هاتفيا – وكان صاحب له – يطلب منه سيارة، رد المدير لا توجد عندنا أي سيارة.. لكن هناك دفعة قادمة بعد يومين تعالي وخذ ما تريد نقل الرجل إلي أبي فارس ما قاله له صاحبه المدير، قال بو فارس عندهم سيارة وحده بره جيبها ان شاء الله حتي سوده.

ذهب الرجل إلي دار السيارات – دخل علي صاحبه المدير وقال له: عندكم سيارة وحيدة وعلي ما اعتقد لونها أسود، هل هذا صحيحا؟!

قال المدير: نعم، لكن لا أريد أن أبيعك هذه السيارة وبهذا اللون وأنت

صاحبي، وافضل أن تصبر يومين وتنتقي اللون الذي يعجبك.

قال الرجل: السيارة ليس لي، وصاحبها الذي يريدها يعرف أنها الوحيدة ولونها أسود، ولم يدخل هذه الدار في حياته.. ولله رجال.

أما عن الشيخ التواتي فالحديث يطول، والناس تعرفه في المنطقة الغربية كلها، وقد شاهدته وهو صغيرا لا يتجاوز عمره العاشرة.. شاهدته يصعد النخلة مهما كان طولها جريا ودون ماوصلة، ويتمرغ في قلبها كما يحلو له، وهو (يهاجي) بكلام من عنده يضل علي هذه الحال وقتا طويلا.. ثم ينزل قفزا أو جريا مع ساقها (الصاري) دون أن يصاب بأذي، ومن المفارقات التي أخبر بها رفاقه في إحدي المرات، وكان يؤدي فريضة الحج، وهو بين حج وعمرة دائما.. أخبرو عنه في مرة وكان يركب الحافلة مع مجموعة من الحجاج رفاق له من قريته، وقد وجه له السائق بعض اللوم وكلاما لا يعجبه.. لأن الشيخ التواتي من عادته: لا يجلس في مكان ويضل ينتقل بين الركاب، ويدعوهم ويحثهم للصلات علي النبي ولا يفتي يرفع عقيرته بالدعاء طوال الطريق.. فغضب الشيخ التواتي وطلب من السايق النزول حالا، وهو في حالة هيجان شديدة فما كان من السايق إلا أن وقف علي يمين الطريق.. فنزل الشيخ وجلس علي تلة صغيرة وضل صامتا يشيح بوجهه عن السايق.. ضغط السائق علي دواسة البنزين محاولا الانطلاق في طريقه من مكة إلي المدينة.. الحافلة لم تتحرك، حاول أكثر من مرة لم يتغير شيء نزل من الحافلة يتفقد الخلل لا يوجد حار في أمره والركاب يرقبونه في قلق.. جاء إليه واحد من رفاق التواتي قال له: لا تحاول ما دام الشيخ غاضبا ستبقي هنا هذه الليلة ونبقي معك ما لم ترضيه كان السايق من الشام قال: شو أرضيه.. شو أنا عملت للزلمة؟!

قال الرجل: أرجوك لا تمشيله ولا تقوله زلمه ولا حاجه خليه علينا.. توه أنرضوه، كان هداه ربي.. كان ما هذا: انباتو اكلنا الليله في هالصحراء السايق! أعلم معروف خيي روحله.. رضيه شو بدو.

ذهب الرجل إليه وكان من أقرباءه وطلب منه أن يسامح السائق ورغّبه في زيارة رسول الله قبل غروب الشمس.

فرح الشيخ التواتي عندما ذكر له الرسول وضحك عندما رغّبه قريبه في التشرف بزيارة النبي ونسي الإساءة إليه وجاء يجري إلي الحافلة وطرق بابها بعمامته، ودخل وقال للسائق: سوق.. سوق.. انطلقت الحافلة في طريقها إلي المدينة، وكان الشيخ يتجول فيها من أول مقعد إلي آخر مقعد ويهاجي: يذكر الله ويصلي علي النبي ويدعو الركاب إلي المزيد من الدعاء والصلاة.. أما السائق فقد لاذ بالصمت ولم ينبس ببنت شفة طول الطريق وعن الشيخ التواتي يطول الحديث فهو من تجده اليوم في زلطن مسقط رأسه، وغدا في زليطن بلد الشيخ عبد السلام الذي يزوره كثيرا، واحيا يكون في طبرق ومره في سبها ويوم آخر في إحدي مدن الدواخل، وهكذا هو دائما من بلد إلي بلد.

وفي هذا المقام، وإذا عددنا أولياء الله الصالحين والاتقياء من أهل الكرامات والتقوي كما قال السلف الصالح.. فاننا نحتاج إلي صفحات وصفحات علي أنه يجب أن ننبه إلي أمر مهم وناخذه في الاعتبار وهو أنه كثيرا من المشعوذين والمدعين الدخلاء يخالطون هؤلاء الصالحين والاتقياء وينسبون أنفسهم إليهم زورا وبهتانا، وأغلب هؤلاء تدسهم أجهزة خاصة بين أولياء الله الصالحين ولاغراض خاصة فيتشوه ذلك الوسط النظيف الطاهر وتحسب عليه أخطاء المزيفين، وهؤلاء المندسين تزودهم الأجهزة التي تجندهم بالمعلومات والسير

الذاتية لبعض المستهدفين في مناطقهم وتشيع لهم الدعاية والترويج – المزيفين – بين الناس فيقصدونهم يستجلون المستقبل لهم ولغيرهم وبعضهم يسأل حتي عن المحضور والممنوع الكلام فيه، وهؤلاء المزيفون يقدمون التقارير لمن جندهم ودسهم وروج لهم علي أنهم ممن يعلم الغيب ويخبر بالمستقبل، والله وحده عالم الغيب والشهادة.. أما الصالحون والاتقياء من أولياء الله فحشاهم ادعاء علم الغيب فهم في حالتهم هائمون يعبدون الله خير عبادته ويخشونه ولا يطمعون في ما عند الناس وتراهم زهادا في الدنيا مقبلين علي الآخرة وإن أعطي لاحدهم ما لا فرقه علي الفقراء والمساكين، وفي الغالب لا تجد لهم أزواجا ولا أولادا، ولا مالا ولا عقارا وهم إذا ظهر أمرهم بين الناس وعرفوا علي نطاق واسع توفاهم الأجل.. سبحان الله ولله رجال.

الكذابون والنصابون

وماذا عن الكذابين والنصابين أجاركم الله منهم، لا يخلو منهم مجتمع، وتجدهم في كل بلد وحي، يعيشون علي النصب والحيلة والكذب والتدليس، وما من نصاب الا وهو كذاب، وقد تجد من يكذب ولا ينصب وهؤلاء قلة يكذبون لمجرد الكذب لانه مرض متأصل فيهم عفاكم الله.. أما النصابون فهم آفة من آفات المجتمعات وهدفا لبعض الناس الطيبين وأصحاب النوايا الصادقة الذين يفترضون دائما في الناس الصدق.. وحسن الخلق ومن الناس لا صدق له ولا خلاق، وكم من أناس طيبين ذوي أخلاق فاضلة ومنبت حسن، تعرضوا للنصب والتدليس من قبل هؤلاء الخبثاء الذين لا يتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل، والحاق الضرر بضحاياهم الطيبين وفيما يلي نماذج من هؤلاء النصابين.

واحد منهم كذاب نصاب، تعرض إلي رجل طيب حسن النوايا فاضل الخلق من ابناء جلدته، خارج أرض الوطن، وهما في غربة: الرجل الطيب صاحب النية الحسنة المضحوك عليه والنصاب الكذاب الذي غرر بالرجل وسلب منه ماله وهو في أشد الحاجة إليه.. كانت الظروف غير طبيعية، أثر حركة تغيير في النظام كان الرجل الطيب يسير في شارع رئيسي في إحدي عواصم البلدان كان يبحث عن مكتبة تبيع الصحف ليتسقط أخبار الوطن، صدفة يلتقي بهذا النصاب الكذاب في عرض الشارع، ولأن الرجل الضحية معروف في وطنه علي

نطاق واسع، فإن النصاب سلم علي الرجل مرحبا، وافتعل مواقف وحكايات وحتي بطولات كان يقوم بها في يوم من الأيام في العهد السابق، وأدوار أسندت إليه من قبل القيادات كانت محل إعجاب الناس،م ومثار جدل، نال علي أثرها التكريم والتقدير، وكل ذلك كذب وتزوير ومحض خيال.. ضل ينصب فخاخه بادعاء أنه من ذوي اليسار، فهو علي قوله يملك عقارا يقدر بالملايين، وان فلان وفلان من معارفه، وبعض المسئولين كانوا يكلفونه بمهام خطيرة وكما يقال: وكان له في الجنة ذراع.. وبحسن نية تبادل الرجل الطيب معه ارقام الهواتف، ضل النصاب يتصل بين الحين والآخر.. يسأل عن أحوال الصحة، لا أكثر، وفي إحدي المرات عرض خدماته، إذا كانت لازمه في البلد المتواجد فيه بحكم الاقامة الممنوحة له، وكان الرجل الطيب يرغب في الحصول علي الاقامة في ذلك البلد المضياف بين شعبه الطيب، هنا وجد هذا الكذاب الخبيث المدخل الذي يمهّد له نصب فخاخه للرجل فتطوع في حماس شديد للقيام بهذه المهمة خير قيام وفي أسرع وقت لانه صاحب لمن بيده الأمر في هذا الشأن.. شكره الرجل علي أريحيته وتطوعه دون مقابل لانجاز المهمة.. سارت الأمور بينهما يومان أو ثلاثة ليس فيها الا السؤال عن الصحة والحال العام.. بعدها سافر الرجل إلي بلدة صغيرة يقيم فيها بعيدا عن العاصمة، وضل النصاب الكذاب مقيما في فندقه لايام آخر قبل أن يغادر إلي البلد الذي يقيم فيه إقامة دائمة.. وفي صباح يوم من الأيام يتصل بصاحبنا الذي عقد معه صحبة من أجل غرض كان ينويه.. اتصل وهو يفتعل: أنه في ضائقة مالية، ويحتاج إلي مبلغ من المال بصورة عاجلة وانه مستعداً أن يحوله فورا بعد أيام، انطلت علي صاحبنا الحيلة، وحس بشعور الغربة والحاجة التي لا يرضاها لنفسه، في يوم من الأيام، وتحركت فيه

مشاعر الغيرة والنخوة فما كان منه إلا أن دبر له المبلغ الذي طلبه بعضه كان في جيبه وبعض استلفه من جار له وبعث به إليه عن طريق البريد السريع.. استلم النصاب المبلغ في ظرف ساعة.. مجرد رقم اشعار تقدم به إلي مكتب البريد، ولا تزال صورة الأشعار في جيبه تذكره بطيبته وحتي غفلته، وخبث ونصب ذلك الرجل الكذوب، الذي لا يخاف الله ولا يستحي من عباده، ومن رقاعته وصحة وجهه طلب مبلغا آخر بعد أسبوع لكن صاحبنا المضحوك عليه، أفاده أنه مازال عليه دين جاره لم يسدده فكيف يدبر له مبلغا آخر واعتذر.

هذا كذاب نصاب الا لعنة الله علي الكذابين والنصابين - ينال جزاءه في الدنيا خزيا وعارا وفي الآخرة عقابا شديدا - والكذاب غشاشا مضللا يلبس الحق باطلا، والباطل حقا، ويوقع بالناس فيلحق بهم الاذي والخسارة وسوء العاقبة والمصير، والكذاب في الدنيا يحيي حياة ضنكي تلوك الناس سيرته وتغمزه وتلعنه سرا وعلنا.. هذا يقول عنه تورية: (يصب فيه زي الريح) أي أن كذبه مثل الريح، ومن يحسب الريح؟ والكذاب في الأمثال: يغدو له صوادق واجده) بمعني حتي لو صدق في حياته مرة من المرات فهو لا يصدقه أحد لانه عرف عنه الكذب.. لذلك فهو كذاب في نظر الناس ولو صدق والكذب طبع غلاب أو قل هو آفة اجتماعية ومرض لا علاج له، ومن الكذابين من يكذب لمجرد الكذب، لا عن طمع أو نصب أو جلب منفعة له، فهو يكذب لجلب الانتباه إليه، تراه يتلذذ بما يعتري وجوه الناس الذين يكذب في حضرتهم من استغراب وعجب بما في كذبه من قصص ومواقف لا تحدث حتي في الخيال، والكذاب ذو خيال واسع لا يحاده حدود.. وهو قوي الذاكرة قوي الحفظ وقلما تجده يناقض نفسه، يحرس دائما علي إعادة كذبه علي أكثر من جمع، يرتب في ذاكرته تلك الحكايات والمفارقات

المختلقة، والمواقف الصعبة التي وقفها وعاشها، وهو في الغالب أما بطلها أو شاهد عليها.. يخترع الأسلوب الملائم وينتقي الكلمات التي تثير الاستغراب.. يضيف ويعدل، ويخلق الاجواء المناسبة، لينطلي كذبه وبهتانه علي سامعيه.

مرة كان يرافقني كذاب معرفتي به حديثة التقينا بجماعة أعرفهم ولا يعرفهم، وفي وقفة قصيرة.. غلب علي الرجل طبعه، فاخترع كذبة يشارك بها في الحديث وحين ظهرت علي وجوه الجماعة علامات العجب والرفض الصامت لوقوع مثل هذا الذي ساقه من كذب، فجأة وجدته يستشهد بي قائلا: حدث هذا في وجود فلان وبعلمه، وبسرعة غير الحديث، وطفق يتحدث في شأن آخر من الشئون خارج موضوع الكذب.. لذت بالصمت تجنبا لاحراجه أمام الجماعة، ولما خلوت به لمته علي الاستشهاد بي في حادثة لا علم لي بها ولا تحدث أصلا في واقع الحياة.

الجود والشجاعة

الجواد بالمال، والجود بالنفس: صنوان، شجاعة وأقدام، وأي شجاعة هي تلك التي يجود بها الإنسان: نفسه أو ماله.. المال عزيز وكما يقال: قطعة من الكبد.. أما النفس فالجود بها منتهي الجود والتضحية.. وتكون رخيصة علي من يبذلها في سبيل المبادئ والقيم العليا، ولها وللأوطان فداء عندما تتعرض الأوطان للخطر والمال الذي يصرف في وجوهه وعندما يجب صرفه حين وقفات النخوة والمروؤة والشهامة، هو كذلك عزة وشرف لمن يبذله عن طواعية وأكرام.

في هذه الحكاية نسوق خبر رجل كريم جواد أشتهر بين معاصريه وضلت أخياره تتردد من بعده أنه: (طيطش) رحمه الله، وطيطش لقبه أما أسمه فمعروف بين من عاشوا معه في بلدته وخارجها وحتي خارج الوطن.

والحكاية علي لسان أحد حضور أحد مواقف الرجل.. كان طيطش يصحب جماعة من رفاقه وعددهم سبعة إلي مطعم قريب من محل سكناه في مدينة تونس العاصمة حين كان في زيارة لها، وما إن أخذ الجماعة أماكنهم في صالة المطعم وقبل أن يوزع عليهم الطعام دخل جماعة يزيد عددهم عن العشرة لنفس الفرض كان بين الجماعة رجل يعرف طيطش فما كان من طيطش إلا أن نهض وسلم علي الرجل وهو يبش في وجوههم ويلهج بكلمة: تفضلوا نهار مبروك لبي الجماعة الدعوة فتوسعت مائدة الطعام حتي أخذت حيزاً أكبر من نصف مساحة الصالة. لم يفكر الرجل طيلة جلوسهم علي الطعام وضل

يوانسهم بالحديث والبشر والترحات حتي فرغوا من طعامهم وهموا جميعا بالخروج عند ذلك سبقهم طيطش إلي خزينة المطعم وكان العامل فيها صاحب المطعم نفسه والرجل يعرف أن ما في جيبه لا يكفي لسداد ثمن الوليمة تقدم بكل ثقة واطمئنان من صاحب المطعم قائلا: هذه ساعتي أرجو أن تكون تعرف قيمتها أنها (رولكس) خذها احتفظ بها عندك حتي أدبر ثمن ما أخذنا من طعام.

قال صاحب المطعم: لا حاجة لي بمعرفة قيمتها فانا لست بآخذها ثمناً لطعام أنت تكرمت به، فكنت الكريم الجواد، وانا ليس في جودك وكرمك لكني أقول لك والله لقد ريت كيف يكون الكرم، ولعلني منتفع بهذا الموقف، وأرجوك أن يبقي هذا سر بيننا قال الرجل هذه ساعتي عادت إلي معصمي أما موقفك الشهم فاني والله مفشيه واستمهل الجماعة في الخروج وهو يشير إلي صاحب المطعم هذا الرجل جاد بطعامكم اليوم فلا تحسبوها عليّ.. قال واحد من الجماعة أولا تشكره علي تفضله الكريم ونثني علي طعامه الطيب ونطلب أن يحجز لنا مائدة كل يوم عشاء وغداء ولمدة أسبوعين فنحن في مهمة رسمية.

ادبـــرو روســـهم

هذه حكاية وقعت أحداثها قريبا، رواها لي شخص ثقة، يصدق القول ولا يتزيد فيه، لا يزوق الكلام ولا يشطح به خياله يصف الأحداث كما يعيشها ويشاهدها ذهب الرجل علي رأس وفد ثقافي إلي قطر محاذي - مشاركة في مهرجان ثقافي فني دوري يقام كل سنة في وقت محدد.. كان برفقته ثلاثة أشخاص من الشباب اثنان من الشعراء وآخر أديب قاص من الناشئين.

يقول الرجل: كان فتحي الشاعر يقود السيارة وكنت بجواره والشابان الآخران يجلسان خلفنا.. تابع الرجل القول: بعد أن تجاوزنا الحدود، ووصلنا إلي أول بلدة قريبة هناك أوقف فتحي السيارة، وغاب قرابة عشر دقائق، عاد بعدها يحمل صندوقاً متوسط الحجم ومعه زجاجتان من البلاستك، أحدهما بها ماء معدني دفع بها اليّ وأخري قال: أنها (فانطا) سلمها للشاب الثالث – الجيلاني – ثم فتح الصندوق واخرج منه علبتين حدّ بأحدهما إلي صاحبه سامى وفتح الأخري واخذ منها نفسا طويلا وقال: والله لا أغيبك يا مفتاح الكنوز.

يقول الرجل: قلت له وأثرت إلي قنينة الماء في يده هذا: ماء، عرفناه واللي عند فتحي قلت: أنه (فانطا) ولم تخبرنا عما تشرب أنت وصاحبك سامي؟

قال: هذي الخفيفة يا حاج الله لا: يشوفنا فيها.

-الصندوق اكله خفيفة؟!

-هو قد اش فيه يا حاج ٢٤ يا الله يوصلنا للبلاد الجاي مشروب خفيف فيسع أطير.

-قال الجيلاني: وأطير العقل.

-ما أطير العقل إلا قلته.. أزهي والهي وأدير الدنيا اكلها.

-الحاج: بالك سكير يا ولد؟ هاذي محرمها ربي وما نرضوش بيه أحنا تودّرنا في جرتك في شربة ما.

-الجيلاني: في شربة خفيفة.. ويضحك.

-فتحي: الله يهديك يا جيلاني علاش بتخوف الحاج؟.. هذا غير اسمه خفيفة أما هو: مشروب يرد الروح ويثبت العقل.

-الجيلاني: وعلاش سموه ذاهب العقل؟

-فتحي: قلة معرفة.. لو كان تاخذ وحيده اتجربها يا جيلاني تو أتغيّر رائك وتقول زيدوني.

-دومه عليك.. أنا لا نشرب ما يشرب عقلي.

-الحاج: هي المسألة فيها ذهاب عقل مرة وحده؟! تري يا ولدي درّس علي اليمين.

-فتحي: علاش يا حاج خفت؟

-الحاج: اللّى خاف سلم بره أجلس مع صاحبك أو خلّى الجيلاني يسوق أرواحنا مش رخيصة علينا.. تري سلم ولدي خلينا توصلو سالمين.

-فتحي: منك مش مني يا جامع.. حتي أنا نبي انقعمز مع صاحب وناخذ كيفي علي كيفي قبل أن تصل الجماعة إلي البلدة التالية وبينها وبين الأولي مسافة

لا تزيد عن ٥٠ كيلومتر.. أوقف الجيلاني ثلاث مرات بطلب من جماعة الخفيفة - زي الناس - كما تعني الكلمة المتعارف عليها.. علي مشارف البلدة الثانية نفذ الزاد من فتحي وصاحبه سامي.

-فتحي: حويج.. سلم الحجوج عشر دقايق زي بكري.. كملت الخفيفة.

-الحاج: ٢٤ كملت وين مشت؟!

-فتحي: مش شفتنا يا حاج نزلنا ثلاث مرات.. مشت في الرملة.

-الجيلاني يقول: اللّى بترافقه وافقه يا حاج.. بالله عليك، خلي انوقفلهم.. تهنّي ما تخافش عليّ في السواقه.. نسوق للصبح.

-الحاج: لا باهي كان ساق بينا فتحي والا صاحبه سامي.. وصلنا بكري.. وقفلهم زي ما قلت: الرفيق وافقه أو سيورها فراق.

نزل فتحي وأحضر صندوقًا آخر لم يصمد أمام فتحي وصاحبه طويلا.

وصل الوفد إلي مكان المهرجان وقصد الفندق، سلم لهم الاستقبال مفاتيح الغرف.. طلب فتحي أن يستلم غرفة لشخصين بالاتفاق مع صاحبه لمواصلة المنادمة والسهرة مع الخفيفة.

قال الحاج: هذه غرفتي رقمها ٢٤٢ وهي قريبة من الاستقبال، ربما يحتاج وأحد منكم حاجة ودخل غرفته - ذهب الجيلاني إلى غرفته، وفتحي وسامي إلي غرفة بسريرين.. حاول النديمان النوم امتنمع عنهما.. اقترح فتحي علي سامي أن يخرج ليبحث عن مزيد من الخفيفة أو أي شراب آخر من نوعها وافقه سامي خرج فتحي يبحث عن ضالته.. ما زال فتحي علي شيء من وعيه.. حفظ في ذاكرته رقم الغرفة وجذب وراءه الباب دون أن يغلقه بالمفتاح.. أما سامي فقد

انطرح علي السرير، وما ان خرج فتحي حتي ذهب في نوم عميق.. لم يضفر فتحي بشيء بعد أن وجد البار مقفلا قصد محلا يعرفه من قبل، وجد ما يطلبه قد نفذ لكثرة المتواجدين في المهرجان علي شاكلة فتحي وصاحبه.. عاد يخفي حنين.. تاه عن الغرفة التي بها صاحبه.. ضل يحاول أن يتذكر رقم الغرفة شوشت عليه الخفيفة ذاكرته، لم يكن بدا من أن يقصد غرفة الحاج رئيس الوفد بجانبي الاستقبال ما زال يتذكرها، أو قضي الرجل من النوم.. أخبره أنه لم يهتدي إلى غرفته.. ذهب معه يحاول مساعدته.. سأله هل أغلقت الغرفة بالمفتاح، أفاده أنه لم يغلقها بالمفتاح جذب الباب وراءه فقط.. هنا طلب منه الحاج أن يحاول فتح كل غرفة تصادفه، - وكان يرافقه - فإذا انفتحت فهي غرفته، لأن النزلا عادة يغلقون غرفهم بالمفتاح حين يأوون إلي فراشهم.

ضل فتحي يختبر باب كل عرفة علي عين الممر الطويل وعلي شماله في الفندق والحاج ينبّهه إلا يحدث جلبة فيزعج النائمين.. حاول مع أكثر من عشرين غرفة، حتي عثر علي غرفة عالج بابها فانفتح.. قال أهيه وتقدم ليدخل لكن الحاج هاله منظر فجذبه بسرعة قائلا: لا تدخل هذه ليست غرفتك.. كان رجل وامرأة كل منهما منطرحاً علي سرير.. الرجل شبه عاري.. والمرأة حاسره وهما في نوم عميق تأخر فتحي وترك الباب مفتوحا.

قال الحاج: سكر الباب تفتح علي الناس وتخليهم يضربهم البرد؟

فتحي: ادبرو رؤوسهم.

الحاج يضحك: كيف ادبرو رؤوسهم.. ولي سكر الباب في لهجة آمرة، هم بكرو دبرو رؤوسهم ورقدو.

فتحي: أنا عارف روحي كان انولي ما انديرش خير.. هالحمار راقد والنعمة بحذاه ملوحة.. تو اسد عليه النوم.

الحاج قيسه حتي هو صامتها اخفيفه.

فتحي: لا هذا مش لعب من يلعب.. هذا مش خفيفة هذا نوم فينو أحمر أمكر شم يا بوي.

ســــارح خالتـــه

أمطير اسم مفرح مستعار في حكايتنا هذه والاسم معروف في البادية ونحن حين نذكر البادية نستحضر خصائصها كالأسماء والمناخ والعادات والتقاليد، والأعراف والموجودات فيها.. وبما أن العنصر البارز في هذه الحكاية الصغيرة هي نعاج يرعاها أمطير – سارح خالته – ومن قائل يقول لماذا لا تكون هذه الرعية، من الإبل؟ وجوابنا أن المرأة في البادية وخاصة ضعيفة الحال، لا تقتني الإبل كسباً لها، فالإبل كسب الرجال الأقوياء القادرين علي رعايتها والاهتمام بها واللحاق بها حين تسرح في فجاج بعيدة، أما المرأة والتي حالها كحال صاحبة الحكاية فهي تربي غنيمات قليلة تدر عليها اللبن وتنتفع بأصوافها والخراف التي تنتجها كل عام، وأمطير هو من جهة أخري اسم من أسماء الفال في البادية، فهو كغيث وبرق ورعد وقريره.

ولنعرض الحكاية التي اصبحت مضرب مثل بعد أن كانت في البداية موردا له فالعامة تقول: (زي سارح خالته.. وتكتفي بهذه العبارة المجزوءة من صيغة كاملة هي: (زي أو كيف: سارح خالته، هي تقول: ولد أختي ما يأخذش مني، وهو يقول: خالتي ما تخلينيش بلاش)

والحكاية متواترة بين الناس في البادية بل انتقلت حتي إلي المدن نسمعها كثيرا فهي من المأثور المتوارث، ينقله جيلا عن جيل، ويجتاز الحواجز والحدود بين البيئات.

العجوز (شروه) والاسم ايضا من أسماء الفال، فالشروة مطر غزير يتخلله برق ورعد ورياح عاصفة.. هذه العجوز لم تنجب أولاداً في شبابها وزوجها فارقها مفارقة ابدية حيث انتقل إلي رحمة الله وتركها تكابد الحياة بمفردها ولأنه ترك لها شويهات قليلة حرصت علي أن تنميها لتحصل منها علي معاشها، وهي غير قادرة علي رعايتها ولا أن تستاجر لها راع تدفع له أجرة فحزمت أمرها أن تعهد بها إلي ولد أختها قائلة في نفسها: (ولد اختي ما ياخذش مني).

وابن اختها استلم منها الشويهات ليرعاها قائلا في نفسه:

(خالتي ما اتخلينيش بلاش) وهكذا كل حسب حسابه.

وضلت الحكاية مأثورة تجري مجري المثل.

شيباني لحيتك صوفه وما تهنيش

كانت قبيلة تجاور قبيلة أخري وتنافسها.. تزاحمها في المرعي ومورد الما ءوحتي في أراضي الحراثة عندما تنزل المطر في المواسم الزراعية.. كانت أحد القبيلتين تتفرد بالذكاء والفطنة واللسان الذلق اللاذع حين تريد استخدامه كسلاح ضد القبيلة الأخري، فتنالها به تشنيعا وتقليلا من قيمتها حقا وباطلا، وطالما حدثت بين القبيلتين منافسات واختلافات شديدة تصل إلي حد الاشتباك بالعصي والسلاح وهو شان القبايل المتجاورة والمتنافسة عادة.

ذات مرة مات طفلا صغيرا لأحد افراد القبيلة صاحبة اللسان وكان الرجل ينصب خيمة قرب نجع القبيلة المنافسة ذهب به إلي مقبرة مهجورة دفن فيها حديثا شيخا مسنا للقبيلة ونستعير لها الاسم (الفلانية)

حفر الرجل قبرا للطفل بالقرب من الرجل المسن الذي مات حديثا، وعاد إلي بيته، في الصباح ذهب يتفقد الطفل وجد القبر منبوشا ولم يجد الطفل عرف أن الذئب قد عدي عليه خاطب الرجل صاحب القبر قائلا: يعطيكم الهم وذهاب الشيرة: (الفولانيين) لا تهنو لا حيين ولا ميتين الطفل سله من تحت راسك الذيب، وانت لحيتك بيضاء صوفه!!

سلطـــان

يمتهن بعض الناس مهنا ينظر إليها البعض على أنها مهن وضيعة أو هي دون مستوى المهن الأخرى المختلفة.. هذه المهن مثل: مسح الأحذية، وإفراغ الآبار السوداء حين كانت تفرغ بطريقة يدوية بدائية، كذلك مهنة الدلالة: المناداة على البضائع والترويج لها أو السعي بها محمولة على الأكتاف بين الراغبين في الشراء مهنة مهما نظر إليها البعض بدونية واحتقار هي في الواقع تغني أصحابها عن السؤال وتكفّف الناس والعمل مهما كان نوعه هو أفضل من لا عمل.

وحكايتنا هذه تتعلق بسلطان.. في أحدى البلدات عرف في فترة من الفترات كثرة وجود اسم سلطان من جيل واحد أو على الأصح ولدوا في عام واحد، والسبب في ذلك مصادفة ظهور زعيم كبير اسمه سلطان في تلك البلدة كان له شأن بين الناس سمت كل والدة ولدها في ذلك العام على اسمه الرجل الزعيم، تيمناً وفالاً وأملاً في أن يصبح مثله في يوم من الأيام.

كان سلطان هذا - المقلد وليس الأصل - يمتهن الدلالة يحمل على كتفه أشياء للناس جديدة ودابة يعرضها للبيع، يتجول بها في السوق يذرع المساحة ذهاباً وإياباً ينادي بأعلى صوته: المليح وميح عرقّ سرّح وأنا انبرّح.. دلّل بادلآل سوق الرخى مازال المسموع مدفوع.. اللّي يشري يروّح فارح وما في هذه المعاني من عبارات ثقافة السوق وابتداع جماعة الدلالة.

في أحد المرات غلبه هوى النفس، والنفس أمّارة بالسؤ.. غافل أحد اليهود من

باعة الذهب والفضة والصياغة، فسرق خاتماً أعجبه، لكن أحد المعاونين لليهودي أخبر عنه فقبض عليه وسلمه للشرطة.. فلما مثل أمام القاضي سأله ما أسمك؟

قال: سلطان.. عقّب القاضي أسمك كبير، هل تعلم من هو السلطان؟ وأضاف: السلطان هو القانون.. الشرع.. الناموس الحكم - الدستور، نظام القضاء الشريعة وما في حكمها، الحاكم بأمره. ومادمت سلطان، فبماذا تحكم على نفسك وأنت الآن في مكاني، ومطلوب منك أن تحكم على نفسك بنفسك.

قال سلطان: مادام هذا كلّه هو أنا!! فأحكم بالعدل.. بالشريعة.

السارق تقطع يده، وأن عاود تقطع الأخرى.

- ثم أنت ماذا سرقت؟ قال القاضي: خاتماً لو كنت مضطراً جائعاً مثلاً تجد ما تسد به الرمق، لوجدت في الشريعة مباحا.. لكنك سرقت خاتماً تتزين به وأنت دلالا فقيراً يقال في الأمثال: عريان... وفيده خاتم.

- هاذى صدقت فيها.. الشيطان الله يلعنه ويخزيه يا حضرة القاضي.

- القاضي: خسارة فيك الاسم.

- هي غير خسارة؟! هي خسارة خاسرة حشاك.. وعندها حكاية طويلة.

- ما هي الحكاية لابد أن تكون غريبة كما هي سرقتك للخاتم.

- الحكاية وما فيها يا سيدي القاضي ما عليك جحده كان في البلاد زعيم كبير، أسماه سلطان.. مات البعيد عليك، عامها كل من جابت ولد سماته سلطان تبيه في عقلها يخلف سلطان الزعيم الذي مات.. كان سطاش والاّ سبعطاش سموّهم سلطان.. ظهروا حشاكم أكلّهم فسخ بطان، يعني ودحيه مارجه واحد عمره عشر أسنين دخلوه للمنكوبيو: «مصحة الأمراض النفسية» المليح منهم

يخدم كناس مع البلدية يلم في العفج بالعرجون ويحط في البرويطة، والباهي منهم هو أنا هاني أنلق في الشوارع والزنق، رافع على ظهري دبش هترش للناس كان بعت خمسة فرنك وكان ما بعتش انبات بلاش، وفي التالي رستلي أهي بتنقص يدي من خفة عقلي.

- قول من خفة أيدك.

- خفة أيدي من خفة عقلي.. قتلك سبعطاش سلطان الباهي فيهم أنا.

هذا من فضل ربي

في أحد شوارع الدار البيضاء الكبرى شارع الجيش الملكي الواسع الذي يوازي شارع الملك محمد النحاس.. نهج فسيح يؤدي إلى ضاحية عيد السبع وحي اليرنوص ومنهما يتجه نحو الشمال الشرقي إلى مدينة الرباط العاصمة.. في هذا الشارع كنت بمعية أحد معارفي من المغرب كان يرافقني إلى الفندق، في هذا الشارع، استرعت انتباهي عمارة كبيرة الحجم متعددة الأدوار، كانت مازالت تحت الإنشاء. ويظهر من تصميمها كأنها معدة كمكاتب للشركات.

قلت لصاحبي لم أرى هذه العمارة من قبل - تغيّبت عن المغرب سبع سنوات - فلما عدت تلك المرة لاحظت ارتفاع ذلك المبنى الشاهق الذي كان من قبل فضاء محاطاً بسور بين الشارعين الكبيرين.

قال صاحبي: لهذه العمارة حكاية أو الأصح لصاحبها حكاية وأي حكاية قلت هل فيها عبرة وفي الحكايات عظات وعبر.

قال: سأبدأ من البداية: كان ولداً صغيراً من أسرة فقيرة تسكن قرية صغيرة في سفوح جبال أطلس الكبرى من أهل السوس وكان الولد يرعى معزاة في غابة مجاورة للقرية.. أخذت الولد سنة من النوم أستيقظ بعد وقت، لم يجد المعزاة ظن أن الذئب أغار عليها وربما افترس بعضها وخاف الولد عقاب صاحب المعزاة، فهو كان يرعاها بأجرة زهيدة «هرب من المنطقة وهو أبن عشر سنوات، سلك مسالك وعرة في الجبل، حتى وصل طريقاً مطروقاً معبداً تمر منه ناقلات البضائع

الكبيرة» ضل واقفًا على قارعة الطريق حائراً في أمره ماذا يفعل، وهو في هذا الحال لحظ من بعيد ناقلة كبيرة قادمة «أشار إلى سائقها، أوقف السائق السيارة، سأله ماذا يبغي» انهمرت دموع الولد ولم يتكلم.. تلطّف معه الرجل حتى عرف منه حكايته وأنه خائف من عقاب صاحب المعزاة.. عرض عليه أن يصحبه إلى الدار البيضاء، لم يكن له بدا من الموافقة.. استضافه الرجل السابق في بيته، وجده طيباً بسيطاً على خلق أهل القرى والأرياف، والسوس معروفة بالطيبة وحسن المعشر «عرض عليه الرجل أن يبقى عنده في البيت كمعين للعائلة يقضي لهم حاجاتهم من السوق ويساعد في شؤون البيت.. ضل الولد مع العائلة سنوات حتى شب، بعدها استأذن مخدومه في أن يبعث مشروعاً تجارياً صغيراً –حانوت بقالة– والسوس في المغرب مشهورون بهذا النشاط أذلهم دأب منقطع النظير في الصبر على العمل والإخلاص لتلك المهنة مع الأمانة.. «توسع المشروع أصبح مغازة كبيرة» تعدد نشاط الشاب فشغل مجالات أخرى في الاقتصاد واشترى الأرض وباع.. أنشاء في البداية الدور الصغيرة وباعها، ثم بنى العمارات.. أنشاء شركات للمقاولات وتجارة السلع المختلفة.. ساهم في البنوك وضارب في البورصة، تضاعفت أرقام حساباته، أصبح من كبار الأثرياء وهو الآن يسافر إلى عواصم العالم على الدرجة الأولى في الطائرات أو أن أراد اقتناء طائرة خاصة لتنقلاته ليس عليه بعسير أشار صاحبي إلى العمارة الكبيرة قائلا.. هذه العمارة ملكه وعمارات أخرى في مدن أخرى، وفنادق ومخازن لأنواع البضايع هي ملك هذا الذي جاءت به الأقدار من بيئة فقيرة: جبال وعرة كان يرعى فيها الماعز هرب خوف من عقاب أهله أو مؤجره فكانت الدنيا تنتظره فاتحة ذراعيها فانفتحت مخازن الكنوز.

قلت: سبحان الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

أميّة شعير

أحداهن كانت مدرسة في مدرسة ثانوية لتعليم البنات.. تخرجت من الجامعة قسم الدراسات الإسلامية فهي أولا من حفظة كتاب الله مواظبة على أداء واجباتها الدينية، خلوقه طيبة، بارة بوالدتها المتوفى عنها زوجها التي تقيم في كنف ولدها الوحيد –الأم– فكانت تزورها كل يوم جمعة تتفقد أحوالها وتقوم لها ببعض الخدمات البيتية فهي تسكن بعيداً عنها في بلدة زوجها، لكنها لا تغفل عن زيارة أمها، مهما كانت الظروف، أما أخاها الأعزب الذي تعيش معه أمّه فهو نسخة مغايرة لأخته في السلوك وعدم القيام بالواجب الديني والعلاقات الاجتماعية فهو قد عاش ردحاً من الزمن في إحدى البلاد الأوربية، تعلم منها سلوكيات معينة ونمط عيش يختلف عما هو موجود في بلاده متحرر إلى أبعد الحدود آخذا بأسباب الحضارة العصرية.. أعتاد عادات غير سائدة في بلاده بما فيها المشرب والمأكل واللباس وكثير من التصرفات التي لا تليق بمجتمع محافظ.. وخاصة المحرمات في الدين كشرب الخمر واللباس غير المحتشم وما شابه ذلك من المحرم والمستهجن كان الشاب قد اعتاد أن يحضر معه ضمن المشتريات للبيت، قنينات من الخمر كان يخزنها في ركن خفي من البيت، ويضع بعضها في البرّاد ليتناولها باردة وقت يشاء، أما أمّه وكانت تزورها عجائز من جيرانها في عمرها وأكبر بين الحين والآخر، فكان يشتري لها علب مشروبات غير كحولية مثل البيبسي والكولا وما شابه، وحيث أن البراد واحد في البيت، كان الشاب يضع ما يتناوله هو، خلاف البيبسي والكولا في نفس البرّاد وكانت

المشروبات المحرمة والمباحة بجانب بعضها البعض وأخبر أمّه أن ما يتناوله هو غير البيبسي والكولا هو عبارة عن أمية شعير، نصحه بها الطبيب فهي والحال هذه غير لائقة بها -أمّه- ذات مرّة زارتها صاحباتها العجائز من الجارات، فلما أرادت أن تقدم لهن ما اعتادت أن تقدمه البيبسي والكولا لم تجد منه شيئاً، فما كان منها إلاّ أن قدمت لهن علباً من المتوفر في البرّاد قائلة لهن: هذه أمية شعير قال صالح أو خياتي ما لقيتشي لا بيبسي ولا كولا سامحوني.

- قالت أحدى العجائز: بينا أكله مشاريب بس كون بارد.

- واحدة من العجائز: هات جاي اللي ما يقتل يسمّن

- أخرى: وأحنا أنجربو.. شن خاسرين، القيناه باهي شربنا كان ما هذا خليّناه.

- واحدة: تمدّ يدها وتفتح القنينة ترشف منها.. تقول: بارد ما شاء الله عليه حتى كان فيه المرارة شوى لكن بينا.

وتسحب كل منهن قنينة أمية شعير كما أخبرتهن المضيّفة وفي غمرة الحديث المتشعب والذي غالباً ما تسمعه واحدة ويدلي به بقية الجمع: ميعاد نساوين. تسحب كل واحدة قنينة وتعبّ من ماء الشعير البارد، وكلما عبّت طلبت المزيد.

حدثت عندهن النشوة، وداعبهم الانتعاش، كانت زهوة الخاطر وفرحة القلوب غامرة ذلك الجمع من العجائز، أنحلت عقدة اللسان، وزال التحفّظ وأصبحت الأحكام غير ذات بال - تساوي المباح وغيره وخيّمت على الجلسة صبوات العجائز فتطوعن بإفشاء الأسرار - حتى سرهن الدفين الذي لم يطلع عليه أحد من قبل كان حاضراً في تلك الجلسة التي طالت بفضل أمية الشعير. تحررت العجائز من كل شيء ممكن: أحدهن وكانت مفرطة السمنة تخلصت

من رداءها وجلست أربع في فستان واسع فضفاض، ولم تحرس إلاّ على تستماها معصوباً فوق رأسها خوفا من الشيب الذى يفضح العمر الذي جاوز الثمانين، ولأنها بدينة مترهلة فقد أنبعج بطنها حتى أستقر على ركبتيها، وفاضت أردافها على الجانبين وراءها، وقد غاص بها المندار التي تجلس عليه بضعة سنتمترات.

وأخرى كانت عجفاء وقد مدت ساقاً معروقة فوق وسادة أمامها، وأسفرت عن وجه فيه طول، أبرز ما فيه أنف يتوسط شدقين غائرتين، والأنف معكوفاً إلى أسفل حتى كاد يلمس شفتها السفلى والتي عندما تضحك تفضحها سن مقلوعة تركت ثلمة في الفك الأسفل وهي التي كانت أكثرهن حديثاً ولعلعة لسان.

وكانت الثالثة طويلة سفحاء أكثرهن نشاطاً وحركة وأصغرهن عمراً فهي لم تتجاوز السبعين حسب قولها.. ولأنها أصابت من أمية الشعير أكبر كمية، فقد كانت تقوم بعرض رقصات شعبية من الموروث رغم عجيزتها الفارغة.. لكنها كانت بارعة في حركاتها باليدين والساقين والأقدام.

كان هذا الجمع من العجائز عندما أصببنا من أمية الشعير المزيد حين استطبناها قد أنحلت عقدهن جميعا فانهالت ذاكرتهن بالقديم والجديد من الذكريات والأخبار ما هو معلن وما هو في حكم السر، وطلن بألسنتهنّ حتى القريب والبعيد والعدو والحبيب.. حتى جاءت بنت الحاجة صاحبة اللمّة فجأة وكان عندها مفتاح البيت: يبت أمها.. فهي دائما تزورها حاضرة وغائبة فكان المفتاح ضرورة لها فتحت الأستاذة المربية الفاضلة حاملة القرآن الكريم، والملتزمة دينياً وخلقياً، المستقيمة حياة وسيرة ومعاملة مع الناس.. فتحت الباب بغتة ودلفت إلى مربوعة النساء، حيث تكون أمها عادة مع صاحباتها.. هالها ما رأت، وقفت مبهوتة لا تقدم رجلا ولا تؤخر.. وجدت أمها ومن معها من

صاحباتها العجائز في حال لا يسر بل يرثى له.. منحلات غير عابيات بأحد.. واحدة ترقص وأخرى تصفق، وأمها تفتح تنكات أمية الشعير، وتتفضل بها على العجائز في ود ظاهر، وعجوز أخرى ترفع عقرتها بأغنية شعبية سائدة وهن غافلات عمن دخل وفتح الباب.

تتقدم المدرسة ابنة الحاجة فتبين قنينات الشراب المحرّم.. تقول: هذا شنو؟!! هذا شنو؟!! في سؤال أنكاري وبلهجة زاجرة.

أمها: أمية شعير.

– أمية شعير شنو يا ؟؟؟ ويا عاركم الكبير.. هذا سكير.

– لا ما هو سكير.. خوك قال أمية شعير.. تنفع ما تضر قالت أمها.

– واحد من العجائز: لا أبنيتي هذا ما هو سكير.. بارد زي الفرح والسعد خوذي ذوقيه.

– أنا انذقه؟! أنا نشرب الحرام؟ يا حرائميات.. بلاكم الله في عقاب عمركم.. تسكرو؟!

– عجوز أخرى: لا يا كبدي بعيد السو علينا.. أحنا مانا نصاره.. أمك الوداده ودّتنا وزهتنا.. الله يخلف عليها، ويربحها كيف ما فرحت قلوبنا وزهّت خواطرنا.

– ربح مالا حد اللى جائك أنت وأمي، وصاحباتك أنتم خشيتو في الزقوم وما تدروش على أرواحكم.. ربي أثبّت علينا عقولنا.

– لا ابنيتي.. أحنا ادروشنا والاّ شنو؟ قالت أمها.

– أنتم هبلتو هبال مش غير أدروشتو.. هذا وين عرفت خراف العزايز.. لاه عليكم درتو العار قدّام ربي وعباده.

- واحدة: الّطف بنتك هاذي يا حاجة سليمة.. ما فيها من تنقريز.. لا تحشمت لا شوى لا ياسر كنّا رائضين زاهين، لا بينا لا علينا خشت علينا زي لموشة النار طيرتها لنا.. اسمعن وأسلمنا يا ربي.

- ومنين جتكم السلامة.. السكرة طيرتها لكم حق.. وأنتم شن ناقصكم عزايز في عقاب عمركم.. غير تشربو الخمر، هذا ما مازال؟!

- الله يهديك يا مرضية بنتي حشّمتيني مع صاحباتي قالت: أمها.

- عجوز أخرى: هاذي مدعية ما هيش مرضيّة.. خشّت علينا بالريح والشيح زي عقربان الخزانة هاك لصفر.. مازال غير تاخذ لنا عصا وتضربنا.

- أنتم حقكم الجلد قدام ربي وعباده، والناس كلها شاهدة أنتم عزايز عاصيات أعوذ بالله من الشيطان.

- ولينا لك شياطين.. يا ناقصة لأصل.. هيّا نوضو يا بنات قبل ما توصلكم العصا.

- أمها العني الشيطان يا مرضية بنتي.. وراس مرضية الاّ أمية شعير خوك قالها بروحه، وأنت تقولي سكير.

- سكير يا أمي ما تعانديش.. أنا عارفاته وقاريه عليه.

- عجوز: والله إلا زي الفرح والسعد، ايبرد على الكبيدة يا ريت شيبانيّ أجيب لي منه كل يوم.

- قالت المدرسة: شيبانيك أو يسمع بيك شربت الخمر الليلة ما تباتيش في الحوش ويطلقك بالثلاثة عقابها تشربي الخمر وتسكري.

- عجوز أخرى: شنو الخمر اللي تقولي عليه؟ شنى القيتينا في التبرنه؟ ولا القيتينا في التبرنه:

– القيتكم في حوش أمي ناصبات الميعاد وذاهبات العقل أدور بينكم وأنتم حالكم حال.. اللّي متغارقه هي وارداها، واللّي ترقص، واللّي تغني ولا وحدة تدري علي وحدة وصنّة أمية الشعير اللى تقولوا عليها تقلب الرأس.. نوضو روحوا لحياشكم السّيب، هذا كان قدرتن توصلن فيهن.

– واحدة: نوضو يا بنات هذا ولى لزّان عيني عينك.. وتلفتت إلى المضيفة أم الأستاذة قائلة لها: يا خسارة ما عقبتي يا سليمة.. عقربان أصفر كيف ما قالت سالمة.. بنتك مش مربيه، واخذه طولها وطول عصاتها.

أمها: الله غالب أوخياتي الضني صنايا والعرف مش عرفي

– وحدة: هانا مروحات واللّي شربناه والله إلاّ أمية شعير.

– أخرى: أي أمية شعير أمك بروحها قالتها.

– الأخرى البدينة تحاول أن تضم على جسدها المترهل رداها الذي فارقته من بداية الجلسة، وتقول بصوت غليظ أجشي: والله الاّ أمية شعير – في عين اللي أحب واللي يكره تجيبها الأخريات مردّدات بألسنة ثقيلة: أمية شعير أمية شعير ويخرجن بصعوبة يتمائلن، ذات الشمال وذات اليمين، والأم تودّعهن وهي تكاد تسقط وتقول: أنا قالي ولدي صالح: أمية شعير.

المدرسة تفاجئها ضحكة تكتمها وتداري وجهها عنهن وهي تقول لا حول ولا قوة إلا بالله.

من أقوالهم

رجل من أهل البادية خرج ومعه ولده الذي صحب معه ولده الصغير – الوالد والولد والحفيد – ليجني زرعاً زرعه حين جاء وقت حصاده، كان الوقت صيفاً، والشمس حارقة في المكان، الماء قليل والعطش شديد، فلما توسطت الشمس كبد السماء، هجع الولد والولد الصغير ليأخذا قسطاً من الراحة، كان للرجل مضلة صغيرة وضعها فوق رأس الصغير ليحميه من حرارة الشمس، وكان الوالد الكبير متغيّباً في شأن يخصه.. فلما رجع أخذ المضلة من فوق رأس الصغير، ووضعها على رأس ابنه ليحميه من الشمس.

أستيقظ الرجل فوجد المضلة على رأسه والولد الصغير تحرقه الشمس..

استشاط غضباً وقال من فعل هذا.

– قال الوالد – الجد – أنا فعلت هذا

– كيف تفعل هذا وتترك الولد تحرقه الشمس؟!

– قال الوالد الكبير.. حرقتك كبدك؟؟

– نعم حرقتني كبدي.

– قال الوالد – الجد – وأنا حرقتني كبدي.

وهذا رجل تتحكم فيه زوجة شرسة مستبدة قاسية سيئة الخلق والمعاملة، تفرض رائها وكلمتها على رجلها، وهو صاغر لمشيئتها.. كان تطلب منه أن يبقي والده الطاعن في السن خارج البيت طوال النهار وتأمر بأن يضع له طعامه

حيث هو حتى في الحر والقر والرجل – الزوج – مذعنا لها، فكان يأخذ حصيراً بالياً ويطرحه أمام البيت ليجلس عليه والده، إلى أن يحين الليل فتسمح له تلك الزوجة المتحكمة فيدخله لينام.

وكان للرجل ولد صغيراً يلاحظ ما يقوم به والده اتجاه جدّه العجوز ذات يوم وجد الرجل ابنه الصغير يقطع طرف من حصير بال ويحفظه في ركن من البيت.

سأل الرجل ولده الصغير: ماذا ستفعل بهذا الحصير البالي؟!

– قال الصغير سأطرحه لك يا والدي أمام بيتي عندما تكون عجوزاً كجدي.

– قال الرجل أي يا كبدي.. اللّي أديره تلقاه.. يا دائر يا لاقي.. وتحركت في الرجل بقية من نخوة فأدخل والده العجوز إلى البيت وأحسن معاملته.. ولما احتجت تلك المرأة السيئة – زوجته – قال لها: إذا لم ترضي بهذا فأنت في حل من أمرك.

من أقولهم زي البنادق

حمد العياط رجل معروف في منطقة ما لا داعي لذكرها.. هو رجل سريع الخاطر حاضر البديهة، فكه الحديث جرئ لبق – سأله صاحب له على سبيل المزاح وهما في جمع من الناس: يا عمي حمد أيهما أحسن في النساء.. الطويلة أم القصيرة؟

رد العياط على الفور: النساء يا ولدي زي البنادق: الطويلة رافعة مشطها[1] والقصيرة رافعة مشطها.

فكان رد العياط سريعاً فيه إيجاز العبارة وتورية مبطنه لا يفطن لها إلا اللبيب.

سالم عندي ما سالم منه حد

خليفة رجل حلو اللسان – فكه الحديث حاذق لبق بالفطرة، ذكي وصاحب نوادر وتخريجات صائبة ومفيدة، فيها حكمة وبعد نظر.. يسجل الأحداث الواقعة بعقل واع.. يلاحظ مجريات الحياة في محيطه، ويختزلها في ذاكرة حافظة هو: ملح الميعاد كما يقولون عنه.

كان خليفة متزوجاً من أخت سالم، وكان سالم هذا زير نساء، وكما يطلق عليه خليفة نسيبه وابن عمه: ذئب ومن قوله عنه: سالم عندي ذئب اللّي تطرف كلاها.. يقصد اللّي تخرج من قطيع الغنم يفترسها الذئب، ولما يجتمع خليفة مع

(١) المشط اصطلاحاً: هو المخزن الذي تعبأ فيه الطلقات.

من في سنه من الشباب المتزوجين في جلسة مسامرة أو في زرده حين ترفع الكلفة وينطلق الحديث دون تحفظ.. كان خليفة يقول للجميع: ردّو بالكم يا أخوان راهو سالم عندي ما سالم منه حد إلاّ أنا، ولأنه متزوج بأخت سالم فهو سالم منه بالضرورة.. فكان الجماعة يتندرون فيما بينهم: تقريب حالنا.. زي ما قال خليفة: سالم ما سالم منه حد.

من أقوالهم

كثيرة هي الحكم والأقوال الصائبة، يقولها الإنسان وينسبها للحيوانات لما فيها من موعظة وعبرة لمن يعتبر.

فهذا الذئب ضل لأيام دون أن يجد ما يقتات به فقصد البحر علّه يجد على الشاطئ طعاما ولو سمكاً ميتاً قذف به الموج حين المد.

ضل واقفاً عند ما لم يجد شيئاً ينظر إلى بُعد في البحر.. حتى جاءت إليه السلحفاة البحرية وهي المعروفة بوصفها: برمائية.

- قالت ماذا تنظر في البحر؟

- قال يخيّل إليّ أن هناك خراف في البحر، فها هي تظهر بيضاء ثم تختفي لعلها خراف وأنا في مصبغة وجوع شديد، ولا أقدر على ولوج البحر لأنني لا أجيد السباحة، فهل ساعدتيني لادركها حتى أسد رمقي؟

- قالت: هي خراف بالفعل أركب ظهري سأدخل بك البحر لتنال منها.. كانت السلحفاة تستهزئي بالذئب، وتنوي التغرير به والضحك عليه.

فلما ركب ظهرها ودخلت به في لجة الماء قالت له: يظهر أننا أخطأنا التقدير.. فهذه لجج ماء تظهر بحكم الرياح ثم تختفي فهي كالسراب المعهود عندكم في الصحراء.

فطن الذئب لحيلة السلحفاة وما كانت تنويه له من هلاك، وبذكاء النادر بين جميع الحيوانات.. قال آه يا كبدي.

- قالت: ما لها كبدك.

- قال: تركتها في الشاطئ.. يقصد أبناءه.

- قالت أركب.. سأعود بك لنحضرها معاً.. كانت تضن كبده هو فقد خانها ذكاءها هذه المرة.

ركب الذئب مرة أخرى ظهر السلحفاة حتى وصل الشاطئ - هناك نام على الرمال والتفت إلى السلحفاة وقال: اللّي ما فهم أجعله باش فهم.. ثم نهض وأطلق عواء ينادي قبيله ليجتمعوا على السلحفاة فيفترسونها.

وفطنت السلحفاة لما سيحيق بها من مكروه ففرت هاربة نحو البحر.

من أقوالهم
هذا ما فعله والدي ووالدك

ويحكي الناس على لسان الذئب.. أنه ذات مرة صحب معه الثعلب إلى بستان به غلال وفاكهة ناضجة قائلاً له: هيا بنا إلى هذا البستان لنصيب شيئا من الفاكهة.

- قال الثعلب ألا تعتقد أن في هذا سرقة وضرر نصيب به صاحب البستان وهو الذي يكدح، ويعمل طوال عامه لينال غلة من أجل إطعام عياله؟

- قال الذئب هذا صحيح.. هو ذنب نقترفه في حق الرجل.. لكن ألا تعلم أن ما نقترفه أنا وأنت من جرم، سينال جزاءه أبني وأبنك من بعدنا؟ هكذا يقال في الأمثال: شر الوالد يحصل فيه المولود.

قال الثعلب: إذا كنت متيقناً من هذا الأمر فهيا بنا مادام لا يصيبنا مكروه. ودخل الذئب والثعلب البستان فاكلا حتى شبعا.. لكن صاحب البستان كان لهما بالمرصاد، فحاصرهما في زاوية ضيقة، وأخذ يشبعهما ضربا بالعصا.

قال الثعلب: ألست من قال: شرنا يحصل فيه أبني وابنك؟!

قال الذئب: هذا جزاء شر ما أقترفه أبي وأبيك من قبل.

* ومن حكايات الجدّات لأحفادهن الصغار، يقال أن الذئب أراد أن يفترس الأرنب فبحث عن ذريعة ذلك بأن أقنعها أن تشاركه في زرع يزرعانه معاً وكان الأمر كذلك، فلما جاء وقت الحصاد والدرس تعاونا على جمع المحصول وعندما أراد القسمة بينهما وهي مناصفة كما في الاتفاق، وأتت الذئب فرصة الانقضاض

على الأرنب فأخذ يكيل بمكيال متعارف عليه ويقول: وحده للذئب ثنتين للذئب ثلاثة للذئب إلى أن يصل إلى العدد عشر، بعدها يضع في جراب الأرنب كيله واحدة ويقول: وحدة للأرنب، كلت وألاّ أجعلها ما كلت وكان الثعلب حاضرا شاهدا بالاتفاق مع الذئب تواطئا وخوفا منه.

بلعت الأرنب غصتها وسكتت لأنها فطنت إلى نوايا الذئب.. لكنها في اليوم التالي أحضرت السلوقى ودسته في عرمة، المحصول المتبقي الذي ينتظر القسمة في اليوم الموالى.. وأخذ الذئب كالعادة يكيل له وللأرنب وعندما أهال القمح أو الشعر أيهما كان يباشره، ظهرت وذن السلوقى فما كان من الذئب إلا وأخذ يضع في جراب الأرنب الكيلة الأولى ويتبعها بالثانية حتى وصل إلى العاشرة، ثم وضع في جرابه واحدة قائلاً وحدة للذئب كلا والاّ أجعله باش كلا.

قال الثعلب منبّها الذئب.. لا غلط هذا مشى كيل أمس.

قال الذئب: أمس.. أمس.. واليوم اليوم.. اليوم بانت وذن الحق.

فخرج السلوقى فجأة من عرمة القمح، وأخذ يطارد الذئب والثعلب ولأن الذئب صاحب حيلة وأسرع فقد التجأ إلى منجأ قريب وأخذ يراقب الثعلب، وهو يروغ من السلوقى يمنة ويسرة، وكاد السلوقى أن يدركه ويفتك به. فكان الذئب يقول مخاطباً الثعلب: لوّصي يا شاهد الزور لوّصي.

من أقوالهم
العنـــب يبكـــي

قريب من السواحل في ليبيا، وعلى عمق في الدواخل ليس ببعيد، حيث الأرض تكون ريفية بعدها تبدأ الصحراء، وحيث يكون منسوب نزول الأمطار كافي إلى حد ما.. هناك تنتشر المزارع القزمية، البعلية، التي تعتمد على مياه الأمطار.. فتكثر غراسات النخيل والزيتون والكروم بأنواعها: أهمها شجيرات العنب.. هذه الشجيرات التي تزحف على وجه الأرض هي في حاجة إلى تقليم عادة عن السلف، وللتقليم أصول وطرق متبعة، كما أن هناك أيام يحذر فيها التقليم، لأن أعواد الشجيرات (تدمع) حين تقص من أطرافها وهذه الأيام معروفة وغالباً ما تكون في الأيام الشاتية.. ومن يقوم بعملية التقليم هذه لابد أن يكون عارف بها، وقبل أن يشرع في عملية القص عليه أن يقوم بتجربة في شجرة أو اثنتين، فإذا وجدها تدمع يكف عن القص في ذلك اليوم إلى أن يتبدّل الحال.. ودمع الأعواد هذا، يقال عنه اصطلاحا: «العنب يبكي، غير أن زرّوق وهو أحد الذين يقومون بهذا العمل وهو رجل فقير، وإذا لم يمارس عمله كل يوم، فإن أولاده يباتون على الطوى.. وكان زرّوق يقوم ذات مرة بتقليم أشجار العنب في مزرعة الحاج منصور.. مرّ بزرّوق صاحب له.

قال الرجل: العنب يبكي يا زرّوق.. قال زرّوق: يبكي.. يبكي ويسكت.. لكن ذريتي كان بكو من الجوع ما يسكتوش.. وكان ما كلوش موتو.. والطويلة من القصيرة. يبكي عنب الحاج منصور.. ولا يبكو ذرية.. واستمر في عمله.

جابها الليل وجت أتّوامه

جابها الليل وجت أتّوامه مغطيه السهل والوعر.. يا أدوداي أستريني الله يسترك.. ردّت عليه.. داداه: المرأة التي كانت مكلّفة بوضع اللحم فوق قصاع الطعام: «لا تخاف اللّي ناوى السّترة ينستر».

كان الرجل من الوجها: في القوم، وقد أقام حفلة عرس لأبنه وأعدّ وليمة للمدعوين من معارفه وأصحابه والجيران والأقارب وقدر مثلاً أن خمسة من القعدان تكفي للمدعوين.. غير أن الرجل وبحكم وجاهته ومكانته في الحي.. تنادى من عامة الناس آخرون لمباركة الفرح وطمعاً في الحصول على نصيب من الوليمة.. فالعام كان مجدباً والقوت شحيحاً.. لذلك خاف الرجل من المذمة تلهج بها السنة الذين لا يصيبون شيئا من الطعام، فقال قولته التي تقدمت الحكاية، بلهجته المحلية فضلت قولة يرددها الناس، حتى أصبحت تعبيراً على كل لسان في المنطقة، يتمثل بها في المواقف المشابهة، فجرت مجرى المثل فى حيّ الرجل.. أما المرأة المشرفة على قصاع الطعام فقد تمثلت بقول سيّار هو من التعابير المعروفة: «اللي ناوى السترة ينستر».

زرزح يا طبل العز

أحدهم كان ضعيف الإيمان، رقيق الديانة، لا يؤدي أغلب الواجبات الدينية وأن أدّى بعضها خوفاً من الملامة والتشنيع عليه بين العامة.. غفل عن بعض.

قيل عنه أنه كان يستمع إلى دقات الطبل التي تعلن حلول أول شهر رمضان وفي البادية جرت العادة أن يأمر شيخ النجع حين يهل هلال رمضان أحد الأعوان أن يأخذ الطبل إلى مرتفع من الأرض، ويدق عليه دقات خاصة تعلن لمن يسمعه: وجوب الصيام.. وكان الرجل يستمع إلى الطبل يعلن الصيام. فقال «تياسر.. ياسر سمعناك صّمغتلنا أوذانّا»

بمعنى: سمعنا يكفينا.. سبّبت لنا صمماً.

أما حين يضرب الطبل يوم العيد.. وفي البادية يصومون الشهر لعدته أو لرؤية هلال شهر شوال.

لمّا يسمع ذلك الرجل الطبل يعلن يوم العيد كان يقول: زرزح يا طبل العز الله لا تكسرلك محراث.

علاش ماكلاش البسيسه

باك فرج راعي إبل في صحراء غدامس المتاخمة للحدود التونسية الجزائرية بين بئر زار وبئر شيقيق.. قضى في تلك الربوع ثلاثة أشهر دون أن يرى أحداً أو يراه أحد وفي مرّة اقتربت إبل لأحد الرعاة من معارفه أستأنس به يوما أو يومين.. بعدها طلب فرج من صاحبه أن يتكفّل برعاية الإبل مع قطيعه. حتى يعود باك فرج من نالوت ليقضي غرضاً يهمه.. وافقه صاحبه.. فانطلق باك فرج يقطع مسافة ثلاثمائة كيلومتر مشياً على الأقدام.

وصل فرج إلى أصحاب الإبل يكاد يموت جوعاً وعطشاً.. دخل إلى حوش صاحبه طلب الماء.. بعدها، قال صاحب الحوش لزوجته: باك فرج جعّان جيبي له ما ياكل.. قالت المرأة من غفلتها أو سذاجتها: وعلاش ماكلاش البسيسه؟! قال لها زوجها ساخرا ومستغربا سؤالها في نفس الوقت: حق هو علاش ماكلاش البسيسه.. هو شهر حتى الزميطه كامله منّه.. وأنت تقولي علاش ماكلاش البسيسه.. هو عمره حتى راها والاّ أسمع بيها؟!

قالت: يا ربّي ما يعرفش البسيسه؟!!

سويدي رمضان سامحني

مازلنا مع صاحبنا السابق: باك فرج حيث خرج من حوش صاحبه في نالوت قاصدا أسرته في كاباو، وكان اليوم أول أيام الصيام.. في الطريق سمع أن الناس صائمون أول أيام رمضان.. ضل في طريقه إلى أن وصل إلى ماجن تتجمع فيه مياه الأمطار.. التفت يميناً ثم شمالاً لم يرى أحدا.. نظرا إلى السماء.. قال: سويدي رمضان سامحني أنا عطشان نجبذ أصطيل من هالماجن البارد أنبل بيه ريقي.. ثنى: سامحتني ما هو؟ أجاب نفسه: لا سامحتك.. باهي صحيت.. كان يسأل ويجيب نفسه بصوت مسموع.. بعد مسافة من الطريق وجد جسراً به كروما ناضجة.. قال مرّة أخرى سيده رمضان: سويدي هالكرموس الباهي على كل لون أبيض وأسود.. أوصيفك أسنين ماذا قاش سامحني فيه.. أنت درتها.. درتها.. ثم يقول على لسان رمضان: لا كول.. كول عندك لذن اليوم.. صمطها كما يقال وأخذ طريقة نحو بيته.. وصل قبل المغرب بقليل حضرت له زوجته الأكل لما غربت الشمس وحلّ الفطر.. وضعت أمامه الأكل لم يمد يده.. قالت أفطر السمس طاحت.. قال شبعان واكل شارب من نصف النهار قالت كيف تاكل في رمضان؟!.. قال لا خذيت منه الأذن ضحكت وسكتت.

سائق الأفكو

كان سائق حافلة صغيرة (أفكو) يعمل على خط وسط المدينة – الجامعة وكان ينقل جماعة من طلاب الجامعة كل إلى كليته.. عنى له أن يمازحهم قال: متى ستتخرجون إن شاء الله؟.. أجابه أحدهم: أنا مستجد سأتخرج بعد أربع سنوات من كلية الآداب. قال السائق وستتحصل على شهادة مثل هذه وأخرج له صورة من شهادة ليسانس من كلية الآداب قسم الفلسفة وقال: مثل هذه التي تحصلت عليها منذ ثلاث سنوات، ثم أخرج صورة أخرى من شهادة الماجستير في نفس التخصص أو مثل هذه وستنتظر أكثر من سنتين لتحصل على وظيفة حكومية بمرتب ١٨٠ دينارا.. طز في الشهادات.. أنا محسوبك انتظرت أكثر من سنتين دون أن أحصل على وظيفة بعدها عملت سائقاً على هذه الحافلة دخلي منها في الأسبوع يساوي ما يحصل عليه خريج الجامعة في شهر.. مرّة أخرى طز في الشهادات.

قال أحد الطلبة: أنا أبي تاجر يربح ما تحصل عليه أنت خلال أسبوع في يوم واحد.

قال آخر: وأنا والدي صاحب أملاك وعقارات، وطلب مني أن أتعلم فقط فهو لا حاجة له بالمال.

قال ثالث: طز في الشهادات إذا كان الهدف هو الحصول عليها.. المعرفة والعلم والثقافة مطلوب لذاته وليس للحصول على الشهادة.

عمك يقدر يخنب

من النوادر المتداولة بين الأوساط الشعبية، وقد تروى في بلاد أخرى.. لقد سمعت ما يماثلها في المغرب مع اختلاف المفردات اللغوية، والبعض ينسبها إلى بلدة معينة حين يرويها، حتى في العاصمة أو المدن الكبيرة أو في مناطق الريف، وفي ليبيا سمعتها في الجنوب والشرق والغرب.. في سنة من سنوات القحط وبعضهم يحددها سنة ٤٨-٤٩، دخل لص كوخ أحد الفقراء المعدمين يبحث عما يسرق من متاع أو طعام، أو متاع يباع.. كان صاحب الكوخ وعائلته شبه نيام، فقد باتوا على الطوى.. والسارق يبحث عما يسرق من الكوخ.. صرخ أحد الأطفال يستغيث بوي أنا جعان.. أجابه والده الذي كان يراقب اللّص.. اسكت ولدي هو عمك بدوّر لك ما تأكل.. خرج السارق على الفور وقصد كوخ آخر وجد فيه وعاء ملمؤ تمرا.. أخذه وعاد به إلى الكوخ الأول، وضعه وخرج.. أيقضي صاحب الكوخ زوجته وأطفاله، وضع بينهم وعاء التمر فاكلو وشربوا الماء وناموا شباعى.. قال الرجل لعياله يرزق عبده من عبده.. مخاطبا ابنه: عمك يقدر يخنب جابلك ما تأكل، وبوك الله غالب عليه لا يخدم لا يخنب.

ليمنه شادين بيها في الله

رجل وجيه في قومه، لا يظلم أحدا ولا يعتدي على حق أحد.. ينصف الناس جميعا وينصحهم.. نجاّد في الملمات، قوّال للحق كرّاماً مضيافاً – حياه الله بحذق وظرف ورصانة في التصرفات والأعمال والأقوال.. له طلاوة الحديث وحسن الصحبة في المجلس.

ذات يوم قال له صاحب مقرب: شن حالك ياعمي ناجي؟ – أسم الرجل – قال ناجي: في خير من الله – لولا شر من عباده – لكن على كل حال.. أنا ليمنه شاد بيها في الله وليسره أنلكّز بيها في العباد.

كيف يا عمي ناجي تلكّز في العباد؟.. مش ظالم في رائك؟

– يا ولدي لما أنقولك شاد في الله باليمين.. مش معناها أنا شاد في الله كيف تفهم أنت وغيرك.. الله سبحانه عما يصفونه لا نراه لكنه يرانا.. وشادين فيه معناه: تقواه نقوم بما يأمر وننتهي عما ينهى– وهذا يجعلنا ننصف الناس– ننصحهم ونرشدهم إلى الصواب والطريق المستقيم.. فالنار للمخطئين والغافلين والجنة واليمين مع الحق والعدل والإنصاف.. ومن يعرف الحق لا يظلم الناس.

– صار هذا معناها يا عمي ناجي.

– كان عطاك ربي الفهم.

ما اطوّلش علينا المخطر

كان ثلاثة أشخاص مسافرون يقصدون وجهة لهم فيها غرض.

عند وقت الطعام جلسوا يتناولون وجبتهم.. كانت الوجبة (زميّطه) يعدّونها على عجل - هي زاد المسافر في الغالب، وكان أحدهم أكولاً: (كبير بطن، كما يقال، فكان يجعل اللقمة (العبّود) طويلا على غير المعتاد، رغبة منه في الاستحواذ على نصيب أكبر من الطعام.. قال له أحدهم: - متجنباً إحراجه - ما أطوّلش العبّود.. راهو يطوال علينا المخطر أخذ الرجل يغيّر من طريقته، فجعل يجمع أكبر كمية من الزميطه على شكل كورة، تأخذ نصيباً أكثر من طريقته الأولى - نظر إليه صاحبه وقال: طوّل يا ودي طوّل إن شاء الله لا من روّح.

والجماعة مرّ بهم آخر طمّاع، وهم يستعدون لتناول وجبتهم وكانت عبارة عن خبزتين اثنتين وهم ثلاثة.. قال أحدهم تفضل زوز كول معانا.

تردّد الرجل إظهاراً للتعفف وفي نيته مشاركتهم في زادهم، وهو يعرف أنهم ملحون عليه.. ثنى آخر من الجماعة قائلا له: زوّد.. والله لا ما تزوّد تقدم العابر الطماع فاخذ أحد الخبزتين وقال: هاذى على يمين الله وهمّ بالانصراف.. قال له أحدهم زيد هاذى على يسار الله - سبحان الله عما يصفون - وأضاف توّ أحنا ثلاثة، والخبزات زوز.. خذيت وحده وخلّيت وحده.. وأنت واحد وأحنا ثلاثة.. من علمك هالقسمة؟

والجماعة نفسها مرّ بهم أخروهم على وشك تناول طعامهم فلم يدعوه إلى مشاركتهم.. قال لهم ما تقولوش تفضّل حتى بالكذب.. عرضة كذّابي قال أحدهم: أحنا نعرفوها عرضة الكذب.. لكن انخافو أنت ما تعرفهاش.. من اللّي تسمعها تنزل طول، وبيديك الزوز.

أش بيك بارك

هو رجل تجاوز سن الكهولة، وهي امرأة تجاوزت سن اليأس.. ذات نهار عند القيلولة دبّرت – والعزبي لا دبّر نصف الدباره ليه – يقول المأثور.

اقترحت على أولادها بنين وبنات وكلهم في سن ما بعد الطفولة.. اقترحت عليهم أن يذهبوا جميعا لزيارة خالتهم، التي ليست بعيدة عنها بالدار.. وذلك ليلعبوا مع أولادها -الخالة- ثم تهيأت تحت إلحاح الرغبة ودخلت غرفة وخرجت من أخرى تبحث عن زوجها الذي كان يراقبها وقد تفطّن إلى الموقف التي هي فيه، وعرف نواياها وما ترغب.

جاءت إليه وهو جالس في المربوعة.. قالت الصغار أكلّهم مشو لحوش خالتهم.

– دبّرتي عليهم؟ كان صار من دبارتك.

– خلّيهم يلعبوا مع صغار خالتهم إيفكونا من هرجتهم طشّه.

– كان ما دبّرتش خالتهم كيف دبارتك وبعثتهم همّ وأولادها أجوك طافحين زي الذبان.. جاقات.. جاقات.

– لاقتّلهم ما إجوش لليل.

– كان خذو رائك.

– وأنت أش بيك بارك في هالتركينا.

– وين تبيني نبرك؟

- سكتت.. ونظرت إليه نظرة ذات معنى أفصحت عما في خاطرها.

- ما عاد لاقى جهد.. بدت.. خلاص باع وروّح.

- بالله حتى أنا.. من كبر هبالى.. ما ينفع في البايد ترقيع.

- قنالك ما تبيش تفهمي.

ماذا يفعل ذاهب العقل

رجل ذهب بعقله ذاهب العقل كما نقول. أي مذهب العقل وهو الخمر الرجل من الموظفين السامين.. وكيل وزارة أو رئيس هيئة أو مؤسسة عامة.

حدثني أحدهم قال: كنت في الطائرة، وفي مقاعد الدرجة الأولى .. هو في مهمة رسمية لحضور مؤتمر يعقد في بلاد أجنبية، وكنت في رحلة سياحية إلى ذلك البلد.. الرجل معرفة وليس بالطائش ولا العربيد المستخف بالأحكام ولا بأصول اللياقة والأدب.. لكنه لا يملك نفسه أمام المشروبات الروحية كما يقول.. ودائماً هي طلبه المفضل بمجرد أن تحلق الطائرة في السماء، قال الرجل: كنا نجلس في مقعدين متجاورين.. جاءت المضيفة، قدمت مشروباً خفيفاً كما قال هو، وفي كاس مخصوص، كما عرفت منه بعد، اسم المشروب (شمبانيا) بعدها طلب الرجل مشروباً آخر قال أنه: ويسكي كأس من شكل آخر عب ما فيه بسرعة ثم طلب المزيد، ولأنه من ركاب الدرجة الأولى كان له الحق في أن يطلب ما يشاء من المشروبات الروحية، بعدها وزعت وجبة الغذاء.. طلب نوعاً آخر من الخمر قال أنه: نبيذ (خينو) استزاد منه.. كانت الرحلة طويلة نوعاً أربع ساعات طيران، لم يكف الرجل عن الطلب من مشروبه: الويسكي.. بدأ لسانه يثقل، والكلمات تتعثر في مخارجها، والمعاني غير واضحة، أحياناً يقول الجملة ولا يكملها، أصبحت الأفكار مشوشة، والأجفان يداعبها النعاس، نزع حذاءه وضع فوقه رجله.. أخذ يتحدث في كل شأن دونما رابط للأفكار والكلمات أخذ

يشرب بلا وعي.. غاب عن الوعي في شبه نوم، وصاحبنا يرقبه-المتحدث-نزل الركاب.. في صالة الاستقبال كان مدير العلاقات في المصلحة التي تشرف على المؤتمر في انتظاره.. نزل الرجل من باب الطائرة يمشي مترنحاً في الممر المفضي إلى صالة الإجراءات .. أخذ صاحبنا يسنده خوفاً من السقوط.. نظر إلى أسفل وجد الرجل حافي القدمين إلا من الجورب، لقد ترك حذاء في الطائرة حيث كان يجلس.. الأمر محرج للغاية والرجل في استقباله موظف له حيثية.. صار صاحبنا المرافق للرجل بالصدفة يبحث عن وسيلة يداري بها الموقف المحرج - من حسن الحظ كانت هناك صالات للسوق الحرة قبل الوصول إلى صالة الإجراءات.. أسرع الرجل إلى متجر يعرض ملابس وربطات عنق وأحذية فاخرة وأشياء أخرى بأثمان باهظة وبالعملة الصعبة اشترى له حذاء دونما سؤال عن رقمه ولا لونه فالرجل لا يرد حين يسأل، فقط يهمهم بما يريد أن يقول.. ألبسه الحذاء، وختم له جواز السفر وأحضر له حقيبة ملابسه التي لم يتعرف عليها إلا بصعوبة وبعد أن لجأ إلى الملصق على التذكرة برقم الحقيبة، ثم صحبه إلى صالة الاستقبال حيث كان مدير العلاقات في انتظاره، وأخذ الرجل طريقه إلى فندق يقصده دائماً.

أما الرجل الذي ذهب بعقله ذاهب العقل فقد رافقه مدير الاستقبال في سيارة فاخرة حيث كان محجوزاً له جناحاً في فندق خمسة نجوم.. نام الرجل بمجرد وصوله إلى الفندق - كما أخبر فيما بعد - نوماً عميقاً دونما عشاء، وبعد منتصف الليل سمع دقات الطبول وضجيج الموسيقى في الملهي الملحق بالفندق، وهو مدمن رقص وارتياد الملاهي الليلية كلما سافر إلى الخارج.. نزل لا أدري على أي هيئة لاشك بملابس السفر، والتي نام بها نوماً عميقاً.. أخذ يرقص ويواصل الشراب إلى أن أغلق الملهى أبوابه.. حين دفع ثمن ما

تناوله من مشروب سقط منه جواز سفره تحت المقعد الذي كان يجلس عليه.. صعد إلى جناحه بمساعدة أحد العاملين في الملهى الذي سلمه للاستقبال، في الصباح كانت سيارة المراسم في انتظاره، حضر جلسة افتتاح المؤتمر.. عاد بعدها إلى الفندق، وقد بدأ يعود إليه وعيه.. بحث عن جواز سفره، لأنه أراد تبديل العملة لم يجده.. أسقط في يده.. ذهب إلى الاستقبال سأل الموظف المناوب عن جواز سفره.. قال له الموظف نحن لم نستلم منك جواز سفرك وأنت محجوز لك الإقامة كاملة من قبل جهة رسمية.. أخبرهم بضياع الجواز.. كانت تحركاته مرصودة من قبل أمن الفندق.. ذهبوا إلى الملهى كان مقفلاً، فتحوه بطريقتهم هنا كان يجلس وهنا وجد الجواز تحت المقعد.. الرجل محظوظاً فلو فقد جوازه في مكان آخر في الشارع مثلاً أو في أي مكان، وضل بلا هوية، والشخص هويته في كل بقعة من العالم جواز سفره.. هو بدون جواز سفر الذي يحوي كل المعلومات جنسيته وعمره ومهنته وغيرها من البيانات.. دون جواز يكون الشخص تائهاً لا يعرفه أحد ولا يعترف به أحد.

وأي شخص دون جواز سفر مجهول الهوية يتعرض للمساءلة والتوقيف والترحيل في أحسن الحالات، وصدق الذي قال: أن الخمر ذاهبة العقل وذلك الذي قال: أنا لا أشرب ما يشرب عقلي.

كف حليمة

حدثني صاحب لي حين كنت مقيماً في بلدة أيام الشتات والغربة، بحكاية طريفة، قال: في إحدى البلدات كانت تعيش أسرة كبيرة من ملاك الأراضي الزراعية: زيتون وكروم وزراعات موسمية للحبوب، وتملك دوراً فخمة في البلدة ولرجالها وجاهة وحيثية اجتماعية ونفوذاً لدى الحكومة المركزية، وكان شاب وافد من الدواخل مستخدماً عند هذه الأسرة (خماس) كان يرعى شئون البيت ويجلب حاجاته من السوق، وكانت حليمة وهي كبيرة نساء الأسرة تسخر خميس - اسم الشاب - في جميع شئون البيت وبعض الأعمال الأخرى في المزرعة. منها تعهّد دجاجات لها تربيها في ركن قريباً من حظائر الأغنام.. سبع دجاجات وديك تربيها للتسلية وليس لقيمتها الاقتصادية، ذات يوم من أيام الصيف القايض غفل خميس عن تزويد حوض الدجاجات بالماء، فكان إن هلكت واحدة من الدجاجات وأشرفت الباقيات على الهلاك خرجت حليمة حين برد النهار تتفقد الدجاجات، وجدت واحدة هالكة والباقيات على وشك الهلاك.. أسعفتهم بالماء، ثم نادت خميس واستشاطت غضباً تؤنبه على تقصيره ضل الشاب ساكت مقراً بذنبه ناظراً إلى الأرض فما كان من حليمة إلا أن ازدادت حنكاً عليه، ونظرت إلى صفحة وجهه فوجدتها مواتية لها، وبقوتها التي يدفعها الغيظ صفعته على وجهه صفعة مدوية، اختل منها توازنه، ثم تمالك نفسه وانسحب.. قصد غرفة وضيعة كان يأوي إليها حين النوم، جمع ادباشة المتواضعة وخرج على غير هدى.. يردد في نفسه بعد عشر سنوات خدمة في

هذه الأسرة بأمانة وتفان تكون جزائي صفعة على الوجه-وما أشدّها إيلاماً للنفس صفعة الوجه-كيف تنكرت لي هذه الدنيا؟! فقر وعوز ثم إهانة ومذلة وهوان على الآخرين.. إنها الدنيا تقصو وتعاكس أحياناً. قصد خميس صاحب يعرفه على أطراف البلدة- كان هو أيضاً حفاراً للآبار السطحية في المزارع القريبة والجنانات، يشتغل بأجر زهيد.. وجده زاهد في مهنته ويفكر في الهجرة إلى أوربا.. اتفق الاثنان على الهجرة في أسرع وقت وأتتهما الفرصة باطو باخرة قاصدة مرسيليا.. وصلا إلى بوابة فرنسا الجنوبية المطلة على الضفة الشمالية للبحر الأبيض.. منها انطلقا كل يبحث عن رزقه، كانت وجهة خميس باريس.. هناك تعرف على مجموعة من مواطنين رمت بهم الهجرة إلى فرنسا في وقت سابق، بعضهم يسكن باريس وبعضهم يسكن الدواخل في الضواحي مكنوه من الخدمة في متجر كبير للملابس، كان دءوباً في العمل مخلصاً أميناً وثق فيه صاحب المحل، بعد فترة رفع له مرتبه، ثم تلتها فترة أخرى اقترح عليه صاحب المحل أن يفتح له فرعاً في حي مجاور، يكون هو مديره ويشرف على كل كبيرة وصغيرة، يتصرف في المبيعات والمشتريات، يوزع النقود في المصارف ويوقع الصكوك، كانت أمانته هي جواز المرور إلى قلب صاحب المحلات الكبيرة المنتشرة في أحياء باريس المختلفة، لم يطل به الزمن حتى استقل بنفسه، بعد أن حذق المهنة وعرف أسرارها ومصادر المشتريات ومنافذ التوزيع والبيع، وعرف كذلك كبار التجار والشركات والمصانع التي لها علاقة بتلك السلع.. أخيراً تخصص في تجارة الملابس الأفريقية، وافتتح (بوتيكات) لها في الأحياء الراقية في باريس، والفنادق الكبرى التي ينزل بها الرؤساء الأفارقة والوزراء وكبار رجال الدولة الساميين في البلاد الأفريقية وزوجاتهم ومرافقيهم، فراجت تجارته

وتعاظمت أرباحه، فأصبح يسافر إلى أفريقيا التي كانت من مستعمرات فرنسا قبل التحرير، ازدهرت تجارته في أغلب الأقطار الأفريقية الغربية والوسطى.. أصبح - خميس الخماس - سابقاً في وطنه-مليونيراً.. في أوربا أنشأ شركات تجارية وصناعية وأخرى للمقاولات، كان هو رئيس مجالس إداراتها.. تنقل بين عواصم دول العالم بالطائرة الخاصة التي يملكها.. أخيراً تحسس خده الذي تلقى عليه كف حليمة المهين.. أخذ الطائرة وأخذ معه هدايا كثيرة وثمينة جائزة إلى من صفعته تلك الصفعة التي أطارت النحس وجلبت الخير العميم، حط في وطنه الأصلي الذي هاجر منه.. قصد رأساً تلك البلدة التي كان مستخدماً فيها على وظيفة (خماس)، جاء يبحث عن حليمة إذا ما كانت على قيد الحياة وجدها في الطرف الأخير من عمرها الافتراضي.. زارها في دارها.. قال لها بعد أن واجهها عرفتني يا خالتي حليمة؟.. قالت وقد ضعف بصرها.. الحس مش غريب علي يا وليدي لكن سامحني العوينات ماعادش كيف قبل.. قال الدنيا كلها ماعادش كيف قبل.. أنا خميس أنا نقول الحس مش غريب علي سامعاته من قبل- أنت خميس؟ وين طاح حيك يا خميس.. قد منو خماس تو؟.

قال: كفك تتفكريه طيحني في باريس .. يا ريته كف كل حبيب.. أكل على شان دجاجة ماتت.. يا ريتك عجلت بيه. كفك خلاني راجل يا خالتي حليمة. وأنا هنا أتذكر نادرة، أو هي مزحة بين اثنين.. قال الأول للثاني: والله نضربك كف أتطيرك إلى مكة.. قال الثاني: على أيدك نحج.

مفارقات وحكايات صغيرة

هذه بعض المفارقات والحكايات وحتى النوادر والتصرفات الغريبة، أتاها أشخاص بعضهم به سذاجة وغفلة، وبعض آخر من أصحاب المقالب ونصب الفخاخ، وآخرون يتصرفون عن جهل وغباء وحتى قلة ذوق.. ومنهم من كان في منتهى التعقل والذكاء وحسن التصرف في المواقف الحرجة والمطبات.

هنا مشهد مضحك يدعو إلى الهزؤ و السخرية، وينم عن جهل وتخلف، وانعدام ذوق.. رجل يحسب نفسه عارفاً باللباس الشعبي والتقليدي، يرتديه عن جهل وقلة معرفة بأصوله ومكوناته، يخرج إلى الشارع ويغش المجالس في شكل مضحك وهيئة مزرية ملفتة للنظر.. فهو يرتدي زبوناً، فوق قميص إفرنجي نصف كم، قصيراً مبتوراً يصلح للبدلة الإفرنجية فقط، لا يصل إلا إلى منتصف البطن، وتحته سروالاً عربياً، ثم ينتحل في رجليه شبشباً من البلاستيك، ولا يضع على رأسه غطاء للرأس.. يجلس بين الناس في حفلة عرس، أو معزى، غافلاً عن أعين تراقبه، وأناس يرمونه بنظرات السخرية والاستهزاء، وينعتونه بقلة الذوق والجهل.. وقد نسي هذا المسكين أن اللباس التقليدي لا يكون إلا كاملاً منسقاً وإلا فلا.. فالزبون لابد له من فرملة تحته، وقميص عربي طويل يصل إلى ما تحت الركبتين وسروالاً من نفس قماش الزبون، والفرملة مطرزة بنفس التطريزات للزبون، مع طاقية حمراء معروفة، وفي الرجلين بلغة مطرزة وذات شكل خاص، أو على الأقل حذاء أنيقاً ينسجم مع مكونات الزبون واللباس التقليدي الذي يعرفه الناس.

* وهذا رجل آخر دمث الأخلاق، طيب ودود لصحابه، لا يسيء إلى الآخرين ورغم تعليمه وثقافته وخبرته بالحياة، إلا أن به غفلة وسهو ونسيان يلازمه في حالات كثيرة، والرجل موظف كبير رئيس لأحدى المصالح الحكومية.. ذهبت به رجله في أحد الصباحات إلى سوق قريب من المصلحة.. أعجبه نوعاً من السمك.. اشترى منه كمية تكفي لعدة وجبات، وضع السمك في حقيبة السيارة من الخلف، عاد إلى المصلحة.. ضل يتابع إنجاز عمله الذي يستمر أحياناً إلى وقت متأخر بعد الدوام.. عاد إلى بيته متعباً، وبعد تناول طعامه نام حتى العصر، وجاء الليل في يوم الغد كانت عطلة رسمية وكان الوقت صيفاً، والحرارة شديدة خرج في اليوم الموالي إلى العمل، وعاد.. ضلت السيارة رابضتة في حديقة المنزل حيث لم يستعملها ذلك النهار واستعمل سيارة المصلحة.. ضل السمك في السيارة مدة ثلاثة أيام، فاحت رائحته المتعفنة.. دخلت الرائحة من نوافذ البيت، ففطنت الزوجة إلى تلك الرائحة الغريبة .. نادت أحد أبنائها.. قالت له: يظهر أن هناك قطة ميتة في الحديقة، اذهب واستطلع الأمر.. جاء الولد يخبر أمه وكان بجوارها الأب.. قال أن الرائحة تنبعث من السيارة.. انتبه الرجل.. وتذكر أنه اشترى سمكاً منذ ثلاثة أيام، وقد وضعه في حقيبة السيارة الخلفية وجد السمك متعفناً، ضحك الرجل من نفسه وأسرها إلى الأصدقاء الخلّصي حين التقى بهم مساء في جلسة خاصة.. أشار عليه أحدهم أن يذهب إلى الأمر ليسجل اسمه في السجل الذهبي.. فقد تعارف الجميع في تلك المنطقة على أن من يرتكب خطأ عن غفلة وسوء تقدير، لابد له من تسجيل اسمه عند الأمر، أو الشيخ.. شيخ المضايع كما يعرفونه.. وهذا الشيخ أو الآمر هذا أقدم أصحاب الغفلة ومرتكبي الأخطاء ولابد له من تسجيل اسمه ويكون مستجداً.. بمعنى

عسكري حديث التخرج، وعليه أن ينضم إلى السرية التي يكون آمرها صاحب الأقدمية، وهو الآمر أو الشيخ شيخ المضائع.

* ومع السمك حكاية أخرى ظريفة بطلها رجل بدوي.. كان هذا الرجل موظف يعمل في إحدى مدن الساحل، وكان موطنه الأصلي.. قرية في شبه صحراء من قرى قدم الجبل الغربي، تبعد عن الساحل بما يقرب من مائتي كيلومتر.. واعتاد الرجل أن يقصد أهله في قريتهم مساء كل خميس من كل أسبوع يتفقد أحوالهم: والده ووالدته وإخوته الصغار، فهو أعزب.. اشترى الرجل سمكاً في الصباح.. سمك والسلام فهو لا يعرف أنواع الجيدة ولا أسمائه، ولا كيف يتم إعداده مع الطعام، هل هو سمك للشواء أم للطبخ أو القلي.. اشترى السمك منذ الصباح الباكر حينما خرجت مراكب الصيد من البحر.. وضعه في حقيبة السيارة واستأنف عمله حتى نهاية الدوام.. خرج بعد ذلك قاصداً قريته البعيدة وصلها بعد أربع ساعات.. كان السمك قد تعفن بفعل مناخ الصحراء وحرارة الشمس فالحال كان صيفاً.. وصل الرجل إلى البيت: خيمة من الشعر على أطراف القرية.. قصد الوالد والوالدة للتحية والسلام تحلق حول الصغار فرحة به وبما يحضره عادة من طرايف مدن الساحل.. وزع عليهم ما أحضر وجلس يشرب الشاي مع والديه.. بعد فترة قرب المساء تذكر أنه اشترى سمكاً، ذهب إلى السيارة أخرج السمك المتعفن وجاء به إلى أمه، الأسرة لا تعرف السمك من قبل – الحوت – وإن كانت تسمع باسمه.. قال لأمه يا أمي جبتلك الحوت وهو يضحك.. فسدت أنفها على الفور وقالت له: أفيه.. أفيه.. أظهر أنت وإياه.. أظهر أنت وإياه.. نتن ريحتك وريحته.. ضل الرجل يضحك من موقف أمه التي رفضت وده كما كان يضن وصدته بكلماتها العفوية التي جعلته

يستغرق في الضحك من فعلته وموقف الأم، أمرته أن يذهب بعيداً عن البيت (الخيمة) ويرمي به.. يروي الرجل: جاءت الكلاب من كل جهة والكلاب لها حاسة الشم تراقب الموقف، عاد الرجل إلى الخيمة يضحك خجلاً من وضعه أمام أمه، لاقته قبل أن يصل قائلة: هذا ودك اللي جايبهولي حتى الكلاب ما بوش إروموه!! منجوه.. منجوه في (هالسامة).. كانت تتكلم على سجيتها وبمفردات مقصورة على معناها: الجبهة أو الناصية.

* وهذه طريفة أخرى: طرفاها رجل فطن فيه يعرف كيف يتخلص ويخلص غيره من الإحراجات والمواقف الصعبة، فهو يلجأ إلى الحيل ونصب الفخاخ.. يمارس أعملاً يظهر فيها الغفلة والسذاجة، والغباء والجهل ويبطن العكس، والآخر يجعل من نفسه مثقف عارف إدعاء يتأنق في ملبسه كما يضن، ويعتبر نفسه عصري إلى أبعد حد.. يمارس أساليب الحضارة في مبالغة زائدة، وبينهما رجل بسيط صاحب مقهى على ناصية أحد الشوارع في المدينة الساخبة التي تعج بالناس من مختلف الفئات والطبقات، وكان للرجل صاحب المقهى زبوناً ثقيلاً أقلق راحته وسبب له إزعاجاً كبيراً لا يطاق- فهو يأتي - الرجل الثقيل - إلى المقهى كل يوم في موعد محدد، ويجلس في كرسي معين على طاولة بمفرده، ويطلب قهوة بمواصفات مخصوصة: قهوة عربية عالريحة نصف فنجان بالحب هان.. ينطق الكلمات مرتبة أو بأسلوب فيه تعالي وتأنق وجدّية في لهجة آمرة، ويضل صامتاً إلى أن تأتي إليه القهوة: الطلب، فيأخذ يرشفها على مهل وإلى وقت طويل، وتضل الطاولة محجوزة له وحده إلى أن ينصرف في قرب الظهر.. الأمر الذي حار معه صاحب المقهى وكيف يتخلص منه، وفي مرة جاء إليه-إلى صاحب المقهى-صديق ونديم في السهرات.. اشتكى الرجل إلى صديقه من

تصرف الزبون الثقيل قال له صاحبه لا عليك: حدد لي متى يأتي إلى القهوة بالضبط، وأخبره صاحبه: أنه يأتي على الساعة التاسعة بالدقيقة.

وجاء الرجل الأنيق المتأفف كعادته في موعده سحب كرسيه وجلس على نفس الطاولة بعده بقليل جاء الرجل صديق صاحب القهوة وجلس بالقرب من الرجل صاحب الطلب الذي لا يتغير: قهوة عربية عالريحة نصف فنجان بالحب هان.. حينها نادى الرجل الصديق على صبي القهوة وطلب قهوة عربية على الريحة نصف فنجان بالحب هان.

ضل صاحبنا الأول يرقب الرجل مستغرباً كيف يعرف الرجل هذه المواصفات وهو بهذه الغضاضة والغلظة-كان الرجل تعمد أن يلبس ملابس خشنة كالعمال وجلس يضع رجلاً على رجل ويتكلم بصوت عالي-جاء الصبي بالقهوة ووضعها أمام الرجل وانصرف-أخذ الرجل رشفة من القهوة بصوت مسموع ثم أخرج من جيبه عرق فجل (رأس) قضم منه قضمة ثم تبعها برشفة أخرى من قهوته التي هي عربية عالريحة نصف فنجان بالحب هان.. وكان الرجل الأنيق المتأفف ينظر متعجباً ممتعضاً رافض هذا الأسلوب المتخلف، ثم فجأة ينهض قائلاً: «يا أنعل دين القهوة التي تعرفوها» وينصرف.. ومنذ ذلك اليوم انقطع عن المقهى وتخلص صاحبها منه بفضل تصرف صاحبه.

* وهنا رجل آخر عرف بالجود والكرم، وما الكريم الجواد إلا الله المتفضل على الإنسان بشتى النعم من صحة الأبدان والعقل والنطق والمتميز عن سائر المخلوقات {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}.

رجل وجيه كريم يذكره الناس في محيطه بالسماحة والجود وبسط اليد وبشاشة الوجه، وحسن استقبال الضيف والاحتفاء به. رجل متفرد في المنطقة

دون متوسطي الحال هو أقرب إلى الفقراء، غني في مظهره نظيف في ملبسه، قليل المال في جيبه يأتيه المال من حيث لا يحتسب، فلا يمسكه بل يتلفه في وجوه الخير المتعددة: في التوسعة على المحتاجين، وفي إكرام الضيف وإكرام نفسه.. يلبس أفخر الثياب ويطعم أهله وضيوفه أفضل الطعام، ويسوس خيرة الخيل ويركبها في زمانه، فهو فارس بهذا المعني، وفي الرجولة والأيادي البيضاء أخبر رجل مدينة زواره (عبد العزيز) قال في جملة واحدة: «حمد ما يوصله حد» فالرجل عطوف على أصحاب العوز.. نجاد لأهل الضيق، يتفضل في غير منة، ويتطوع بالوقوف إلى جانب من يصيبه ضرر أو كانت به حاجة دون طلب.. شهم بما تحمل الكلمة، من معني في الجاه أو المال، فكأنه يطبق قول الشاعر القديم الذي يقول:

وإذ امرؤ أسدى إليك صنيعة .... من جاهه فكأنها من ماله.

يتخذ هذه الدعوة شعاراً ويطبقه في الحياة.. هو الذي يقول لأبناء أخواته: «كلمة خالي.. يا قيموها.. يا ما تقربوها شيء» بمعنى: لا تنسبوا لي إذا لم تكونوا أهلاً لها: كأن تكرموا الضيف وتنجدوا الملهوف وتقضوا حاجات الناس بما عندكم من جاه أو مال، ويوصي دائماً بان الكرم بما هو موجود، إذا كنت ذي سعة فانفق مما أتاك الله، وان كنت على قدرك فنفق مما عندك ولا تبخل أبداً.. يقول شربة ماء وقشرة التمر تعطيها بوجه باش ونفس راضية هي فضل وجود، ولا ترد الناس خائبين واقضي حاجاتهم بجاهك وحتى مداينة الناس، فالله يرزق عبده من عبده.. له قاموس من الكلمات في شأن الكرم والكريم يستشهد بأمثال وأقوال.. مثل «بيت الكريم ما يخلاش من العيش» و«إذا واطئ عندك البخيل عينه عند الكريم تبات» و«الضيف تسبقه ضيفته» و«الكريم مرزوق».. «إكرام الضيف واجب».. «ضيف الجواد أضيف».. «الضيف كرامه» بمعنى منحة

وفضل من الله على المضيف.. هذا الرجل: تحكي عنه الحكايات من معاصريه وبعضهم لازالوا أحياء يرزقون، منها: أن جماعة من منطقته كانوا يشتغلون عند رب عمل في أحد المدن البعيدة عن المنطقة، حدث خلاف بينهم وبين رب العمل فاستقوا عليهم بعصبيته، ورفض دفع أجرتهم فشكاه هؤلاء إلى مركز الشرطة.. أثناء كتابة المحضر من قبل ضابط صغير الرتبة، وبالسؤال عن الأسماء والبلد، وما إلى ذلك من بيانات عرف الرجل أنهم من منطقة (بن رتيمة). توقف عن إكمال المحضر وسأل هل تعرفون: بن رتيمة؟ أجاب أحدهم ومن ما يعرفاش؟!.. إحنا من قبيلته.. فلما تأكد الرجل من صدقهم قفل المحضر، وذهب بنفسه إلى صاحب العمل طالباً منهم الانتظار .. استلم أجرتهم كاملة ثم عاد إليهم بعد أن أمر أهل بيته، بإعداد وليمة من طعام وطيّب لضيوف عنده، ثم طلب من الجماعة مرافقته، وقد ضن بعضهم أنه ذاهب على الحجز، لأن صاحبهم رب العمل له حيثية في البلدة ونفوذاً وعصبية لوح بها في وجودهم عندما نازعوه لكن الرجل الضابط الصغير ذهب بهم إلى بيته وأكرمهم مرحباً بهم، وبعد أن تناولوا الطعام.. أخرج رزمة من النقود، أجرتكم كما في دعواكم. وأريد أن أقول لكم ولا تقولوا له اسمي.. لكن قولوها للناس فالرجل سبق معروفه في وفي أهلي وأنا أحاول أن أرد له قليلاً مما قدم لي من معروف، وعلى الله أجر المحسنين.. وغير هذه كثيراً مما يروى في سيرة الرجل، من صنيع للمعروف وكرم بالجاه والمال، وما يروى عن كرمه كثيراً ما زال من جيله أحياء يزكون الرواية والأقوال.. لعل الحاج بشير بن عمار خير شاهد على ذلك، وهو من التقاة الصادقين.. قال الرجل-بشير-كنا ذات مرة في جمع كبير تجاوز المائتين شخص في اجتماع من أجل الانتخابات وإذا بنا نسمع: بن رتيمة يقول: الغذاء عندي يا

تريس.. قال فوجئت وأنا كنت قريباً منه بالمكان، فقلت له كيف لك بهذا العدد الكبير؟!! قال عامل حسابي، وكان الأمر كذلك: نساؤه الثلاثة ونساء جيرانه منذ الصباح الباكر يخبزون العيش ويطبخون المرق، وما أن جاء وقت الغذاء، إلا وكان كل جماعة تجلس في ضل نخلة يتحلقون خول قصاع الطعام، ويعلم الله كيف دبر الرجل ذلك كله والحال كان شحيحاً في تلك الأيام، لكن الرجل معروفاً عنه الكرم ولو استلف من غيره. والرجل الآن في ذمة التاريخ رحمه الله رحمة واسعة وطيب ثراه كما طاب ذكره بين الناس.

المـــروءة وأهلهـــا

في الصفحات التالية صور من المرؤة حفظتها الذاكرة، بعضها كانت معاشة وأهلها معاصرون، وبعضها عن طريق السماع والاطلاع.. سمعنا كثيراً عن المرؤة وأهلها، سمعناها من مصادر مختلفة، أثناء أحاديث السمر أو أطلعنا عليها في القراءات المتنوعة.. غير أننا فضلنا تقديم تلك التي عشناها وعرفنا أهلها فعلاً، ومنهم من مازال على قيد الحياة، وهنا الحديث لا شك في صدقيته، إلاّ إذا كان فيه انحياز لغرض، ونحن لا نرى في هذا انحيازاً ولا دعاية لأحد سيما وأن الغالبية منهم قد فارق الحياة.. لكنها دعوة للتحلي بهذه الفضيلة السامية والخلق الكريم، وفي الحقيقة هي طبع - المرؤة - خص به أناس بعينهم ولا تخلو من تدبّر واتزان وحصافة في الرأي وغيرة على الحق والعدل، وفيها شجاعة ونكران للذات، وبذل وتحمل تبعات الفعل أحياناً.

وهذه صورة من صور المرؤة، شاهدتها وعشتها زماناً ومكاناً وقد مر عليها حتى الآن أكثر من نصف قرن.. حدثت في قريتنا بالذات وعلى وجة أكدته تاريخاً سنة ١٩٥٨.. في تلك الآونة حدث احتكاك بين جهتين متنافستين على أمر ما أدى إلى مناوشات بالسلاح وسقط بعض الضحايا في جانب، دون الآخر، وانحاز كل فريق إلى ثقله الاجتماعي أو قل عصبيته يناصره.. توترت الأجواء، وتطور النزاع، فكان الحرق وقطع الطريق، وحتى السلب والاستيلاء على الأملاك وخاصة المنقولة.. فتدخلت السلطات بين الجانبين ووجدت منطقة خالية من أهلها حيث نزح الناس كل إلى مرابع فريقه.. في أثناء فترة التوتر

والأعصاب المشدودة، والنفوس الموتورة الثائرة، ضفر واحد من الموتورين الذين لا يقدّرون العواقب وتحركهم العصبية والنعرة القبلية – كان هذا للحق قد أحرق منزله – ضفر بشخص مسامح طيباً فقير الحال – مدرس في مدرسة القرية – جاء إليه في حرمة بيته وكان من الفريق المنافس.. طرحه على الأرض وهو هائج غاضب ورفع سكيناً كبيراً وحجّامه، إلى أعلى وهو ينزل به على رقبته ليقضي عليه، وإذا بشخص من وراءه يمسك يده بعنف فاستدار الرجل الموتور يحسبه من الفريق المعادي فطار منه السكين وتماسكا الاثنان يتجادلان في الأمر فما كان من الرجل الذي كاد أن يكون ضحية إلا أن ينجو بنفسه هارباً من الموت المحقق.. ذهب المسكين يجري حافياً مسافة سبع كيلومترات حتى وصل مأمنه وبقى ذلك الموتور يعاتب الآخر وينكر عليه كيف لم يتركه يذبح المدرس المسكين ليشفي غليله حاوره الرجل صاحب المرؤة الذي منع جريمة كادت تقع لولا أن تدخلت العناية في الوقت المناسب بفضل الرجل صاحب المرؤة، قال:

– ما ذنب هذا الرجل المسكين– هل فعل لك شيئاً أذاك؟

– جماعته حرقولي حوشي.. ذبحوا شياهي، وشرّدو عائلتي.

– هو بعيد عنك بالمنزل.. وجماعته التي تقول عنها لا علم له بهم.. ومن قال لك أنه يعرفهم؟ برا لهم هم خوذ حقك منهم.

– أنا ما عنديش فيهم فرق كلهم كلاب.. والله كانش ماني لاقي واحد.. لا ما نذبحه.

– هذا الرجل ما هوّاش صاحب شر ويقريّ لنا في أولادنا.. وجاري أنا نموت قبله.. والله العظيم لو يولى لحوشه.. أنا اللّي أنعس عليه وما يوصل فيه واحد ما دمت حي.

– أمّاله حتى أنت معهم... بره في صفهم باش نعرفوك.

- أنا مع الحق... اللّي ما أدير شيء ما أجيه شيء.

وذهب الرجل الموتور إلى أهله وأخبرهم الخبر، وقصى الحادثة والحوار الذي جرى بينه وبين الذي أنقذ نفساً برئيه، فلامه العقلا وعنّف البعض، {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}.

والغريب الذي ترتب على هذا الموقف من بعد تلك المرؤة التي قدمها شخص شهم شجاع ذو نخوة وأقدام، دفاعاً عن الحق وغيره على حرمة الجوار، والذي عرض نفسه لردة فعل ذلك الهايج الخايض الموتور الذي كاد أن يقضي على المدرس التعيس، وربما نال منه هو بدوره أذى وشر، ولكنه كان في موقف أصحاب المرؤة فسلم وسلم الرجل المعتدي عليه.

ما ترتب على هذا الموقف قصة أخرى جديرة بالسرد.. كان هذا المدرس يخرج صباح كل يوم باكراً نحو المدرسة التي تبعد عن محل سكناه أكثر من ثمانية كيلو متر، كان يركب حماراً اشتراه لهذا الغرض المواصلات في تلك المنطقة والطريق رملية والمسافة بعيدة وهو حريص على ألا يغيب دقيقة واحدة وحريص أيضاً ألاّ ينقص من مرتبه قرشاً واحداً، والمرتب في تلك الأيام زهيداً جداً لا يتعدى خمسة عشر جنيها بعملة ذلك الزمان.. والرجل يعول أسرة كبيرة أخوة وأخوات ووالدا أرملا طاعناً في السن، وهو -المدرس- لم يتزوج بعد لضيق ذات اليد.

بعد تلك الحادثة مباشرة، لم يعد الرجل إلى بيته (حوشه) في جوار ذلك الشهم الذي أنقذه من الموت وقد تبعه أفراد أسرته ليلاً إلى مكان أمن، أما هو فقد هاجر بعد أيام قليلة إلى العاصمة فراراً من ظلم وقهر وبحثاً عن رزق ولو قليلا مع الأمان.. حط الرجل رحاله في أحدى الجنسيات التي تستقبل الوافدين

من الدواخل، ويعلم الله كيف كانت حياته في البداية: ضنكاً ومصبغة ورعباً سكن نفسه جراء تلك الحادثة، كان المحيط غير المحيط، والناس ليس هم الناس الذين عاش بينهم في صغره وبداية شبابه والمستقبل مجهولاً، لا يدري كيف يكون.. تقدم إلى الإدارة المختصة في نظارة التعليم من أجل نقله إلى أحدى مدارس العاصمة وكانت مكتفية بالمدرسين والكل يرغبها والناقص حاصل في مدارس الدواخل.. الفرصة كانت ضئيلة في الحصول على وظيفة مدرس في العاصمة، تكررت محاولاته وطال انتظاره، وأخيراً حصل على مبتغاه بعد إقناعه المسؤلين بظروفه التي أوضحها لهم.. انتظم الرجل في أحدى المدارس يبذل كل الجهد من أجل أن يحافظ على مكانه وبالتالي يحافظ علي لقمة عيشه.. سارت الأيام رتيبة من البيت إلى المدرسة ومنها إلى البيت.. هناك وقت فراغ والعاصمة تتوفر على فرص للعمل خارج أوقات الوظيفة.. مساعد صاحب بقالة في أحد الأزقة، أو كاتب حسابات عند بعض التجار الكبار، أو حتى وزّانا في سوق الخضروات.. تنقل بين هذه الأماكن يبحث عن عمل في وقت الفراغ من أجل تحسين دخله، الذي عليه واجب استقطاع جزء منه يبعث به للأسرة والأب الطاعن في السن في بلدته التي تركها .. كان له ما أراد.. بدأ يشعر بالراحة ويحس بالأمان بعد أن نجا بنفسه، وحطت به الرحال حيث لا يدري كيف تكون الحال.. في العاصمة تتوفر فرص العمل خارج الوظيفة لمن هم على قدر من العلم والمبادرة والطموح، وكان الرجل مجتهدا طموحاً مبادرا أستانس برأي من سبقوه في مجال «التوكيلات» أولئك الذين لهم علاقات تجارية في الخارج في بعض البلاد الناهضة في صناعة الملابس.. تحصل على توكيل من أحد شركات التصنيع في بولندا، حالفه النجاح، وبحكم إخلاصه واجتهاده في

العمل كثر زبانيه وراجت السلعة التي كانت توردها الشركة وهو وكيلا لها.. زاد دخله أضعاف مضاعفة.. أقبلت عليه الدنيا تفتح ذراعيها.. والدنيا كما في الأمثال «ليا تجيبها سبيبه.. وليا مشت أتقطّع السلاسل».. أصبح ذلك المدرس المسكين الذي كانت بينه وبين الموت لحظة واحدة: من وقت رفع السكن إلى أعلى والنزول به على رقبته. لولا تلك اليد الغليظة وصاحبها ذو المرؤة والشهم، التي أمسكت يد المجرم الموتور، لكان الرجل في عداد الأموات.. والآن ها هو من كبار التجار، وما هي الاّ السنوات حتى أصبح من كبار الأثرياء.. وسبحان مغير الأحوال كان يركب حماراً بائساً كبؤسه يتلوى به في طريق وعرة ذهاباً وإيّابا يقطع كل يوم مسافة لا بأس بها بين المدرسة والحوش، فأصبح الآن يركب أفخم السيارات، ويملك الصالات والمتاجر الكبيرة، والمزارع والدارات الواسعة الفسيحة.. تزوج وأنجب من البنين ثمانية ومن البنات ما لا علم لي به.. فسبحان الرزّاق بغير حساب.. هذه قصة رجل كان صنيعه مرؤة رجل آخر لعل فيها عبرة لهذا أوردناها.

* وهذه صورة من صور المرؤة صغيرة في مشهديتها وتفاصيلها كبيرة في معناها وهدفها كان واحد من ظباط الصف في الجيش مكلّف باصطحاب مجموعة - سرية من المجندين كرها من الشباب والذهاب بهم إلى حرب خارج البلاد مناصرة أحد الحلفاء على غريم متمرد عليه.. لا تهم التفاصيل بقدر ما تهمنا هذه الصورة المشهورة التي نعرفها من صور المرؤة.. أخذ ظابط الصف يشجّع جنوده المتطوعين والمجندين بالإكراه بكلمات ترفع من معنوياتهم، وتهون عليهم الأمر، وأنه لا يعدوان يكون جولة ينتصرون فيها على العدو ويعودون قريباً وفي نفس الطائرة التي هم ركاب فيها، وقد كانوا يتأهبون للإقلاع.

قال ظابط الصف (رحومه) المكلف بالسرية: كنت أتحدّث مع الجنود وابتسم من أجل تبديد إحساسهم بخطورة الموقف وما ينتظرهم على أرض العدو، وهي أدغال لا يعرفونها من قبل قال وإذا بي الخط شابا لا يعي شيء مما أقول ولا من هم حوله ولا يسمع وهو في حال من الهلع والخوف فلما نظرت إليه مستفسرا دون أن أسأله، نطق الشاب وهو يجهش بالبكاء قائلاً: أمي.. قال ظابط الصف: كنت قد قدّرت الموقف بسرعة.. هل هذا الشاب وهو على هذه الحال؟ سيفيدني في شيء.. وأنا أقود هذا الفصيل في معركة قادمة بعد ساعات؟! أو بعد يوم واحد على أكثر تقدير.. بل لا شك أنه وهو على هذه الحال سيضعف من معنويات بقية أفراد الفصيل.. قال بسرعة قلت له : أنزل برّه لأمك، فما كان منه إلاّ أن قفز من الطائرة وضل يجري ويلتفت غير مصدق أنه سرح من مهمة قتال.. أضاف رحومه: أن القانون العسكري يجرمني أنا في هذه الحالة: فرار من الجبهة بالنسبة له وتسريحي له وهو جندي تحت أمرتي.. لكني قدرت أولاً أنها مرؤة قدمتها لهذا الشاب الذي يكاد قلبه ينفطر من شدة الخوف، وثانياً هو بالنسبة لي لا يقدم ولا يؤخر بل ربما كان عائقاً يعوقني ويثبط من معنويات جنودي، من جهة أخرى وفرّ لي مادة كانت عونا لي على تشجيع جنودي فقد أخذنا نردد جماعة: والخايف الخايف يمش لأمه هذا كان عذاب الممّة، الأمر الذي جعل كل الفصيل في قمة حماسه وروحه المعنوية العالية.

❋ أما هذه فأغرب ما سمعت من قصص المرؤة.. مشهد لمسرحية أبطالها ثلاثة: رجلان وامرأة: هم الممثلون، وهم المشاهدين ولا علم لأحد بما دار في هذا المشهد الذي حدّث به أحد الرجلين بعد وقت طويل، وقد غادر المحيط: مسقط رأسه وأقسم ألا يعود إليه مادام الرجل الآخر حياً.

والقصة كالآتي: كان رجلاً ضيفاً على شيخ كبير بالمكانة جاهاً ووجهاً وسلطة، يقود قبيلة كبيرة معروفة بالقوة والبأس، والشهامة والشجاعة بين كل القبائل في المنطقة فكان شيخ القبيلة محل التقدير والتبجيل والاحترام الكبير من جميع شيوخ القبائل المجاورة كان (باشا) رتبة تمنحها السلطة المركزية لمن له الكلمة العليا في منطقته، ولا يكون إلاّ سليل بيت كبير وصاحب فطنة ورأي وأمر نافذ لا يرده أحد بل يجمع عليه الجميع وله الأمر المطاع.

وكان الرجل الآخر الضيف من قبيلته، يعرفه حق المعرفة.

روى لي هذه القصة صديق من المنطقة له دراية بالأنساب والأخبار ومعرفة القبائل.. شيوخها وحكماؤها وأهل الفضل فيها. وأصحاب المرؤة وأهل الجاه ومن كان علم «فيها قال الراوي: دخل الضيف بعد تناول العشاء والشاهي كالعادة ... وعشاء الشيخ لضيوفه بالطبع: خروف مطبوخاً بكامله في قصعة من الأرز المخلوط بالسمن.. ثم حديث وموانسة للضيف من طرف الشيخ - دخل بيت الضيوف حيث عدّ له فراشا ليناً ومقاماً طيبا كعادة أهل البادية.. فالشيخ كان له بيت للضيوف، ولكل زوجة بيت خاص لها وكانت له أكثر من زوجة.

والعهده على الراوي أيضاً بخصوص هذه الظاهرة التي لا تعرف ألاّ في بعض الجهات، وهي أن الضيف، وفي حالات نادرة ومع الحذر الشديد يمكن له أن يراود المرأة عن نفسها إذا كانت بمفردها.. والظاهرة لا يجيزها الدين بالطبع، لكن العرف يتغاضى عنها إذا حدثت.

وما حدث في هذه القصة: هو أن الضيف دخل على أحد الزوجات وكانت بمفردها في بيتها الخاص، فالشيخ كان عند أخرى، حاول الضيف مع المرأة المصون فتمنعت بشدة، لكنها لم تبدي استغاثة أو تحدث جلبة فقط كانت تدفع الرجل وتنهره بصوت خافت.

كان الشيخ يراقب الموقف سماعاً من بعيد، ولا يتدخل بالاعتداء على ضيفه وله الحق لو فعل لكنه قال له بصوت يسمعه ويعيه: «سيبك منها يا جلغاف.. ها ذيك كان سكرّت رأسها حتى أن ما تقبلنيش» كان الضيف أسمه جلغاف والشيخ يعرفه حق المعرفة لأنه من أفراد قبيلته.

أسقط في يد الرجل وخرج يتستر بالظلام، وصل إلى بيته عند الفجر.. في الصباح حمل أهله ومتاعه على جمال له وانتقل إلى خارج حمى القبيلة.. عاشر قبيلة أخرى مجاورة ضل بها حتى أصبح كبيراً بالسن ولم يعد إلى مسقط رأسه ومرابع قبيلته إلاّ بعد أن علم بوفاة الشيخ الكبير (الباشا) عاد بعدها حيث مكث سنوات طويلة وخبرّ بالحادثة خاصة المقربين منه.

هنا نقف عند هذه القصة نحلّل أبعادها الاجتماعية والأخلاقية: فنجد أنها تختلط فيها المرؤة بالحكمة مع الرأي الصائب وإعمال العقل... حضور البديهة التي أسعف الشيخ ليتصرف على هذا النحو.. كاظماً عيضه متحكما في نفسه من ردّة فعل هوجاء، قد تكون قاضية على الرجل الضيف.. والشيخ لا يلام في ذلك إن فعل..فهو في موقف الحامي لعرضه وشرفه، ولكنه قدر ما يترتب على تصرفه الذي قد يكون فيه الموت للمعتدي وفي مقدوره بالطبع، فهو له من الأعوان والسلاح.. صبر وملك نفسه عند الغضب وتصرف كرجل حكيم وشيخ له مقامه واسمه بين الناس، فما كان منه إلا إن خاطب ضيفه باسمه وهو يعلم ما كان ينوي فعله مع زوجته... قال له : لا يا جلفاف سيبك منها هاذيك كان سكرت رأسها حتى أنا ما تقبلنيش» خاطبه بلهجة النصح في رفق ودونما إظهار للغضب..موقف فيه كل المرؤة.. سامح وعفا وهو قادر..كان الشيخ حليماً ولا حلم معاوية وكان شجاعاً ملك نفسه عند الغضب.. تصرّف تصرف

العقلاء والكاظمين الغيظ.. وكانت الزوجة أيضاً لا تقل حكمة وحسن تصرف وإلا ماذا لو أمسكت بتلابيب المعتدي وهو الضيف وصاحت تستغيث بزوجها وأعوانه؟! واجتمع الجمع وشهد الشهود، وتسامع الناس الخبر، وانتشر في كل ربوع القبيلة، والخبر كما يقولون شمس تعم الكون بسرعة، «وكل شيء تنشره ينقص إلا الخبر تنشره أزيد» من أجل ذلك كان موقف الشيخ الرصين، تحسباً للعاقبة التي تشوّه سمعته وسمعة زوجته ودراء لشماتة الشامتين ومتسقّطي الأخبار والمقالب والعيوب رحم الله الباشا ولله دره من حكيم، وللمرأة تقدير عاليا على حسن تصرفها.

وعبر وعظات فيما يلي

في خبايا الذاكرة وتعاريجها، حديث وأحـداث، ومفارقات ووقائع ملموسة، فيها العبرة والعظة والتوجيه والإرشاد، والنصيحة والحكمة ، والقيم والمثل العليا... وفيها فائدة وتذكيرا وصلاحا للحال، وهذه إما معاشه فعلا في فترة زمنية محدودة أو جاءت كروايات عن طريق أناس عاشوها أو سمعوا بها من آخر من تقاة، وفي هذه وتلك معلومة أو خبر فيه حسن التربية والتوجيه، ، والطرائف والنوادر والمفارقات العجيبة، والحوادث الغريبة، نلمس من خلالها الحث على القيم العليا وسمو الخلق، وإتباع للمنهج القويم في الحياة وشأنها، والعيش بين الناس في وئام وسلام ومنهجا.. الاستقامة والصلاح واستخلاص الدروس من مدرسة الحياة لا يستقيم المجتمع ولا يزدهر إلا بها.

في ما يلي نجد بعض القيم والمثل العليا: كالمرؤة والحلم والكرم والشجاعة والنجدة والشهامة، وما إليها من أخلاق فاضلة، وسجايا كريمة.

ولعل الكرم يأتي في أول درجات سلّم هذه السجايا التي يتسابق الناس على التحلي بها ويفتخرون ، فالكرم من صفات الله فهو أكرم الأكرمين، ومن يتحلى بصفة من صفات الله فهو على خلق عظيم، والعرب كانوا من أكرم الأقوام التي عاشت على الأرض منذ أيامهم الأولى وحتى هذا التاريخ ... العرب قوم كرماء يتحاسدون في إكرام الضيف والطارق الغريب، الذي ترمى به السبيل على ديارهم سواء في الحضر أو في البادية.. الضيف عندهم محل حفاوة وترحاب..

مكرم مبجل حتى يرحل.. وقد يبالغون في إكرامه على ما جاء في إخبارهم، فهم يزودونه براحلة وزاد إذا كان بلاهما ويرافقونه حتى يأمن الطريق، والضيف في ذمارهم إلى أن يجتاز مرابعهم وحماهم.. ومن إكرامهم للضيف: موانسته بالحديث والأخبار والتسريه عليه والتبسّط في حضرته، ليشعروه أنّه بين أهل وأصحاب.. ولا يأنفون من خدمته، بل يبالغون في هذه الخدمة، فيقفون عليها هم وأولادهم بدلا من الخدم والأعوان، ومن شعارهم «خدمة الضيف تزيد البركة» وفي هذه الباب لابد من استحضار بعض النماذج الدالة على هذه السجية المقدمة على كافة السجايا من الواقع.. وفي الزمن الذي عشناه أو قريبا من زماننا.. في محيطنا الاجتماعي بالطبع..والسمع يوفر حصيلة كبيرة من أخبار الكرم وأهله من خارج المحيط وفي نفس الزمن ومصادرها الأجوار والمناطق القريبة والبعيدة.. بحكم السفر والترحال داخل البلاد وخارجها والأحاديث والمسامرات سجل لها يقرأه الناس في كل مكان.

سنصحب في هذا الموضوع نماذج لأناس من طبقات مختلفة ومن المحيط كما كانت الاشارة من قرى في المنطقة وباديتها على طرف الصحراء.. هناك الوجيه وميسور الحال والفقير وذو الشأن العالي والمكانة المرموقة والعامل والبسيط والراعي، وما هذه النماذج إلا لما هو موجود في كل منطقة وبلاد.

ولعل الراعي يحضرنا في المقدمة. ربما لإعجابنا الشديد به.. لا لأنه راعي أحترف حرفة وضيعة، كما يرى بعض الناس من قاصري الفهم الأغبياء، وضعاف العقول؟ قليلي النظر والتفكير.. لكننا نقدمه.. من أصحاب الفضل – لأنه في صحراء خالية تنعدم فيها أسباب الحاجة والفضل والنعمة، من شراب وطعام، ولين عيش، كما هو ماذا في مقدوره أن يقدم لضيوفه ما يكرمهم به؟!

هو راعي لأنعام غيره من أهل اليسر والمال.. ومن هنا يبدأ أعجابنا به وتبجيلنا له ليأتي في مقدمة ذكر أهل الفضل والكرم.

هو راعي لإبل أحد الوجهاء ميسوري الحال، وأصحاب السعة في الرزق والثراء المشهود المتمثل في قطيع من الإبل يغبطه عليه كثير من معاصريه.. لا يهم هذا كثيراً في السياق.. أنما ضالتنا هي الراعي نفسه، صاحب الفضل الذي تجلّي في أبهي صوره.

في العرف الراعي وراعي الإبل بالذات، يرعى القطيع لمدة عام كامل باجرة عبارة عن (قعود) وليد لأحد النوق في تلك السنة يأخذه في نهاية العام.

هذا الرجل الراعي: أطبقت شهرته المنطقة كاملة، وأصبح علما يعرفه كل أحد، والذي لم يراه راى العين سمع به.. فهو قد أصبح في شهرة مدير المنطقة - الحاكم المحلي - أو شيخ القبيلة أو إمام الجامع أو أكرم كريم في المنطقة: كلها هذا الرجل الراعي: هو (حصو) لقب الرجل.. محمد الذي أتفق الناس جميعا على كرمه الذي لا نظير له، وهو راعي كما قدمنا لقطيع من الإبل يملكه غيره..

رجل راعي فقير إلا من قناعة حياه الله بها.. كان الرجل يجود بما عنده وما عنده إلا حليب النوق التي يرعاها - العرف يعطي الحق للراعي في حليب الإبل فهو المتصرف فيه يجود به على من أراد أو يمنعه.

حصو هذا تروى عنه الأحاديث والقصص التي سنورد أحداها وهي قصة مشهورة جداً في حياته وبعد مماته.. وصاحبنا الكاتب: عرف هذا الرجل في آخر أيامه، وقد عمر طويلاً أكثر من مائة سنة ولم يمسّه هرم.. كان الرجل ربعة، سمح الوجه، دمي منشرح الأسارير، حلو الحديث تلمس فيه الصدق، ظريف

الجلسة، يتحلق حوله معارفه من كبار القوم ويغمرونه بحفاوة زائدة يبجلونه ويذكرونه بزيارتهم له وهو يرعى الإبل في الصحراء... يحكون الحكايات عن (شكوته): وعاء الحليب - شكوته الكبيرة التي صار الناس يضربون بها الأمثال.. فيقولون: «شكوة حصو».

كان الرجل يسبقه كرمه على ملامح وجهه، وهو يسرع لاستقبال زائريه في الصحراء يرعى قطيعه.. يراهم عن بعد فيستعد لهم بما عنده من بشأشة وزاد وما زاده إلا حليباً في ضروع النوق.. يفاجيئه مرة جماعة من ملاّك الإبل: (أسياد البل) ليس بالضرورة أن تكون إبلهم هم التي يرعاها أنما في العادة أن يقصد روّاد الإبل أي قطيع يرونه عن بعد للتثبت منه إذا ما كان لهم أو لغيرهم في هذه المرة جاءت الجماعة عمداً للرجل الذي أشتهر بالكرم الذي لا نظير له بين رعاة الإبل الآخرين.. كان المطر شحيحا، والسنة مجدبة والنوق قلّ درها.. وهؤلاء الجماعة جاؤا يتحدّون الرجل عن قصد، ليقولوا للناس في ما بعد أن حصو لم يكرمهم بشربة حليب.. كان الجماعة يركبون خيولهم والناس يعرفونهم بالاسم.. هم أخوة ثلاثة وأبن عم لهم.. الدرايسيه... بادر الرجل إليهم مسرعاً خارج القطيع، وحين وصل إليهم قال فرحاً مستبشراً كعادته: تفضلوا (زوزو) مرحبا نهار مبارك اليوم.

قال أحدهم مازحا وفي لهجة تحدي: وينها شكوتك اليوم اللّي إقولو بيها؟ اليوم تبان يا محمد الكذّاب وحاش اسم سيدنا محمد:- قال الرجل، وقد مسته غضبة الكريم: هي الشكوة ديما في أيدي؟! شكوتي في ضروع إبلها، وتحضر في وقتها إن شاء الله... خير الله موجود.

- قال آخر من الجماعة: اليوم يقصر كذبك وتنفضح يا حصو.

- الله لا يفضحنا... الله لا يفضحنا - وقيل أنه بكى غيرة على سمعته - تركهم وعاد إلى قطيعه، فأصدر إيعازا منه (تصفيره) تجمعت الإبل في مكان واحد، وأخذ شكوته، وضل يحلب النوق واحدة بعد أخرى حتى امتلأت الشكوة عن أخرها... فجاء بها إليهم، وقد جلسوا على الأرض بجانب خيولهم ينتظرونه فلما وصل إليهم قال أحدهم: هذه لنا أم للخيل؟؟

- تسقى الخيول عادة بحليب الإبل في سنوات الخصب.

- قال الرجل: تشربوا أنتم وخيلكم إن شاء الله وربي أصدقني.

أخذ الجماعة يتبادلون الشكوة فيما بينهم حتى أرتووا، وبقت فضلة صبها في وعاء شربت منها الخيل ثم عاد إلى الإبل مرة أخرى وأتى بشكوة ثانية صبها أيضاً للخيل فارتوت جميعاً، والجماعة تنظر في ذهول مما يروا رأى العين ثم نقلوا ما راؤا إلى أسماع الناس وذاعت شهرة محمد حصو بالكرم بين الناس، والكريم دائماً لا يخذله الله والكرم صفة لله وطوبى لمن أتصف بصفة من صفاته.

أوردنا هذه القصة عن واحد من أهل الكرم: راعي إبل لا يملكها له حليبها فقط يجود به كما في العرف.. حليب الإبل رزق للراعي يتفضل به على من يشاء. رحمه الله حصو الذي يضرب بكرمه المثل في حياته وبعد مماته.

وهذا نموذج آخر: شيخ قبيلة معروف (المجدوبي) مستور الحال، ليس بالغني ولا بالفقير، رغم أن والده كان من أثرياء القبيلة بالقياس في البادية - يملك ثلاثة قطعان من الإبل، لكل لونها: حمراء... صفراء.. سوداء (سعيد بن عبد الله، كان الشيخ المجدوبي ميسور الحال عفيفاً كما يقال عنه وقد اشتهر بالكرم. كان يكرم طارق الليل والنهار بما عنده من زاد ولو كان عشاء ابناءه،

يبني بيته على الطريق ولا يبالي – لا يسكن قرب الطريق في البادية من كان بخيلاً – أما الكريم فلا يخشى الطارق في كل وقت.. يظهر للسابلة نهاراً ويوقد النار ليلاً من أجل الضيوف.. يذبح خيار خرافه أو يقدم أفضل الطعام لمن يقصده، ولا يفرق بين وجيه أو وضيع، مطبوعاً بالكرم لا يقوم به لينال جزاء أو ثناء أنما لوجه الله خالصا كان هذا هو الشيخ المجدوبي كريما وللكريم أيضاً كرامات.

يحكى عنه: أنه في يوم من الأيام أستخف برجل (مرابط) والمرابط من أولياء الله الصالحين في اعتقاد العامة مع عدم التعميم.. غضب المرابط من الشيخ المجدوبي غضبا شديداً فدخل بيته ونادى زوجته قال لها: اليوم بندعو على الشيخ علي دعوة تكسره: من الكسر لأنه فعلى معي كذا وكذا وأخذ المرابط يدعو وزوجته تؤمن عليه، في الليل حلم المرابط كأنه يطلق مدفعاً من مكان عالي على بيت الشيخ علي فإذا بالقذائف تسقط في – قصعة العيش – فيطير العيش إلى السماء والقصعة ثابتة وكأن ساتراً من تراب يصد تلك القذائف المتساقطة.

قال المرابط لزوجته. هذا رجل كريم لا تؤثر فيه دعواتنا وجاء واعتذر للرجل، وأخبره بالدعوات وتفسير الحلم.

والناس يتحدثون كثير عن الكرم وأهل الكرم في كل مكان.. زويليمه في بن غشير.. والمدير عبد الحفيظ في الاصابعه، وغيث في الحرارات، والهوش في العجيلات، والأدريس: – الشيخ خليفة الجد – في زواره.. زكور في شكشوك.. حشاد في جادو.. بالفازه في العزيزية.. طيطش في قماطو – بن يوسف في الزاوية – بوشعّاله في مصراته.. تامر في ورفلّه.. بن رتيمه في زلطن، وآخرون في كل البلاد لا ينفسح المجال للذكر.. أما في المحيط، أقصد القرى الثلاثة: الجميل – رقدالين – زلطن، يذكر: الجمل – قنفود – الكل – بن سلطان – المنياوي – بن زايد –

خيشه – بوصبيع – بن ونيس – بن موسى – حرب لول – بن حميد وآخرون.

* وهذا رجل يجمع بين الكرم والكرامة، هو كريم بالفضل والجود، ومنحه الله كرامات، بمعنى مستجاب الدعوة: الشيخ حمد من أبناء قبيلة أبى شعالة فرع الزورق، من أكرم الناس في المنطقة.. رجل بسيط، يسكن بيتا متواضعاً، يحترف الجزارة على شارع رئيس قرب بيته، يذبح ويسلخ الذبائح بنفسه، يبيع اللحم لزبائنه الذين يأتون إليه من كل مكان من قصر حمد، والرويسات والرملة وبدّر، والسواطي وحتى من المواطين: مصراته القديمة، فهو أولاً أميناً، ولذبائحه طعم خاص كما يقول عنه الناس، كان الرجل يذبح الخروف الواحد والاثنين في الأيام الأولى لقيامه بهذه الحرفة ولما انهال عليه الزبائن أصبح يذبح العشرات من الخراف في اليوم الواحد أو الثلاثة والأربعة من الجزور والقعدان، كان الرجل منذ الأيام الأولى لاحترافه هذه الحرفة، لا يبخل على الفقراء والأقارب من جيرانه بجزء من ذبائحه، فهو يقطع لهم ما تيسر من اللحم ويبعث به إليهم في بيوتهم كان هذا في البداية بمعدل كل أسبوع، ثم صار يوما بعد يوم وأخيراً أصبح كل يوم – أما عن والديه، فإنه لا يباشر عمله إلاّ بعد أن يقطع الكبد من الخروف الأول الذي يذبحه ويشويه على الجمر ثم يذهب بنفسه إلى بيت والديه – أمه وأبوه – بقرب منه، يطعمها ويتبسط معهما تلطفاً وموانسة، ويطلب الرضا والدعوات الصالحات، ثم يعود إلى محل رزقه، ويشرع في إرضاء زبائنه، سوى من المعارف أو الغرباء.. توسع رزق الرجل، وكلما زاد فضل الله عليه زاد هو تفضلا على الناس المحتاجين، أخبرني بعض معاصريه وكان في عمره يسكن بعيداً عنه أكثر من أربعين كيلومتر – تاورغا – قال الرجل كان بوشعّاله بعد أن يفرغ من عمله في بعض الأيام، يأخذ ما يكفي من اللحم والكبدة وقطع

أخرى من أجل الشواء ويذهب إلى صاحبه هذا في بيته ثم يأخذه معه وأقارب له وجيران.. يخرجون جميعاً إلى الوادي - دفع سوف الحين القريب من تاورغا - هناك يجلسون يعدّون الشواء ويروحون عن النفس، وقال عنه كان الرجل يقف مع من يقصده طالبا مالا أو جاها ولا يرد أحداً خائباً أبداً، وكان كريماً في بيته على أهله - يداين الناس بأن يعطيهم اللحم بالطلق، ولا يطالبهم أبداً.. كان يوصي أبناءه، يقول لهم: اللّي يلقي أجيب لأنه سيحتاج مرة أخرى فيلقي حاجته، ومن يلقي ولا أجيب فهذا لا يقدر أن يأخذ مرة أخرى بالطلق، وأن تجرأ وطلب فلا تعطوه، ولا تسمحوله بالضحك عليكم، والرجل بوشعّاله له مكانته في منطقته، وجاهة وجاها، يفصل بين المتنازعين بالحسنى والعدل.. يصالح بين الناس وينصحهم، يشاركهم أفراحهم وأتراحهم يتبرع لهم بالذبائح ويطعم الطعام في مآتم الأقرباء والأجوار، والمعارف والأصدقاء. يؤدي الصلاة جماعة في الجامع القريب من بيته، وأينما حل عندما يسافر يبحث عن المسجد لأداء الصلاة.. يستمع إلى ذكر الله القرآن الكريم، وحث أولاده جميعاً على حفظه ذكوراً وإناثاً، وعندما يختم أحدهم ختمة يذبح له الذبائح ويطعم الأهل والجيران، كان يقول لأبنائه: سماحي لكم أن تحفظوا القرآن، وكان الرجل سبّاق لفعل الخير بماله وجاهه، وهو ليس بصاحب مال وفير لكنه يجود بما عنده.

كان وهو على فراش الموت كما يذكر أهله ومحبيه والذين يزورونه، لا يفتي بذكر الله ويستغفره، وكان يؤدي صلاته على الصورة التي يقدر عليها ولا يسهى عنها أبداً، ويوم أن شعر بدنو أجله طلب من زوجته أن تقوم له بالغسل الشرعي بعدها جاءت تسنده وجلست بجانبه ثم دخلت عليه اثنتان من بناته وواحد من أولاده كان من عادة أحد بناته أن تتلو سوراً من القرآن الكريم في حضرته فهو

يجب أن يسمع القرآن لا من المسجلات.. شرعت البنت في تلاوة الذكر الحكيم، بعد قليل طلب من زوجته وبناته الخروج، وأمر الولد بالبقاء أسّر إلى ولده أن أصحابه سيزورونه عما قريب ولا يحبون مرأ النساء في حضرته، فجأة يحاول الرجل أن يستقيم جالساً بعد أن كان مسندا ظهره على السرير أشار إلى ولده أن يتركه قائلاً: يا الله ثم استوى جالساً والتفت عن يمينه وقال: السلام عليكم ورحمة الله.. ضل الولد مندهشاً من الحالة التي اعترته وهو يسلّم ويرحب بضيوف لا يراهم الولد، لكن المريض يظهر كأنه يراهم ويستأنس بهم.. كان اليوم جمعة وهو لا يغيب عن صلاة الجمعة في الجامع القريب إلاّ عندما أشتد به المرض، طلب من ولده أن يصحبه إلى صلاة الجمعة وأصر على طلبه قائلاً له: الجماعة جابولي لباسا أبيضا جديدا سألبسه لأودى فيه صلاة الجمعة، قال ولده على حسن نية: وينه؟ أجابه أهو تحت السرير، لم يكن هناك شيء، نادى الولد أخواته وأمه قال لهم: الحاج يريد الذهاب إلى صلاة الجمعة - اجلسوا بجواره أنا ذاهب إلى السوق لأحضر له لباسا جديداً.. قالت أحدى البنات من ساعة فقط أغتسل وألبسناه ثيابا نظيفة، وهل يقدر على الذهاب إلى الجامع وهو في هذه الحال، أجابها الولد وكان باراً به وفيه شيء منه - صلاح وتقوى - أنا أجزم أنه يقدر وسأذهب إلى السوق واشتري له لباساً جديداً كما قال هو: أهداه له جماعة من أصحابه زاروه منذ قليل، وكان الأمر كذلك، أحضر الولد لباساً كاملاً أبيضاً جديداً ثم أحضر له كرسياً متحركاً وذهب به إلى الجامع وأجلسه في الصف الأمامي وكان أغلب المصلين يعرفونه ويقدّرونه، وقد عز عليهم حاله، وبكى بعضهم تأثراً بما فيهم الإمام أدى الرجل صلاته وبقى وقتاً طويلاً يذكر الله ويسبحه يستغفر له ولجميع المؤمنين، بعدها عاد إلى بيته.. وأسنده أهله على

فراشه وفي لحظة واحدة رفع أصبعه السبابة ونظر إلى السماء.. نطق بالشهادتين وخرجت روحه إلى بارئها. كان قبل وفاته ومنذ أعوام حين يحضر جنازات الأموات ويدخل إلى المقبرة يمرّ على مكان معين، ويطلب من أبنه - شيخ يحفظ كتاب الله - أن يدفنوه عند وفاته في ذلك المكان لأنه يحس بالانجذاب إليه، ومرت أعوام بعدها توفاه الله، وحين ذهبوا به إلى المقبرة وجدوا نفس المكان الذي أشار عليه لم يدفن فيه أحد.. حقق الله رغبته ونفذّ أبناءه وصيته.. رحمه الله رحمة واسعة.

حكاية سالم

هذه الدنيا عجيبة وغريبة، وفي الغرائب والعجائب عبر وعظات.. هي كتاب مفتوح ومدرسة جامعة يتعلم فيها الناس جميعاً، حتى من لا يقرأ ولا يكتب، يأخذ منها المعرفة، ويستفيد من الدروس.. دنيانا التي نعيشها وهي بالنسبة لكل منا: الأيام التي يعيشها منذ مولده وحتى آخر يوم في حياته عند نهاية العمر وحضور الأجل، حيث يوارى التراب.

والحكاية أعجب وأغرب من الخيال، وقد مضى عليها سنوات ولأن فيها عبرة لمن يعتبر ويؤمن بالقدر والمكتوب، فلا بأس أن نذكرها وبتفاصيلها، وهي ليست من الخيال، بل حقيقة وقعت، وشهودها مازالوا أحياء، شهودها الذين عاشوها عن قرب، والذين تسامعوا بها في المحيط، وعرفوا صاحبها حق المعرفة، وعاشوا معه سنوات من أعمارهم، وكانوا على علم بحاله في ظروف مختلفة.. بعضهم أقرباء له، وآخرون معارف وأصحاب، وعلى ما في القصة من غرابة نقلتها الأخبار حتى وصلت إلى خارج المحيط، وانتشرت في قرى ومدن مجاورة للقرية التي حدثت فيها.

هذه القصة: أحد شهودها المؤلف كسيرة ذاتية لبطلها مع كثير من التفاصيل، محور القصة وكما قلنا بطلها أحد المعاصرين، ومن نفس الجيل.. رجل لم ينال من التعليم قسطاً وافرا، خرج من المدرسة في مرحلة مبكرة من عمره، رغم أن والده من القادرين على تعليمه إلاّ أنه كان لا يرغب في التعليم وأخذ منذ بداية شبابه

يتجه إلى الأعمال الحرة في القرية مثل الزراعة والتجارة البسيطة ثم توسع بعد ذلك في التجارة والعمل الحر، الأمر الذي جعله يسافر كثيراً إلى البلاد القريبة والبعيدة، حسب ما تفرضه تجارته وعمله الحر من تجارة وأعمال أخرى مختلفة ومتعددة المصادر.. سافر إلى أغلب الدول الغربية، وأوربا، وأخيراً اتجه إلى الشرق البعيد.. ذهب إلى الصين وتايلند وكوريا.. كان الرجل اجتماعياً يصاحب كثيراً من الناس، ويتزاور معهم يخرج مع أصحاب ومعارف وأصدقاء وأقارب من عمره وطبقته في رحلات صيد وزردات، وسفرات في الداخل والخارج وهو يضاف ويستضاف، ويتواصل في محيطه اجتماعياً مع الجميع.. رجل ودود لا يؤذي أحداً ولا يسيء بقول أو فعل إلى من يصاحبه أو يتواجد معه في جلسة أو اجتماع مستوراً مادياً وله أكثر من زوجة، وعنده أطفال.. يملك في القرية مزرعة متوسطة كغيره من أهل القرية، هي جزء مما ترك والده تقاسمه مع أخوته، وله بيت حديث يضم زوجاته وأولاده في نفس المزرعة.. هذا الرجل تعرض عدة مرات إلى حوادث سيارات.. أحياناً كان هو الذي يقود السيارة والمتسبب في الخطأ، وأحياناً يكون راكباً مع غيره.. وفي تلك المرات العديدة كان ينجو بأعجوبة.. بل في مرات عدة نقل على أثرها إلى المستشفى في حالات خطيرة.. لكنه يتعافى بعد أيام.. ويخرج يمارس الحياة – العمر يدافع عن مولاه – يعود إلى بيته سليماً بعد أن يشفى من جراحه.. في أحدى المرات حدث بينه وبين رفاق له في زردة خلاف تطوّر حتى تحول إلى اشتباك بالأيدي، لكن العقلاء فضوا الاشتباك غادر الرجل المكان عايداً إلى بيته.. غير أن أحد الذين تشاجر معهم أتفق مع أقرباء له، ولحق بالرجل قبل أن يصل إلى بيته.. في الطريق أوقفوه وكان الوقت ليلاً.. اعتدوا عليه بالضرب فدافع الرجل عن نفسه، لكنهم كانوا عصبة

فتغلبوا عليه وطرحوه أرضا وذبحوه بسكين وفرّوا - ضل الرجل يتخبط في دمه إلى أن قيضى الله له منقذاً.. سيارة مارة في نفس الطريق نزل منها أصحابها. فوجدوا الرجل مغمى عليه من كثرة ما نزف من دماء كاد يهلك.. سارعوا به إلى المستشفى، فأجريت له عملية لإيقاف النزيف، واحتفظ به في غرفة الإنعاش المركز حتى عافاه الله، وغادر المستشفى إلى بيته وبقى شهوراً في بيته لا يسافر من أجل النقاهة.. بعدها عاوده الحنين إلى السفر البعيد وكانت وجهته هذه المرة كوريا الجنوبية التي سافر إليها عدة مرات من قبل يشتري منها الحرير الصناعي الذي يدخل في نسيج الأردية التقليدية التي تنتجها المعامل اليدوية (النول) في العاصمة.. سافر الرجل وهو يحلم بربح وفير، فالسلعة أصبحت مطلوبة وتوفر له من المال ما يجلب به كميات أكبر من ذي قبل.. مكث في سيول عدة أيام.. أشترى بما عنده من مال حريراً وضعه في ثلاثة حقائب كبيرة وقرر السفر في يوم معلوم على الطائرة الكورية كانت لها رحلة أسبوعية إلى طرابلس.. ذهب إلى المطار في الوقت المحدد وشحن حقائبه، وأتم إجراءات سفره وفي الموعد أخذ مقعده على الطائرة وهو يحلم بربح زايد من وراء السلعة التي اشتراها وشحنها معه في الطائرة - أو هكذا يجب أن يكون - لكن الحقائب شحنت بالخطأ على خط أخر في اتجاه فرنكفورت في ألمانيا كما علم فيما بعد أخذت الطائرة الكورية مسارها المرسوم كما حددته مصلحة المراقبة الجوية نحو طرابلس - ولأن الرحلة كانت طويلة أكثر من ثمانية عشر ساعة نام الركاب ونام الرجل فالرحلة أكثر من نصفها كان في الليل.. وعند الفجر كانت الكارثة التي علم بها الجميع.. كانت شبورة مائية ضباب يغطي منطقة المطار في طريق طرابلس...هبطت الطائرة قبل المدرج بمئات المترات. فحصدت أشجار الزيتون والحمضات قبل أن تصل

إلى المدرج... تناثر الضحايا على الأرض وفوق الأشجار وتقاطرت سيارات الإسعاف تنقل المصابين بين المستشفيات والمطار وكان أكثرهم قتلى، كان الرجل قد نقل هو أيضا إلى أحد المستشفيات وهو مذهولا من هول الصدمة، أودع سريرا بعد أن أجريت له الإسعافات الأولية، أكمل الرجل نومه – كما حدّث – لقد كان نائما حينما وقعت الكارثة، وعندما استيقظ سأل الممرضين: من جابني هنا؟ أجابه الرجل: جاباتك الإسعاف.. أنت كنت في الطائرة الكورية التي سقطت في المطار.

انكتبلك عمر جديد.. دير كرامة.. صدّق على روحك.. كفارة.

– هي الطيارة الكورية طاحت؟...اللي جينا فيها من كوريا؟!

– طاحت والناس اللي فيها أغلبهم مات....والطائرة انحرقت.

– الطائرة انحرقت؟! قول الشناطي حتى هم أنحرقو! يا والله مخطر أحرف.

– شناطي شنو اللي تنشد عليهم ومحيرّنك.. أنا انقولك أكثر من نصف الركاب ماتو وأنت تقولي الشناطي أنحرقو.. طيب فيك أنت ما انحرقتش كيف الناس.

– الشناطي.. الشناطي فيهم الحرير رأس مال أوخيّك.. يا والله نهار أسود.

– نهار أسود عليك أنت؟! ما فيكش حتى خبش أماله نهار اللي جابتهم الإسعاف أطروف.. نهارهم شن لونه؟.. سبحان الله واحد ميت.. واحد أدور في الشناطي والحرير أيقولو: واحد مشنوق أو واحد باله في الحلوى.

– توّ تقول الشناطي ما فيهمش أمل؟.. الشناطي مليانات حرير.

– أنت صار لك في عقلك حاجة؟ بتهبل؟ قول شن تحس؟

– حتى حاجه.. صح ستار.. لكن الشناطي والحرير يخلف الله مشو كلتهم

النار تشور على الرقبة.. سلامتك كبيرة يا ولد عمي.

- باهي وأنا تو ليش قاعد هنا ما دام الشناطي راحو.. أنا بنروح.

- توّ الطبيب يمر وكان قالك روّح.. روح.

وكان الأطباء في حركة دائبة بين الجرحى والأموات منذ الفجر.. يجرون العمليات ويصدرون التعليمات للممرضين بخصوص الجثث التي ملأت الممرات والحجرات ويصنفون الأدوية للمصابين ويضمدون الجراح.

نهض الرجل من سريره وجاء يمشي في حال سوي إلى أحد الأطباء وقال: أنا بنروّح.

نظر إليه الطبيب في استغراب وسأله أنت كنت في الطائرة الكورية؟

- كنت قاعد لا بيه ولا علي.. القيت روحي هنا في المستشفى.. قالوا الطائرة طاحت وأنحرقت والشناطي فيها.. مشو رزق باليك

- تبي خروج ما فيك شيء.. ما تحسش بدوخة؟ ولا وجع في أي مكان.

- ما نحس بشيء.. لكن الشناطي راحو يا والله نهار ؟؟؟

- أمر الطبيب الممرض بأن يمكنه من الخروج مادام يرغب في ذلك.

قال الممرض معلقا: اللي يموت من الشياطين أخفف على الملائكة.. من فجر ربي واحنا في الهم.. جت على ؟؟؟ هاللي ماتو، وباقي هذا صحيح اينقز ما واجعينا غير الشناطي.. سبحان الله الناس ما تحمدش ربي وخرج الرجل من المستشفى.. هاتف أحد أقرباءه، أخبره بأنه كان في الطائرة الكورية - وقد تسامع بها الناس في كل مكان - ولم يصب بسوء.

لكن الشناطي راحو، وطلب من أن يأتي ليصحبه إلى البلدة.

وصل الرجل إلى بيته في مزرعته على أطراف القرية وكانت أخبار الطائرة قد

سبقته.. وجد زوجاته وأطفاله في انتظاره خارج البيت.. بعد أن علموا من قريبه أنه ذاهب إليه وأنه لا بأس به.

- زوجاته وأطفاله: الحمد لله على السلامة.. طيب على هذه الساعة. لكن الشناطي راحو.. مشت الململّه واللي ثمّه.. اللي لمّاته النملة في عام طبه الجمل في فم، قعدنا حبيّي.

- طيب أسلمت أنت.. المال يخلفه الله، والحي بقسمه قالت: أحدى الزوجات.

- قريبه يخاطب أحدى الزوجات: عندكمش خروف باهي نذبحه؟.. اليوم؟ زرده ونهار مبروك: اللي سلمه ربي سيدي العيلة.

- هو: لحق الرش للدلو ما سد راحو الشناطي.. زيد لحق لهم الخروف، مازحاً فالرجل معروف بالكرم والتوسعة على العيال.

بعد أسبوع واحد من حادثة الطائرة جاءت إلى الرجل إشارة من الأمانات في المطار تطلب منه القدوم لاستلام حقائبه التي شحنت خطأ إلى مطار فرنكفوت في ألمانيا.. فقد وصلت الحقائب سالمة كما سلم صاحبها من قبل.. فكان قدرا مقدوراً فيه عظات وعبر لمن يعتبر.. وتمر الأيام، يعود الرجل إلى ممارسته أعماله الزراعية والتجارية كالمعتاد، وتتبدل الأحوال بين يسر وعسر، أفراح واتراح، وضيق وانفراج، وتلك هي سنة الحياة، كان للرجل أصحاب ومعارف، وحتى ندماء في جلسات خاصة.. ذات يوم عنى للرجل أن يستدعي أحد أصحابه المقربين على وليمة أعدها في بيته.. فهو منذ الصباح خطر على باله أن يبني خيمة وسط المزرعة أمام البيت، وأن يذبح خروفا سمينا ويستدعي صاحبه وقد فعل، جاء الرجل الصاحب على عجل فوجده قد أعد عالة الشاهي، ولوازم الجلسة، ولم يتناول فطوره بعد، فهو ينتظر صاحبه بالشواء اللذيذ تعده الزوجات في

البيت.. وما أن جلس صاحبه حتى أحضر لهم أحد الأولاد طبقا من كرموس: تين، فالوقت في بداية الصيف، والتين بدأ ينضج.. أخذ الرجل – ذلك الناجي من كارثة الطائرة – حبة واحدة من التين قائلا: عام قابل، بمعنى فال – عينه – كانت الوحيدة التي أعجبته في الطبق كله.. أكل الرجل حبة التين.. بعد دقائق معدودة أمتد على فراش بالقرب منه، ونادى صاحبه قائلا: اللي في وصل.. خلاص.. خوك هاذي ساعته الدائمة لله.. رحنا من الدنيا وأهلها.

– صاحبه هيا بالك للطبيب.. صلي عالنبي.. ما تخافش ما اهناك إلا الخير

– ما أتعبيش روحك.. أنا عارف نفسي ليام تمّت، خلاص هذا حدها.

اخذه صاحبه إلى المستشفى القريب من محل سكنه، لكن الرجل انتهى.

{فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ...}

هكذا قضى الرجل نحبه في بيته، وعلى أرضه وبسبب حبّة من تين، وهو الذي كان يجوب آفاقا بعيدة في الغرب والشرق، سياحة وتجارة مستخدما في تنقلاته السيارات، والبواخر والطائرات، وكم من حادث تعرض له في حياته حتى حين ذبحوه من الوريد إلى الوريد، قيض الله له من أنقذه، لأن في العمر بقية، وعندما تحطمت الطائرة واحترقت ومات أغلب ركابها، نجاه الله من الموت، ونجت حقائبه من الاحتراق لأنها ذهبت في طريق أخر، ثم استعادها سليمة وكان هو سليما، كل ذلك بترتيب من القدر.

هذه حكاية هذا الرجل الجواب للآفاق، والذي يعرفه أغلب أهل القرية ويعرفهم.

والناس شهود على أحداث وتفاصيل هذه القصة التي حدثت منذ سنوات قليلة، ومازال شهودها أغلبهم أحياء.

عبرة لمن يعتبر

كنا ونحن كمعلمين في المدارس الابتدائية في الخمسينات من القرن الماضي والعشرين.

ترمي بنا الأقدار كيفما تشاء لندرة في المعلمين وقلة المدارس أيضا حيث لا توجد إلا مدرسة واحدة مركزية، ومدرسة أو اثنين فرعيتين في كل بلدة هذا في الحواضر والمدن الكبيرة، وتنعدم أحيانا في القرى الصغيرة ولا وجود لها في الأرياف.

فكان الواحد منا يعين-وخاصة إذا كان مستجدا-بعيدا في قرى وبلدات بعيدة عن موطنه حيث يعيش مبعدا لسنة أو سنتين عن مسقط رأسه أو في بلدة قريبه الغريبة-الزاوية-حيث كانت الولايات مقسمة إلى مقاطعات في ذلك العهد.

توزعت جماعتنا على المناطق الشرقية: مصراته ومنطقتها الإدارية، والوسطى، وجبل نفوسه، وبعضنا ذهب إلى الجفرة البعيدة ومنطقة فزان.. بعضنا في المقاطعة الشرقية كانت مدينة مصراته هي المركز تتبعها كل من زليطن والقرى التابعة لها، والجفره بواحاتها الثلاث: سوكنه - هون - ودان.. كنت وأخي الذي يكبرني وابن عمي في مصراته فكان لنا ابن عم رابع في مدرسة زدو وجماعة موزعة بين الجفرة وقرى أخرى في مصراته وزليطن وقصر حمد والغيران والكادوش وغيرها.. وكنا نتزاور في العطلات الأسبوعية والمناسبات الوطنية والدينية، ولا نعود إلى مناطقنا في الغربية إلا في عطلات الصيف.

تعرفنا فهذه المدن والقرى على رجال أفاضل من أهل التعليم وغيرهم من التجار والوجهاء، وكان للمعلم مكانة وتقدير في نفوس الأهالي، وتبجيلا واحتراما من قبل التلاميذ وأولياء أمورهم.

هذه البسطة الموجزة ربما كانت لازمة ونحن نسوق هذه الحكاية الطريفة التي تتعلق بأحد رجالات التعليم الأفاضل الكبار في ذلك الوقت فى مدينة من مدن المنطقة المقاطعة – زلطين – كان مديراً للمدرسة المركزية هو الشيخ الجليل والمربي الفاضل إبراهيم الصاري، ومن لا يعرف إبراهيم الصاري ابن الشيخ والعالم الكبير الذي يشار له بالبنان، فضيلة المبجل رحومه الصاري.

فكنا حين نزور أقرباءنا المدرسين في زلطين نحن الذين في مصراته نجتمع بهذا المربي الفاضل والشيخ الجليل أحيانا في بيته وكان يكرمنا ويحدثنا حديث الثقافة والأدب وهو أديب وشاعر.

وتمر الأيام، وتتصرّم الأعوام.. تشرق الحياة بالجميع وتغرب.. ذات يوم التقيت بشباب في سني عندما كنا شبابا.. كان ذلك في سنة ١٩٦٦ في مدينة برشلونة باسبانيا وكنا الاثنين في مصحة واحدة لعلاج العيون كان الشاب اسمه مخلوف هذا ما أذكر من اسمه، فالمدة قد طالت ونحن في سنة ٢٠١٥ فعلمت منه أثناء الحديث أنه كان من طلاب الشيخ إبراهيم، وأنه يجله ويقدره كثيرا، وساق لي هذه الحكاية التي أسوقها لكم بدوي، وفيها عظة وعبرة، ونادرة طريفة، قال محدثني:

كنت في ألمانيا – مخلوف – وتحديداً في مدينة بون حين كانت عاصمة لجمهورية ألمانيا الغربية، قال وكنت قد التقيت بالشيخ إبراهيم كان في رحلة علاج.. فرحت به كثيرا.. قدمت له كل مساعدة هو في حاجة إليها، وفي بوم عرضت عليه أن نتناول الطعام معا فلبى الدعوة شاكراً.

قال ذهبت واياه إلى مطعم فاخر يؤمه كبار القوم والموظفين السامين. هيئت لنا مائدة عامرة تتوسط الموائد في الصالة الفسيحة، كان المطعم مكتظا بالحرفاء الذين تعودوا أن يأخذوا طعامهم في ذلك المساء من يوم الأحد.

نبهت الشيف أن لا يقدم لنا الخمر ولا لحم الخنزير.. غفل النادل عن التنبيه الذي أصدره له رئيسه، فاحضر لنا لحم خنزير عن غير تصد ولم يحضر لنا الخمر.. قال: أطمأن قلبي إلى أن توصيتي قد نفذت حين لم أجد قنينة الخمر فهي معروفة بينة خلاف لحم الخنزير الذي يشبه كل اللحم.

قال: أصبنا أنا وضيفي الشيخ إبراهيم من اللحم وأنواع الطعام الأخرى، وفجأة يحس الشيخ بأنه غير مرتاح لما دخل بطنه من طعام فطلب مني أن أستفسر عن نوعية اللحم وقال: يراودني شك في هذا اللحم.

قال مخلوف طلبت من النادل أن يبين لي نوعية اللحم، وهل هو لحم خروف أم عجل أو أي لحم أخر.. أجابني بلغته الألمانية التي لم افهمها.. حاولت أن اطمئن الشيخ لكنه ألح علي مرة أخرى بمعاودة السؤال عن الموضوع.

فما كان من النادل إلا أن أحضر رأس خنزير صغير ليبرهن لي على أنه لحم خنزير من أفضل الأنواع ....فهو صغير السن وسمين، ووضع الرأس على الطاولة وهو يرطن بلغته في نرفزه ظاهرة.. فلما رأى الشيخ الرأس قام واقفا لا إراديا، وقذف ما في جوفه من طعام وبصوت مسموع فوق المائدة.

انتبه رواد المطعم وشاهدوا مشاهدة حية ما حدث، فخرجوا جميعا يتأففون ويزمجرون غاضبون.. فكان موقف محرجا لا يحسد عليه.

ضل الشيخ يفرغ ما في بطنه من كل شيء حتى أصابه الغثيان وأصبح لا يقوى على الوقوف، فأجلسته على كرسي قليلا من الوقت ثم خرجت وأياه تشيعانا أعين الشاف وخدم المطعم الذي خلا من كل زبائنه، ولم اعرف كيف اعتذر للشيخ فكنت أتأسف لما حدث وأطلب منه الصفح لأنني لا أفهم اللغة.. فقال لا عليك وأنا ألهمت الحاسة بأن في الطعام غش عافته نفسي بمجرد أن

دخل بطني.. وحتى أقطع الشك باليقين طلبت منك الاستفسار فكان الذي حدث والحمد لله أنني قذفت ما في جوفي من حرام، وإن كنت سببت لك إحراجا، فهذا لا يساوي عندي شيئا أمام ما حرمه ديني وعافته نفسي.

يقول مخلوف: كان الشيخ نقياً طاهر السريرة والجسد لذلك خلصه الله مما حرمه على المسلم، وفي هذا عبرة لمن يعتبر وموعظة للكثير من شباب المسلمين وخاصة الذيم يعيشون في بلاد غير مسلمين تتناول في طعامها لحم الخنزير. ونحن نذيل هذه الحكاية بأخرى تتشابه معها شكلا وموضوعا باختصار شديد.

حدثني قريب عن قريب كان من العائلة وكان يرعى غنما له في وقت ربيع وكانت لهذا الرجل ورافق جماعة في سفرة قصيرة.. بحيث عاد قبل المساء في أثناء السفر وجد الجماعة شاة قد رقدت في أرض غير مستوية، ولأنها سمينة لم تقدر على النهوض حين انزاحت عنها الغنم فما كان من الجماعة إلا أن انقضوا عليها فذبحوها وأكلوا من لحمها حتى شبعوا ، وتقاسموا ما بقى بينهم، جاء الولد بحصته فأعطاها لأمه، نست الأم اللحم بعد أن وضعته في صينية به دقيق.

جاء الوالد ليلا، بعد أن أدخل نعاجه إلى مربطها، ودخل خيمته فقدمت له زوجته طعامه.. بعد أن تعشى تذكرت ذلك اللحم فقدمته لزوجها.. أخذ منه جزء فأكله لحظات وتتحرك أمعاء الرجل فيقذف ما فيها.. سأل زوجته عن مصدر اللحم أخبرته خبره نادى ابنه سأله عن الحقيقة أخبره بالحق، وأن اللحم من شاة ذبحوها وهي ليس لهم.

قال الوالد: يا ولدي: نحن لا نأكل في بطوننا حراما أنظر ماذا حدث لي، الحمد لله الذي خلصني من رزق حرام، لا تعيدها مرة أخرى الله جعل لنا الرزق الحلال نصيب منه.

الكلب الهبهاب

هذه الحكايات والنوادر والطرائف بعضها معاصرة، عشناها في بيئات مختلفة وبعضها وصلت بالسماع عن طريق المعارف والأصدقاء.. بعض منقول متواتر وبعض حدث في زماننا، كان أبطالها ورواتها معرفون.. منهم من غادر الحياة وآخرون ما زالوا يقرضون أيامهم.

الحاج ميلود – هكذا ننطق ميلود محلياً – كان رجل فكه الحديث يبدع المزحة ويبتكر النادرة ويلم بالطرايف من هنا وهناك، هو من أهل زوارة الامازيغ وهؤلاء قوم مشهورون بحلو الحديث وطريفه، والقول الحكم الذي نسميه «أكبر الكلام» فلان كلامه كبير بمعنى: حكيم في قوله سديد في رأيه صائب في تفكيره، والرجل من معارفي ومعروف لدى كثير من أهل زوراه.. ودائما تجد من يقول: قال الحاج ميلود.. فعل الحاج ميلود.. هو رجل علم.. نقي السريرة، قلبه أخضر كما يقال. ويحادثهم....فمن يعرف ولا يعرف، وأحيانا يتجاوز المباح في غير سوء نية

سؤل الحاج ميلود في هذا الأمر: أجاب: هدير ناقة ومطر صيف بلا ثمرة، ما تاخدوش عليه.

ويقول عن نفسه: أنا زي الكلب الهبهاب.. ينبح على البرّانيات ومولاته ما يكلمهاش.. العبارة لها معنى بعيد وقريب.. هي التورية تلمع في القول، فلا يفطن لها إلا النبه الفطن – نباح لا يؤذي الغريبات أما صاحبته فقد آلفها وآلفته فلا يلتفت إليها – لله در الرجل من مزاح.. ذكره الله بالخير إن كان حيا – ورحمه إن كان وافاه الأجل فقد انقطعت عني أخباره من عشرين سنة.

لحوار

كنية أو اسم رجل من أهل البادية كان يحترف رعاية الإبل ولنقل اسمه أو كنيته اشتق منها: هو ولد الناقة في شهوره الأولى بعد أن يكون سليلا قبل الشهر.. والأسماء والألقاب والكنى في ليبيا مبحث آخر من مباحث الأدب الشعبي والتراث فيه من الطرافة والغرابة الشيء الكثير، واشتقاقته متنوعة وهذا سياق يطول. ربما نأتي على جزء صغير منه على سبيل التذكير، وقد أفردت له مبحثا واسعا ومتنوعا هو الآن محفوظا ينتظر فرصته للطبع بعنوان: «الأسماء والألقاب في ليبيا» فالأسماء والكنى بين أهل البادية تشتق غالبا من البيئة فنجد منها بوشعاله وأبو سدرة والمثناني – بو حلفاية – والقازولي.. ترفاس بورتيمه بوشعرايه والكرمي والزيتوني، وهذه أسماء أشجار وأعشاب، كما نجد أسماء الحيوانات :البركوس، والجمل والجدي والقعود والحوار، بو معزة والنعجة والحصان والكبش والخريف والجحش والعلوش، وألقاب وأسماء أخرى.

وفي الأرياف والقرى الداخلية من أهل الأشجار والخضر والبساتين، نجد بونخيله وبو تفاحه وبوعنبه والخضار، وبطيخ وفلفل.. بوقرعه، ساوط، كرسوس.. كرفاف، بوبو ليفه، والصاري والحجام وشريحه وبو حمار.

أما في الصحاري والقفار.. هناك نجد الكنى والأسماء تشتق من الموجودات مثل: اللفع، والعقرب.. الذيب والصيد والغزال.. الضب والحنش والصقر والباق والطوير والحر والبري.. سراب برق غيث، رعد عجاج وسحاب

وفي البيئات البحرية والشواطئ: يسمون ويكنون البحري والرائس والحوات وموج والشلبي والبوري-من أسماء الأحياء البحرية - والمراكبي بو صنارة والصاري وبوشبكة وغيره.

ومن أسماء أهل الحواضر والمدن: حكومة.. والبي.. التركي، والمدير والباشا والاغا، ومحفوظ، وحميده والفقيي والسنغاز والكواش والحوكي والجزائري أو الحريري والمجار والحداد، من أسماء الحرف.. أسماء كثيرة لا حصر لها يتسمى بها أهل الصنائع والمهن والحرف وما شابه ذلك حكايتنا هذه بطلها: لحوار اسم رجل من رعاة الإبل بالذات: حرفة يحترفها أناس معرفون من أهل البادية، والرجل - لحوار معروف على نطاق واسع في منطقته فهو، رجل صريح جرئ يقول كلمته ولا يبالي وهو من محترفي رعاية الإبل الذين يرعون الإبل لأنفسهم أو لغيرهم.

ورعاة الإبل لهم حيثية خاصة عند أرباب الإبل التي يرعونها لهم.. فهؤلاء مبجلون مكرمون حين يطرقون بيوتهم - أصحاب الإبل - يذبحون لهم الذبائح وفي الأحاديث شطر يتعلق بالإبل وأحوالها ومرعاها ومورهدا وما يتعلق بشأنها الخاص من وسم وفطم وأدوية وما إلى ذلك من شؤون.

لحوار هذا رجل صريح جرئ، فطن لبيب لا يخشى في الحق أحد يقول كلمته في محلها ولا يبالي كما تقدم.

كان في سنة من السنوات يرعى إبلا لشيخ كبير المقام في قبيلته، صاحب ثروة حيوانية كبيرة وله على الناس دالة وبعض الجميل، كان لهذا الشيخ نفر ينافسونه في السمعة والذكر والوجاهة والشهرة وما إلى ذلك من قيم البادية كالكرم والشجاعة والمروة وصواب الرأي.

وكان لحوار ضيفا على الشيخ الذي يرعى له الإبل - أثناء الحديث قبل أن يحضر الطعام لضيوف الشيخ والمقربين منه، ومنهم لحوار وأثناء الحديث وقد تشعب واخذ مناحي شتى بعد أن استفسر القوم عن أحوال الإبل انبرى الشيخ الكبير يعرض بشخص معروف ويذكره بسؤ وللشخص المغتاب حيثية يقدرها الجميع ويشهدون بها، فهو كريم شجاع سباق للمكرمات ونجاّد في الملمات والشخص المعرّض به وهو غائب كان ابن عم لحوار الراعي، فما كان منه إلا أن ثار في وجه الشيخ سيدي الإبل ورد له الصاع صاعين...ومما قال الراعي للشيخ «اللي بيجي فيه اجى فيك» فالشيخ تمنّى للرجل الغايب - ابن عم لحوار: الموت قائلا «الله يعطيه ما يرفعه» ثارت بعد ذلك ثائرة لحوار فاخذ ينعت الشيخ بنعوت لا تليق بمقامه منها: أنت قراض - وتكبر في بيتك زي القرعة - لو كأنك راجل ما تجبد غايب - الراجل يواجه.. القرضة والنميمة صنعه نساوين.. ونهض يريد الانصراف فما كان من الشيخ إلا أن اعترضه وأخذ يطيب خاطره مع الاعتذار وأعانه علي أثناء لحوار عن الذهاب بعض الحضور من الضيوف وهم يرجونه ويطلبون منه الصفح.. ذلك لأن خروجه من بيت الشيخ وهو غاضب يعد سبه في حقه - الشيخ كان لا يعرف قرابة لحوار بالرجل الذي عرض به فأخذ يطلب من لحوار الصفح وإلا يحدث بالواقعة.

وكانت للرجل لحوار مواقف مشهودة كثيرة في الشجاعة وقول الحق والدفاع عنه.

زوارة والعرب

في المنطقة الغربية الشمالية من ليبيا وتحديدا الواقعة على ساحل البحر الأبيض وشرقا تتاضح صبراته والعلالقه وجنوبا منطقة الصيعان عند قدم جبل نفوسه، وغربا الحدود التونسية امتداد من رأس جدير إلى طويل طاهر تقريبا.. هذه المنطقة يتساكن المواطنون من زواره والامازيغ والنوايل والعربان، فالعربان اسم يطلق على كل من: خويلد في منطقة زلطن والحميدات والسعافات وأولاد الشين في الجميل، أما في رقدالين فهناك وريمة، هؤلاء هم العربان، وأن كان في بعض المراجع التاريخية تحسب خويلد فرعا من قبيلة النوايل الكبيرة التي تتوزع بين ليبيا والجزائر وتونس ومصر، على أن غالبية هذه القبيلة تسكن في أرض الجزائر: أربعة ملايين تقريبا –هذا التعداد منذ عشرة سنوات قبل الآن ٢٠١٥م كما أفاد بعض الأخوة من النوابل الجزائريين والعرب اسم يشمل كل هذه المكونات بما فيها النوايل – أما عن سكان هذه المنطقة وإلى أي أصول ينتمون وتاريخ وجودهم، فهذا وباختصار نجد في المراجع التاريخية: أن النوايل هم قوم من بني سليم جاؤا ضمن الهجرة العربية من نجد عبر مصر وكان معهم بني هلال، فاستقر معظم قبيلة بني سليم في برقه ونزج جزء منها إلى غرب ليبيا مثل: المحاميد وأخوتهم أولا شبل وأولاد سباغ وأولاد جارية الجواري والعلاقة والنوايل.. كان هذا في سنة ٤٤٤ للهجرة.. أما زوارة فهم من بقايا قبيلة امازيغيه كبيرة كانت تسكن المنطقة، فلا شك أنهم الأقدم وكذلك السعفات الامازيغية القديمة ثم أن وريمّه اسم امازيغي.. ورغمةّ.. ورشفانه – ورفله، والقائمة

طويلة فهؤلاء أعنى وريّمة والسعفات في المنطقة أمازيغ الأصل تعربوا فيها بعد كما تعربت كثيرا من المكونات الليبية مثل: هوارة.. مليته.. الماية.. زناته تفسات الامازيغي، أما السكان في هذه الأماكن فهم عرب اقحاح الاماندر منهم.

فمنطقة زوارة هذه تضم كل من القبائل الامازيغية: اولاد عيسي – العطاطشة –الدرايسيّة – التلالة.. الرفافرة – أولاد منصور – لقصار – أولاد علي بن زايد –والدبابّة، والنوايل قبائلهم هي: التقاقزة – القمازيز – البحيرات – الرقائصية –العكارته – الوناته – المجادبه – العبابه – يعاقيب الجراجرة وتنقسم إلى ثلاث مجموعات : جراجره مصباح – جراجره كريم – جراجرة مبروك – ومكونات أخرى موزعة بين القبائل المذكورة هم: الربايع – الكلبات – الزمازمة – الرزفه – الدحاره – السنينات وآخرون وريمه قسمان: بن مليت والصوالح.. السعفات: اكرادغية والمصادقة. الحميدات: أولاد نصر.. أولاد عبد الواحد، ثم أولاد الشين، أما خويلد فهم أمجدب والسبانين ومنطقة زوارة والنوايل والعربان إداريا وحدة واحدة تسمى متصرفيه في عهد الإدارة وما بعدها تنقسم إلى ثلاث مديريات: مديرية النوايل ومدرية زوارة، ومديرية العربان كان هذا أيام الاستعمار الإيطالي واعتمدته الإدارة البريطانية وقت الوصابة ثم استمر الوضع في عهد الاستقلال.. هذا من الناحية الإدارية أو الحكم المحلي الذي له علاقة بالسياسة طبعا.

أما من الناحية الاجتماعية فزوارة: أعني السكان هم لُحمة واحدة مع النوايل والعربان تتشابك مصالحهم وخاصة الاقتصادية منها.. بينهم صحبة متبادلة ومعاملات حياتية مختلفة وتكاتف في التجارة والزراعة وهم عون لبعضهم بعض في الملمات والرزايا وكان للجوار في أراضي الرعي والزراعات الموسمية، وفي الغراسات

وحتى السكن في قريتي الجميل ورقدالين، ومنطقة سيدي عبد الصمد، ومزرق السمس والبرقاية أمر بالغ الأهمية من الناحية الاجتماعية – كانت تتزاور وتتعاون في الرعي والزرع والحرث، فقط لا يتزوجون من بعضهم البعض أعني زوارة من جهة والنوايل والعربان من جهة أخرى والنوايل أيضاً لا يتزوجون من العربان والعكس صحيح إلى وقت قريب.. ربما يكون للغة دخل في هذا الأمر، فالغرب لا يتكلمون الامازيغية، وربما لاعتبارات أخرى تحتاج لدراسة أنثربولوجية.

وفي كل الأحوال، أن زوارة، أعني السكان هم أصحاب للنوايل والعربان منذ تاريخ بعيد نسبياً فالروايات الشفاهية تحدثنا أن سبب قدوم النوايل سكان المنطقة الحاليين قدموا إلى المنطقة حين استنجد بهم أهل زوارة على إخراج أولاد شبل من ديارهم كما أستنجد بهم وريمه للتغلب على السعفات بعد هذا التاريخ، فالنوايل عرب من سيماتهم لهذا تجدهم في أماكن وبلاد متفرقة مثل تونس والجزائر ومصر كما ورد في المقدمة وفي العهد القرمالية – الأسرة التي حكمت ليبيا – كانوا يحرصون الحصار:– القلعة – أيام يوسف باشا يحرصون القلعة من هجمات الساحل، وكان يوسف باشا يدفع لهم الإتاوات ثم حدثت بينهم وبين ورشفاته حرب استمرت إلى أن نزحوا إلى صرمان منطقة عقبة.. بعدها انتقلوا إلى زوارة كما سبق وانتجعوا في وادي المقطاع وسموا منتجع العسة – وهذا سياق أخر قد يطول – وما دمنا نتحدّث عن هذه المنطقة في هذه المقدمة التي أنجرت عن حكاية سببها بعض النوادر، تبادلها عربي مع صاحبه الزوارى في حوار خفيف جرى في مناسبات مختلفة، فلابد أن نذكر كيف تحدث أحياناً، بعض المناوشات، وتكون أسبابها في الغالب خلافات بسيطة أو عدم فهم لوجهات النظر تبدأ أولاً صغيرة لا يلتفت إليها العقلاء، باعتبارها أشياء

عارضة وتزول، ولا تعكر صفو الود والصحبة والمصالح المشتركة والمتشابكة بين تلك المكونات: زوارة بمعنى: السكان، وبين العربان والنوايل كما حدث في سنة ١٩٥٨م من صدام كاد أن يكون مسلّحاً لولا ألطاف الله وتدخل العقلاء من الطرفين، وكما في سنة ٢٠١٢ من نزاع مسلح حدث بالفعل وسقط فيه ضحايا من الطرفين نتيجة لانتشار السلاح في يد كل فرد ولسوء فهم وجهات النظر وربما لأحقاد قديمة عند قلةّ من الأفراد بسبب نزاع ١٩٥٨، وكادت أن تغرق المنطقة في الدم لولا لطف الله.. تلك الحوادث التي قال بحقها الشاعر:

«صف النوايل والعرب وزواره   خش بينهم شيطان ولع ناره»

نعم هم صف واحد ولا يزالوا - والصاحب ما إجي مغزى كما في أمثال الشرق الليبي.

الصحبة لا تتحول إلى عداوة - والناس تقول وصاحبك صاحبك ولا يغر بيك خوك وفي ثقافة المنطقة يقول العرب للزوارى: خوي فلان، قبل أن يناديه بأسمه، ويقول الزوارى للعربي: صاحبي فلان.. فلا يعدو ذلك الذي حدث أن يكون سحابة صيف وتنجلى.. صحيح سالت دماء.. والدم كما يقولون غاطى العيب، ولكن المواطنة أو بالأحرى المساكنة والشراكة في أشياء كثيرة اجتماعية واقتصادية وحتى سياسية والصحبة والأخوة التي تحدثنا عنها، كلها معطيات تكفل عودة المياه إلى مجاريها ولا أحد يستغنى عن أحد.. وهم عندما يتقابلون الآن كأفراد خارج المنطقة فإنهم يصافحون بعضهم البعض، ويتبادلون الأحاديث والذكريات وحتى المعاملات، وكأن شيئاً لم يكن. فالزمن كفيل بإصلاح كل خطأ والقلوب تتسامح والنفوس ترضى وتقنع، وتغفر والسخايم تستل مع مرور الزمن، وما زواره والنوايل والعربان إلا تجمع سكاني متآلف فرضه المكان جغرافيا وتاريخا مشتركا، ومصالح واحدة وفي النهاية وطن واحد.

يا بوي أمته نولّو شرفه

الشرفة اسم متداول، يعنون به: الأشراف صحفها اللسان الشعب الليبي، المقصود به من ينتسب إلى الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فهم ذريته من فاطمة الزهراء، الذين تكاثروا وانتشروا في الأمصار من نسل أبناء علي من فاطمة الحسن والحسين، وفي ليبيا أحياء معروفة في طرابلس وضواحيها تعرف بالشرفة مثل: شرفة خلة الفرجان وشرفة بن غشير وشرفة الملاحة كتجمعات صغيرة، وهناك عائلات متفرقة في فشلوم وأبي هريده والمدينة القديمة، وفي شارعي ميزران وأبي الخير، ليست في طرابلس فقط، إنما هناك عائلات كثيرة منتشرة في كل مدينة وقرية وأكبر التجمعات للشرفة في مدينة ودّان بالجفرة، والأشراف من أهل البيت انتشروا في جميع البلاد التي وصلت إليها الفتوحات الإسلامية وفي ليبيا جاء بعض منهم في حملات الفتوحات الأولى منذ حملة عمرو بن العاص التي توقفت عند بلدة صبراته غرب طرابلس التي كانت تحت حكم الرومان في ذلك الوقت بعدها توالت الحملات إلى شمال إفريقيا لعل أكبرها حملة العبادلة التي كان فيها من رجالات قريش المعروفين يسبقهم في الإسلام مثل عبد الله ابن أبي سرح قائد الحملة، وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن الزبير وعبد الله ابن مسعود، وعبد الله ابن العباس وغيرهم فهم سبعة من العبادلة كانوا في تلك الحملة.

ونعود إلى الحكاية التي قيل أنها وقعت في بلدة ودّان والذي طلب من والده هذا الطلب (يا بوي أمته نولو شرفه) هو يهودي من أصحاب المال كان معتزاً

بثروته الطائلة وثيابه وجاهه في الوسط الذي يعيش فيه، وقد نظر حوله إلى ما ينقصه من أسباب الوجاهة والتبجيل والتكريم، فلم يجد إلا أن ينسب إلى الأشراف لما يحضون به من تقدير واحترام ومهابة بين الناس، فهم – الأشراف – مقدمون على غيرهم ومشرّفون بسبب أصلهم الشريف وانتسابهم إلى الرسول الكريم.. فطلب من والده، أو قل تمنى تلك الأمنية.. لكن والده الذي خبر الحياة وعرف قدره وله عقل حصيف وتجربة طويلة، رد على ولده بقوله: «حتى: اموتو اكبار الحومه». والمرجح أن تكون هذه الحكاية قد حدثت في غير بلدة ودّان النائية في قلب الصحراء وتشكل أحدى واحات الجفرة الثلاثة.

فاليهودي وهو من أصحاب المال الكثير الذي جمعه بحذقه التجاري على اختلاف وسائله جمعه من حرف يحترفها اليهودي ونشاط تجاري واسع يكون سبب من أسباب الثراء وحتى مراباة، وهذا لا يتأتى له في بلدة صغيرة كودّان ثم من ناحية أخرى، كيف يكون له أن يصبح شريفاً في بلاد أغلب سكانها من الأشراف؟! سوف لن يجد من يصدقه لو أدعى هذه الدعوة بين القوم، فهم يعرفون أنسابهم لحمة لحمة وعائلة عائلة، وفردا فرداً لكن في مجتمع كبر كطرابلس مثلا وبها أخلاط من البشر والأنساب، ربما يتسنى له ذلك.. عندما يموتو كبار الحومة، كما أخبر والده.

والحكاية يرويها الناس في كل مكان ترد على ألسنتهم كمثال سايد، وقد سمعتها من شيخ كبير سنة ١٩٦٠ في شارع ميزران، حين استقر بي المقام منذ ذلك التاريخ.. كما يلي:

جاء اليهودي الشاب ذات مساء إلى والده الكبير بالسن وهو من أكبر أثرياء المدينة. قال اليهودي لوالده: يا بوي لقد توفر لنا كل شيء من المال والوجاهة

والجاه بين أهل المدينة، وما ينقصنا الآن إلا أن ندعى الشرف – لماذا لا نقول أننا من الأشراف؟ قال اليهودي العجوز لولده: وأمتي يموتو كبار الحومة، قال الابن لم أفهم، قال العجوز: أذهب إلى الحاج محمد شيخ كبير يقاربني بالعمر، هو: يبيع الزيت في زنقة الحمام.. قل له: يبعث لي بزيت قديم للتداوي به.. ذهب اليهودي الشاب إلى الحاج محمد كما طلب منه والده – طلب منه شيئاً من الزيت القديم، أعطاه ما طلب وعاد به إلى والده ووضعه أمامه – تظاهر اليهودي العجوز بمعاينة الزيت.. ثم قال لولده أرجع للحاج محمد، وقل له يبعث لي بزيت أقدم من هذا.. عاد اليهودي الابن.. أعطاه الرجل من نفس الزيت.. رجع به إلى والده، عاينه مرة أخرى، قال لابنه، أرجع وقل له يعطيك أقدم ما عنده من الزيت، هنا لم عاد اليهودي الشاب مرة أخرى طفح الكيل عند الحاج محمد وقال: قل لوالدك، هذا الزيت عندي من أيام جدك شمعون. هنا فطن اليهودي الشاب إلى أن الناس مازالوا يعرفون أن أصله يهودي وجده شمعون كان يبيع العطرية في باب الحرية، فعاد إلى أبيه منكسر الراس، وقال لوالده: الحاج محمد صاحبك قال: هذا الزيت من أيام جدي شمعون.. قال اليهودي الكبير: مازال يا ولدي كبار الحومة حيّين وسيسمع منهم أبناءهم وأحفادهم عن أصولنا وسنبقى يهودا ولا نصبح شرفه أبداً.

عبيد طرابلس

بعض الناس لا تجادله أو تستدرجه في الكلام.. حتما سيتكلم الصامتون.. قد تجد بعضهم لا يرتب الأفكار.. أو ينمق الكلام.. يقول في أعماقه خطأ أو صوابا، فكل إناء بما فيه ينضح، حدثني أحد معارفي من قربتي كان مدرساً عازباً يسكن مع آخرين طرابلس المدينة.. كانا يعملان في أحدى مدارس الدواخل، وكان الطرابلسي منطوياً على نفسه مستوحشاً المحيط، يود لو يجد حيلة تخلصه من الغربة في أسرع وقت.

قال صاحبي: رفيقي هذا جاء إلى تلك المدرسة في بلدات الداخل النائية، يحمل شنطة (حقيبة) بها بعض لوازمه، أهمها مجموعة من القمصان الصيفية والسراويل والبنطلونات، أما أنا يقول صحبي فقد جمعت أشياء في قفة صنعها والدي من سعف نخلاتنا: قمصان نلبسه في القرية وسراويل وجرد وطاقية صوف وضعتها أمي في القفة دون ترتيب.

يقول أستقر بنا المقام في غرفة جانبية خصصت للمدرسين المغتربين، كنا ننام فيها ونجلس ونطبخ، أما الحمام فكنا نستعمل حمامات المدرسة التي يستعملها الطلبة.. اجتمعنا في أول يوم من حياتنا في القرية، بعيدا عن الأهل في تلك الحجرة بعد فراغنا من اليوم المدرسي الذي ينتهي قبل المغرب بقليل إذ كنا ندرس للتلاميذ الصغار: الصف الثالث وما تحته في فترة المساء.

يقول صاحبي: لاحظت أن رفيقي لم يؤدي صلاة المغرب التي دخل وقتها..

قلت له منبهاً: {إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}.. لم ينتبه لما قلت وربما لم يفهم ما أشرت إليه قلت له في تصريح دون تلميح.. وقت المغرب قارب على الانتهاء.. المغرب كما يقولون: ضيف.. لا يطول وقته قم صلى الفرض المفروض.. انتبه إلى أنه هو المعنى بقولي: قم صلّي.

قال: اسّلي هكذا نطق كلمة الصلاة، بألف مكسورة مفتوحة مخففة وسين بدل الصاد. «والله السلي هي فيها نوع من الرياضة.. لكن تسبّب مشكلة».

قلت: أنت مسلم؟

- قال: مسلم.

قلت الصلاة فرض مفروض ومن أركان الإسلام الخمسة كيف تقول عنها مشكلة؟ وكونك قلت فيها نوع من الرياضة، هذا حق.. هي رياضة القلب والإيمان.. ورياضة جسدية لمفهومك للرياضة، وهي واجب عليك القيام به في وقته إذا كنت مسلما كما قلت.

قال: مشكلتها أتكسر تحديدة السروال - البنطلون - غدوه نلقاه (أمكرمش) كيف تبيني نخشي للفصل؟ يضحكوا عليّ الصغار.

قلت وهل ينفعك الصغار في أخرتك يوم الحساب، وأنت الذي عليك أن تعلمهم كيفية الصلاة وأن تكون قدوة لهم.. قال ما نعرفش أنصلي.

بين العربى والزوّاى

في منطقتنا: زواره ألفة الجميل ورقدالين وزلطن وماجاورهم، يتساكن الأهالى متجاورين وبينهم شركات فى الأرض والأملاك وفى التجارة، والزراعة وقت الحرث والزرع، وبينهم علاقات اجتماعية مترابطة: صحبة ورفقة وتكاتف وتازور، يتعاونون فى شتي مناحي الحياة ويتزاورون فى المناسبات، وبينهم المعاملات المختلفة وصلاتهم متجددة، بحكم الجوار والجغرافيه والتاريخ المشترك وحتي الثقافة: العادات والتقاليد والعرف وكثيرا ماتقع الحوارات بينهم، وحديث التندّر والفكاهه، والمواقف والحكايات.

العربى: يقولي للزواري: ياخوي فلان، هكذا حين يناديه ويفتح معه الحديث في الشأن العام والخاص والزوارى بدوره يقول للعربى: ياصاحبي فلان، ليس بينهما مشاحنة ولا بغضاء، وهكذا كنا نعرف ونسمع من الاولين، ونحن فى هذا المجال لا نلتفت ولا نشير إلى ما يحدث أحيانا من سؤ فهم يتطور إلى أختلاف وجهات النظر قد تعكر صفو العلاقات فى بعض الحالات لكنها سحابة صيف سرعان ماتنقشع.

وهنا نشير إلى مواقف وحوارات وأحاديث سمعناها كانت قد وقعت بين الاخوين العربى والزوارى تناقلها الرواة على سبيل الفكاهة والتندّر.

قديما زار العربى اخوه، الزوارى فى محل سكناه: بوبصلة على شاطئ البحر حيث المياه السطحية العذبة التى تزرع عليها الخضروات الصيفية الموسمية

كالطماطم والفلفل والبطيخ وغيرها وكانت بينهما شراكة فى مزرعة زيتون فى قرية العربى، وفى وقت الزراعات الموسمية يتشاركان أيضا.. حضر الطعام فكان: عيش بالطماطم الاخضر ــ العيش فى المنطقة يطلق على البازين المعروف ـ العربى وقت قارب على الانتهاء من الاكل: وقد لاحظ الزوارى أن صاحبه أصاب من العيش نصيب كبيراً قال العربى: الطماطم لحضر: أوباالعيش يا خوى بدروش.

الزوارى: وأنت أوباهم لتنين يا صاحبى دو.

هكذا جميع الامازيغ ينطقون التاء الثلاثية: تاء والضاد المعجمه: مهملة.

ضحكا الاثنان من دعابة الزوارى، فبينهما المزاح وفكهة الحديث، غير أن ضو شعر بنوع من التعريض به عندما قال له أخوه بدروش: أنت أوباهم لتنين بمعنى لا تبقى عليهما وبشكل مبطن: أنت شخص اكول أتنفط ضحكة ضوء وظهر كأنه يريد التوقف عن الاكل.. فقال له أخوه الزوارى كول يادو العيش في خابزاته أختك تليمكماس بيدها، وهنا تظهر ثقافة المنطقة كما تقدم والعربى يقول السنه هاذى أجمالنا متقوّيات.. ماذا بينا نلقو لهم رجّاله باهيين يحرثوا عليهم.

قال الزوارى: الباهين يحرثو على جمالهم وأنت ما أجيلك غير الدايع وخوه.

الدجاج صنعة ولايا

الحاج غيث شيخ له مقام في قومه، هو وجه القبيلة، كريم جواد صاحب معروف وذو مرؤة، له راي وكلمة مسموعة بين أهله وعشيرته، كان ينتجع في سنة من السنوات ناحية من منطقة الجفاره الغربية، وكان الوقت ربيعاً والعام خصباً، تلم على بيوته أبله واغنامه الكثيرة في الليل وتسرح في النهار هو يتصدى للسابلة من الناس يطعمهم، ويكرم الضيوف عندما يحلون ساحته، فالرجل مقصداً في كل وقت.

ذات يوم جاءت اليه لجنة من موظفي مصالح الزراعة، مكلفة بحصر المواشي التي يملكها كل فرد في المنطقة كما تجرى العادة بعد وقت من الزمن... اللجنة التي تكلف بهذه الإجراءات هي من موظفي المصالح المختصة بالشئون الزراعية، وغالباً ما تكون من أوساط شعبية مختلفة منهم البدو، والحضرى... الفطن ؟؟؟ ومن عنده قصور في الفهم أو يجهل ثقافة أهل البادية. ومنهم الذكي الحذر الذي يحترس من الوقوع في المزالق والاخطاء، يحسب للناس اقدارهم، ويعرف أعرافهم الاجتماعية وعاداتهم، وهناك من لا يفطن لمثل هذه الأشياء فيتصرف بغباء، وعن حسن نية دونما ينتبه إلى ما يجرح الشعور ويمسى الكرامة، فيحسبه من يخاطبهم أو يتعا مل معهم كمن يرتكب منقصة في حقهم وتقليلاً من شأنهم- وهو في الواقع غافلاً غير قاصداً- وهذه لجنة قصدت ذلك الشيخ المبجل كما قدمنا، وكانت معها سجلات مبوبة على شكل خانات كل خانة

خاصة بأسماء مقومات الثروة الحيوانية لكل فرد... هناك مثلاًك خانة بها اسم عدد الابل، وأخرى خاصة بالاغنام، والخيل والبقر والارانب والدجاج، الخ...

هذا هي السجلات معد في بشكل عام ولجميع المناطق والافراد بصرف النظر عن من يربى الإبل أو الدجاج وغيره.

أدخل الشيخ غيث ضيوفه إلى بيت الضيافة... خيمة عادة تكون بعيدة نسبياً عن بيت الشيخ وأولاده... قدم لهم الطعام كضيوف مبجلين : خروفاً مطبوخاً (مسلان على عادة أهل البادية) بعد الفراغ من الطعام أخذ أحد الأعضاء يطلب من الشيخ أن يسمّي له عدد ما يكسب من حيوانات... كانت اللجنة تتكون من ثلاثة أشخاص موظفان والسائق، و لأن أحدهم من أوصول بدوية وقد تذرع لصاحبه الحضري بأنه سيقوم بانجاز ما أحصاه من حيوانات عند أحد الموالة السابقين، وطلب من صاحبه أن يقوم باحصاء حيوانات الشيخ وهو يعرف أنه ساق صاحبه إلى مطب لا تحمد عقباه.

سأل الموظف الشيخ: كم عندك يا شيخ من الأبل؟ أجاب الشيخ بما يملك من الأبل. .. سأله مرة أخرى عن الأغنام فأجاب، والخيل وغيره، إلى أن وصل إلى الخانة المطب، وصاحبه يسرق النظر اليه وينتظر المفاجأة... قال الموظف الحضرى المسكين: قد اش عندك من دجاج يا شيخ؟ انتفضي الشيخ: دجاج؟!! شنو الدجاج هذا؟!.... دجاج أنا نربي الدجاج؟... صنعة الولايا... والله لوما يعدوها الناس منقصة على... تو نعرف باش انجاوبك وغضب الرجل غضباً وضل يردد... دجاج ... أنا عندى دجاج... ذاب الرجل والموظف خجلاً وكان صاحبه يكتم ضحكة وهو محرجاً أيضاً... والشيخ يكرّر: دجاج صنعة الولايا..

خوذ نصفك ولا تلحقني لا نلحقك

وبعض الناس تختلط عندهم حسن النوايا بالسذاجة والغفلة، وقلة التجربة والخبرة وأيضاً حسن الظن وعدم ادراك كنه الأشياء والمسميات على وجه الحقيقة والدقة، وأحيان يكون الجهل وتواضع المعرفة والثقافة.

هذه عجوز من البادية، حدثنا عنها معاصر وهي، كانت طيبة المعشر ودودة متسامحة كريمة وكان لها عشرة أولاد أكبرهم الأبر بها وهو الكافل لها تعيش في كنفه بعد وفاة زوجها، كانت للعجوز نعجات تركها لها زوجها، يرعاها أبنه ويتصرف فيها، وحين يسوق انتاج ما يملك من إنتاج اغنامه وخراف وسمن وصوف كان يسوق لوالدته انتاج نعاجها وذات مرة بعد أن تسوق وباع... جاء فدفع لها ثمن خرافها: عملة ورقية: خمسة ورقات من فيئة الألف بالعملة القديمة- في أيامها- ثم دفع لها ورقة أخرى قال لها هادى نصفها لك ونصفها لي.... أخذتها منه، وهي غير راضية وقالت: (ديما يا حميده ولدى وأنت مشاركني) ومزقت الورقة نصفين، وقالت: خوذ نصفك ولا تلحقني لا نلحقك أنا يا كبد روحي تعرفني الشركة ما نبيهاش.

- لاه يا أمي هاذى لاعا د تنفعني لا تنفعك.

- النافع ربي... الشركة تركة يا كبدي.

وأخرى وكانت الأيام شاتية وهي تتحلق وابناءها وأبناء اخيها حول موقد النار. نظرت إلى الامطار تهطل والرياح عاصفة من حولهم، وقالت تخاطب من

معها: أنا كان كان أنموت في الشتاء... القبر يبدأ أمطّل بريكته يا ودي.

وأخرى قيل لها قداش عمرك يا عمتي مريم؟ قالت: ٦٠ والا ٢٤- قيل لها كيف يا حاجة شن جاب ٦٠ ل ٢٤ قالت الضراري وأحد يقولى عمرى ٦٠ واحد يقول ٢٤، وكان التاريخ الذي سؤلت فيه هو السنة ٨٤، وهى من مواليد سنة ١٩٢٤ فأحد أولادها تسمعه يقول أمى من مواليد ١٩٢٤ فتضن أن عمرها ٢٤ ولآخر يقول أن عمرها ٦٠ سير يطرح ٢٤ من ٨٤، وهى تسمع ٢٤ و ٦٠ لذلك كانت أجابتها صادقة في الحالتين وعلى نيتها في الحالتين. و رجل يسأله واحد من معارفه، وهو يعرف أنه رجل بسيط لا يعرف شيئ من قوانين الطبيعية، فهو يعرف أن عمره قد طال وأنه صحيح معا في لا يشكو مرض ولا علة سأله الرجل يا عمى فلان، أنت عمرك الآن لابد في المية رد الرجل على نيته الطيبة: ميّي يا باب ميّي تائب لله أنا تو من الميتين غادى.

من أقوالهم

القبائل المتجاورة تتنافس فيما بينها في جملة من مناحي الحياة، أحياناً تكون المنافسة في الشجاعة والنزال، وأحياناً في الثقافة والوعى، والمعرفة والفطانة، وفي قيم أخرى كالحلم والمرؤة، وعمل الخير والمعروف والفضل، وفي النجابة والحذق والذكاء وصواب الرأي، فنجد كل قبيلة تنافس أخرى، واحياناً تكون بينهما، المنازعات، وحتى الثأرات والاحقاد. فتصنف كل قبيلة غريمتها في صف الأعداء أو على الأقل يكون بينهما التنافر وعدم الارتياح، فتجد كل واحدة ترمى الأخرى نبعوت الدونية والضعة والهوان، وتسمها بالجهل والغباء والقصور في الفهم، والبخل والجبن وما إلى ذلك من انتقاض في القيم والأخلاق. يكون هذا الحال بين مدينة وأخرى تنا فسها... عادة تكون مجاورة، أو بين منقطة ومنطقة، وحتى بين فرد وفرد يكون هذا بين أهل المدن والبادية على السواء ومن النعوت التي يطلقها أهل المدينة ويتنذرون بها على الشيخ في البادية وهو الرجل المفترض فيه النباهة والمعرفة وصواب الرأي، الأمر الذي جعله شيخاً يرأس القبيلة في البادية ويسوس أمرها ويفرض عليها رائه وكلمته كما يعتقد سكان المدن... ونسوا أن الأمر عند أهل البوادى هو: شورى بينهم: (الميعاد) فلا يقطع برأى إلا إذا تشاور القوم واجمعوا الكلمة.

وعلى كل حال فالموضوع مجرد نادره في هذا العرض السريع... نادرة يطلقها أهل المدن على شيوخ البوادي وليست حقيقة واقعة، فأهل البادية من

الفطنة والنباهة بمكان يقول أهل المدينة: بعث الوالى في زمن الحكم التركى إلى شيخ أحد القبائل برسالة طلب فبها جمع الميرى (الضرائب) فلما نظر فيها الشيخ قال للوجهاء وأهل الرأي في جمعه.... أحسبو الحروف المستقيمة- ثم أحسبوا المعوجة أيهما أكثر حسبوا الحساب وجدوا المعوجة تفوق المستقيمة بكثير... قال لهم الشيخ الوضع غير مطمئن... وغدا يكون ا لارتحال وأرتحلت القبيلة فتوغلت في الصحراء وراء بحر الرمال وبذلك نجت القبيلة من دفع الضرائب وردت النكتة على أهلها.

نقول في أمثالنا الشعبية: (اللى يخدم صنعة أطيعه) بمعنى كل من يحترف حرفة ويخلص لها لابد أن تطيعه وطاعة الحرفة لمحترفها: حين يخلص لها ويحذقها ويختبر دقائقها... تكون له السيطرة عليها وتصير سهلة ميسورة طيعة في يده، يتغلب على كل شئ يعترضه بشأنها.... النجار مثلاً يعالج عمله بيد خبيرة وعقل واعى بدقائق عمله فيتقنه ويصيب النجاح... والبحار يعرف أين يضع شباكه وكيف ينتشلها من البحر ويجنبها تيارات الأمواج، بدراسة الموقع وخبرته البحرية الطويلة ومرانة على الصراع مع البحر، والمزارع الخبير يلم بمعارف البذور، والغراسة والسقايه والتسميد وكل ما يتعلق بالنبات والزرع على اختلافه، ليجني محصولاً وافرا وكذلك الراعي له خبرته وثقافته ومعارفه بخصوص الرعاية والرعي.

تتعدد الحرف والصنايع، ولكل صاحب صنعة أو حرفة حكايات ونوادر وطرائف من القول والعقل تتعلق بصنعته أو حرفه.

هذا رجل (ذكار) والذكار هو الذي يحترف الذكاره أي تلقيح النخيل: يأخذ من حبوب النخلة الذكر- وفي النخيل ذكور وإناث- ويضعها وسط طلع

النحلة الأنثى فيكون الاخصاب، ويأتي الثمر غلة سليمة، وبدون الذكار أو التذكير كما يسمون عملية التلقيح، يصير البلح صيصاً لا فائدة منه.

والشخص الذكار هو الذي يصعد النخلة وقت التذكير في شهري مارس وفبراير عادة، ومرة أخرى في أكتوبر وسبتمبر حين ينضج البلح- وقت الجنى- وقد جرى العرف أن يحصل الذكار على أجره عرجونا واحداً مما تنتج النخلة يختاره بنفسه في بلدتي حين كنا صغارا، عرفنا رجلاً اسمه- بن مخلوف- كان من أشهر الذين يحترفون هذه ا لحرفة، فكان لا يتهيب صعود أية نخلة مهما علت وطالت في السماء أو أخرى ذات معوقات: كر ناف أو اشواك، ومن أقواله التي حفظتها عنه الناس يقول النخلة كان رفعن النهار وردني نرقاها... بمعنى إذا كان النهار بطوله يكفيني لصعود النخلة والعودة قبل حلول الظلام، فهي لي وأنا لا أخافها أبداًن وهي سامقة في السماء تطاول السحاب.

شرع مهيري

أمهيري: أسم أو لقب لرجل وجد في زمان ومكان لا يهمنا تحديدهما، بقدر ما تهمنا ا لحكاية لطرافتها أو كيف تفتّق ذهن صاحبها عن حيلة أو ابتداع حفظ به حقه، حين كاد أن يضيعه ظالم محتال.

أمهيري قيل أنه باع خرافا في السوق الأسبوعية التي ترتسم في المنطقة قبض ثمنها ذهبا، العملة السائدة في ذلك الوقت: مجيدي ومحبوب وخروبه وغيرها قصد أمهيرى حانوتا لأحد اليهود يبيع الذهب والفضة، فاشترى قلاد من فضة ودبلجا لزوجته.... طلب اليهودي ثلاثة ذهبات ثمنا لتلك المقتنيات الفضية، دفع أمهيري لليهودي الثلاثة ذهبات، استلمها ثم غافل الرجل ووضع واحدة من الذهبات في فمه وطالبه بها... قال أمهيري: أنا دفعت لك ثلاثة كما طلبت قال اليهودي دفعت لي ثنتين فقط، هي في يدى لم تدخل جيبي بعد... حدث بينهما جدال وخصام، ذهبا على أثره للقاضي ليقضي بينهما.

عرضا عليه الموضوع... قال القاضي: البينة على من أدعى واليمن على من انكر قال اليهودي يعيش شيدى يحكم بحق الشرع ولا غير الحق.

قال القاضي لليهودي أنت المنكر: عليك أن تحلف... حاضر شيدى واليهودي حلف بكل يمين، فهو لا يؤمن باليمين... وكما يقال (حلف شمعون بالطلاق، ... حلف اليهودي منكراً أستلم ثلاثة ذهبات- وقال استلمت اثنتين فقط ها هما في يدى وعرضهما على القاضي... قضى القاضي لليهود، ولم يستطع أمهيري أبراز

البيئة. قال مهيرى هذا هو الشرع؟! إجابة القاضي نعم لا بد لك من البينة.

قال أمهيرى: ما رائك أن تبرز البينة عن طريق شرع مهيرى؟ قال القاضي: المهم أن تكون البينة بارزة ظاهرة للعيان.

كان مهيرى يخفي تحت ثيابه عصا: (زقيه قصارى)- من عود سدر قوى، سحبها بخفة البرق وضرب بها اليهودى على عنقه: (العرق، كما يعرف مهيرى.

قذف اليهودى الذهبة من فمه من شدة الضربة التي أثرت في اعصابه فارتخ ى شدقه وكاد أن يقضى عليه، وقال للقاضى: حق يا شيدي... حق يا شيدي دفع لي ثلاث ذهبات... تعجب القاضي من تصرف مهيرى وحيلته الناجحة... صارت بعد ذلك الحادثة حكاية طريفة ينتذر بها في المجالس، وذهبت مذهب المثل.

الشحيح

الشحيح صفة مشتقة من الشح، والشحيح هو الممسك، وصف مرادف للبخيل الذي لا يمنح ولا يعرف البذل، وهو أبعد ما يكون عن الجود... لا يجود بشيء حتي على نفسه ومن أوصافه في اللهجة المحلية: اليابس.. الجلد، القفر: تصحيف كلمة قفر العربية، فهو: مقفر، لا شيء فيه ولا يرجى منه عطاء، ومن أوصافه أيضاً: العراكة، المريتة إيده مكمشه، جيبه فيه عقرب إلى آخر الأوصاف، وهو مذموما مدحوراً لا يحبه أهله بل يكرهونه ويتمنون موته، ومن المفارقات تجد البخلاء في الغالب أصحاب ثروات، وأموال طائلة، و كلما زاد مالهم، زاد شحّهم وبخلهم... في هذا الموضوع تحضرني نماذج، أعرفهم بالاسم ولا أسميهم، فلا فائدة من ذلك للقارى وستراً لهم، فنحن ليس بأوصياء عليهم، والله جل وعلا يخلف المنفق ومن يقدم لنفسه وأهله الخير.

(وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً)

أعرف واحدا منهم- البخلاء- كنا زملاء دراسة في المراحل التعليمية الأولى ثم تفرقنا بحكم الظروف، والتخصص والوظيفة وحتى مكان العمل... بعد سنوات التقينا صدفة عر فت منه أن يدير مكتبا للمراجعات والحسابات القانونية، وأن أغلب الشركات في المدينة التي هو من سكانها، تتعامل معه بصورة خاصة، ونصيبه من حساباتها ومراجعاتها القانونية نصيب الأسد مع منافسيه من العاملين في مهنته... يقال أن له علاقات خاص ة مع موظفين كبار في جهات لها

علاقة بعمله: ينفعون ويستنفعون، لذلك كان مكتبه يكسب مبالغ خيالية، حتى أصبح: أكثر من مليونير منذ أكثر من ثلاثين سنة... وكلما زاد ماله زاد الشح في قلبه، ومسك يده، وجمع المال وعدّده وكدسه، وبخل على نفسه، وهكذا هم دايماً البخلا يجمعون المال ويكنزونه خوفاً من العوز والحاجة، وهم في حاجة وعوزن شعارهم (القرش الأبيض لليوم الأسود) وأي يوم أسود يتوهمونه قادم وهم فيه يقترون على عيالهم ولا يتمتعون بما أفاء الله عليهم، وكان هذا منهم... خبّرني قريب له وصديق له، رجل ميسور الحال كر يما جوادا، يعشق السياحة والسفر، يغتنم كل فرصة للتفرج على بلاد الله الواسعة قال: ذات مرة التقيت به- الشحيح الذ قدمنا له- التقي وإياه في بلاد أوربية- هو لا يسافر الأجر يا وراء عمل (بزنس) ودايما على حساب الشركات التي يراجع لها حساباتها... قال صديقي ترافقنا لمدة أسبوع في أحدى العواصم التي تر تفع فيها المعيشة وتكلف مبالغ كبيرة، وكنت أنا الذي أدفع له ثمن اقامته واعاشته، لانني أعرف شحه على نفسه، هو لا يدفع ثمن قهوة على سبيل المشاركة أو المجاملة، وكنت، أتبسط معه: وأركب عليه) اتخذه مادة للمزاح الثقيل أحياناً، هو لا يهمه ذلك ولا يحرك له ساكنا ما دام لن يدفع، كنت أقول له: أنت جلد... عراكه... ما تتحشّمش- قشرتك غليظه... نحاستك ما تسخنش... كان يضحك ببرود ويقول: خرف للصبح، المهم أنا ما ندفعش... يا أخي جيبي فيه عقرب... تبيها تلدغني الموت؟!

يقول صاحبي: في يوم قال لي قريبي البخيل: اليوم سأدفع أنا كل مصروفنا وأنت ما عليك الا: تأكل وتشرب ما تشاء.

قلت اليوم والليلة ٢٤ ساعة كاملة... هذا هو حساب اليوم.

قال ٢٤ ساعة كاملة... أنا موافق.

قال: أردت أن أعوده على الدفع، ويحس بقيمة العطاء والبذل، ويترك الشح والبخل، هذه الصفة التي التصقت به وعرفه بها الناس.

قال محدثي: خرجنا من الفندق فجلسنا أولا في منتدى راق يؤمه كبار الأرستقراطين والأثرياء، ولأن المكان خاصا، وعلى درجة عاليه من الأبهة و الفخامة، ولا ننالا نشرب المشروبات الروحية بطبعنا، فقد طلبت قهوة له ولي وكريم كراميل.

قال لى في شبه احتجاج: لماذا الكراميل ألا تكفى القهوة؟!

- هذا تقليد للارستقراطين... أنت هنا في أرقى منتدى في هذه المدينة.

- لابد السعر -ببندقة على العبد- عبارة تقال حين يكون الثمن مرتفعاً جداً.

- هنا ما إببعو القهوة والآ الطلبات التي تطلبها هنا يباع المكان.. الجلسة هنا تساوى فلوس.

- وأنا شن نبى في الجلسة الجلسة في الفندق ببلاش.

- أنت هنا تعيش الحياة... ترى الـوجـوه... تعرف سلوك ا لناس وتصرفاتهم... حتى ملابسهم وأحاديثهم، هي معرفة وثقافة.. الكراسي التي تجلس عليها فيها ذوق رفيع، وهذه الورود والمنظر العام الذي يطل عليه المنتدى هو شيء جميل يستحق المشاهدة، وبالتالي يستحق دفع فلوس.

- هذا اللى أحنا خائفين منه... كل شيء فلوس.. أقصد دفع فلوس.

- ألست انت من يجمع الفلوس ويجرى وراءها في كل مكان؟! تريد أن تقبض ولا تدفع؟!

الدنيا أخذ وعطاء... يا أخي امرك عجيب والله.

– أنا ما نيش عارف باش تطلع ها القهوة، وها الكراميل اللى معاها؟

– تو إجى القرصون وتعرف... أحنا اتفقنا الليلة تدفع وتسكت.

– اتفقنا لكن الحاجات الزايده ما ليها شيء لزوم.

– لا ليها لزوم... قصدك الكراميل؟ هذا برستيج.

– البرستيج بالفلوس؟!

– البرستيج أغلى حاجة... كان تبي الوجاهة والفخامة والجلوس مع الاكابر.

– باهي نادى القرصون انخلصوه ونشو يمكن حتى الفلوس اللى في جيبى ما يسدّوناش.

– ما فيش مشكلة، وقع فقط، والفاتورة تمشى للهوتيل، ما تشغلش بالك.

– نوقع وليش ما نوقعش... قداش بيجي الحساب... زوز فرنك سويسرى هذا حدها ٢×٢=٤ ندفعهم مش مشكلة.

– قلتلك ما تدفع شيء، وقع الفاتورة وبس.

وجاء القرصون وقدم الفاتورة على طبق معد للغرض مع بطاقة تحية للحرفاء الجدد، الذى لاحظ المدير أنهم لأول مرة يزورون المنتدى.

بعد ذهاب القرصون، خطف البخيل الفاتورة ونظر فيها، فكاد يصعق... وجد سعر القهوتين ٢٠٠فرنك والكريم كراميل ٥٠٠ فرنك، كاد أن يصرخ في وجه صاحبه، لكن قال بصوت غير مسموع لمن بجوارهما.. خذيتني.. فلّست بيّ... هاذي خنبه هاذي ضحكة... مش معقول ٧٠٠ فرنك في تقعميزه عشر دقايق.. وأنا نشرب في القهوة بتاع الهوتيل ب ٢ فرنك.. لابد نشكو للبلدية... هذا مش معقول هاذي جياشه.

- كملت؟

- شن كملت... هم كملوني... ما خلو على شيء... اللى في جيبي ١٠٠ فرنك وهم يبتو سبعة... مش معقول: خنبه عيني عينك.

- شن اتفقنا بكرى؟ مش قلت اليوم أنت بتدفع كل شيء والا ندمت؟ ما تزعلش أنا ندفع... لكن راني بنخبّر بيها في لبلاد.

- أنا قلتلك ما عنديش خاطئ ١٠٠ فرنك... أدفع أنت وبعدين نردّهم لك لكن العشاء ما ناش متعشيين بره... يا أخى أنا حسنى شبعت من هالكار ميل.

- أما أنا بنتعشي وبيناخذ اللى نبي أنت تعرف أنا الخمر ما نشربها شيء لكن الماء والمشروبات الغازية كانش بطني ما تحملش.

- انتى كول وأشرب... أنا لاشارب ولا واكل.

قال محدّثي: وذهبنا إلى الفندق دخل البخيل غرفته وضلّ يتصل بالشركات، ومكتبة في سبيل السعي وراء المال الذي عنده منه قناطير مقنطرة، حتى ادركه النعاس فنام إلى الصباح.

أما أنا قال الرجل فقد دخلت المطعم فتناولت عشاي، وبالمصادفة كانت هناك حفلة في صالة الرقص يقيمها الفندق ليلة كل جد... كانت الصالة عامرة بالشباب.

بعد العشاء نزلت إلى الصالة فاخذت ركنا فيها، وجلست... أنا لا أدخن ولا أشرب طلبت قهوة وقنينة ماء معدني... أخذت أرقب أولئك الشباب من كل الجنسين يتناجون مرة ويرقصون مرة أخرى، وهم في فرج وبهجة مقبلين على الحياة بآمال عراض، يعيشون يومهم، وليس المال عندهم الاّ من أجل العيش والحياة لا من أجل تكديسة، والحرمان منه كما يفعل صاحبي الذي نام ولم يتعشى... المال وسيلة وليس غاية في حد ذاته، هو للصرف في أوجه المعاش وليس للتخزين في الخزائن والبنوك.

يقول الرجل: جاتنى فكرة قمت ونفذتها على الفور... قصدت الكنتوار، وكان يقف وراءه نادل يلبي طلبات مجموعة كبيرة من الشباب والشابات.. يقدم لهم المشروبات الروحية على اختلاف طلباتهم... قلت له أنا أحتفل بعيد ميلادي هذه الليلة وكل ما يشربه هؤلاء الشباب هو على حسابي.. سجله في فاتورة على الغرفة رقم ٢٠ (وأيضاً ما يشربه جميع من في الصالة إلى أن تنتهى السهرة والرقص... بعد ذلك أخذت الميكرفون من أمام الجوق العازف، وأعلنت للجميع أن المشروبات التي يشربونها هذه الليلة هي على حسابي الخاص بمناسبة عيد ميلادي، وقد أبلغت النادل بذلك فاشربوا ما طاب لكم من ثم جلست في ركن اتفرج على الشباب يرقصون يعانقون الحياة. في الصباح وكنا مسافرين إلى مدينة أخرى فوجئ صاحبي بفاتورة الليلة السابقة. هاله الأمر كاد أن يغمي أمام موظفي الاستقبال... أراد أن يتكلم فلم يطاوعه لسان أخذته على جانب وأجلسته في البهو بعيداً عن مكتب الاستقبال.. عاد إليه وعيه... خاطبني! ما هذا؟!! للحق كان ا لمبلغ كبيرا أنا أعرف ذلك مسبقاً، لأن الحضور في صالة الرقص في تلك الليلة كان كبيراً أيضاً... لم أجادله قلت له هذا الذي حدث لقد تكرمت باسم بخلك الشديد، بأن أذنت لرواد الصالة البارحة من الشباب بأن يشربوا نخب سعادتهم... لقد كانوا يعيشون الحياة... يقدرون قيمتها يغرمون. بها يأخذون نصيبهم منها... أما أنت فقد حرمت نفسك حتى من العشاء وأكتفيت بقهوة وكريم كارميل... يا أخى ما هذا الشح القاتل... ضل صامتا لا يجيب.. قام وذهب إلى محاسب الفندق، وأمره أن يوزع الفاتورة على عدد الليالي التي أقامها في الفندق، عاد وأخبرني أنه تصرف فوزع المبلغ على أيام الإقامة وستتكفل أحدى الشركات بتسديدها.

قلت له: أضفت إلى صفة البخل فيك صفة أخرى هي: التدليس والتزوير أكل هذا من أجل أن يدخر المال؟!... ماذا ستصنع بالمال بالله عليك؟ وانت محروم من كل شيء. قال: نفس لا تطادعنى أن أبذر مال كما فعلت أنت البارحة يقول المثل: ودهان قزونه من عكة بوها) وجدت في فرصة فاستغليتها، أهي شماته في؟؟ علاش تصرف على صعاليك وسكارى... لو خليت الفلوس اللى صرفتهم رانا صدقناهم.

- أنت تتصدق؟!! أنت تعرف الصدقة؟ أنا عارفك ما تصدقش ولا تخطر على بالك الصدقة... من الصدقة على الناس، غير صدق على روحك... على بطنك صحيح البخيل حارس على مال ليس له فيه صيب.

قال محدثي: بعد ذلك افترقنا. ذهبت أنا لاتمام برنامج زيارتي وعاد هو سريعاً إلى الوطن ليستأنف جمع المال.

لا فاري لسود

شخص اعرفه معرفة تامة، كان مرحاً يحب الحياة، مزّاحاً ضحوكاً مستبشرا خيراً دائماً. كان يحمل رتبة كبيرة في سلك البوليس والشرطة، حين كان في البلاد بوليساً أيام العهد الأسبق فنحن أصحاب عهود ثلاثة: آني وسابق وأسبق- الرجل لين الجانب سمح ومتسامحاً محباً للآخرين، ودودا كريماً بشوشاً.... قيم كلها تضاد ما يكون عليه رجل البوليس عادة، ولتكتمل صورة الرجل خلقة وأخلاقاً، أقول: الرجل وضيء الوجه دمى، قوى البنية، معافي الصحة، وكان في ذلك الوقت في ريعان الشباب الرجل متزوج من أمرأة شقراء جميلة من بلدته في الدواخل. انجبت له ولدا واحداً وثلاث بنات كانوا جميعاً على جانب من الجمال، خاصة البنات، فهو- أبوهم- ينعتهم بالروميات، كذلك الولد سبطا فارع الطول وسيما إلى حد كبير.... وعن الرجل حين تسأل عن سر جمال بنانه، ولأنه سمح ومزاح، مع الخلص من اصدقاءه ومعارفه، كان يقول: (منين تغرس منين تأكل) ويضيف عندك حق ماريتش أمهم. الرجل يتحدث بمزاح برئ وفي حدود الحرية والمحافظة، فهو كما قلت سليم النية محب للحياة في سنة من سنوات أوخر العهد الأسبق، طلبت مصلحة البريد- حين انتشر التعليم بين البنات- موظفات للعمل على مقسمات الهواتف، فكان أن تقدم إلى العمل في هذا المرفق بعض الفتيات، أغلبهن من كفيفات البصير بين بيض وسود- أنا عادة في توصيفي للون البشرة لا أحب استخدام لفظ الأسود أو السوداء واعتمد اللفظ: الأسمر أو السمراء أحتراماً للمشاعر وحفظاً للمساواة

وعودة إلى السياق... صار لأول مرة يسمع طالب المكالمات ا لهاتفية خارجية وداخلية على الطرف الآخر من الخط: صوتاً ناعماً رقيقاً، ولأن كبار الموظفين هم الأكثر استخداماً للهواتف، بالنظر إلى طلباتهم المتعددة، تواصلاً مع المرافق التي يديرونها، ومنهم بالطبع: الضباط الكبار في إدارات البوليس، وصاحبنا منهم. هنا نبدأ الحكاية الطريفة التي بدأت وانتهت بشكل دراما تيكى.

طلب الرجل توصيلة بأحد مراكز البوليس التي يشرف عليها، فإذا بها على طرف الخط صوتاً ناعماً يرد عليه بحميمية واحتفاء (حاضر سيدى لحظة من فضلك) أهتزت مشاعر الرجل وسرت في نفسه روح البهجة والفرح من أحس بغنج ودلال أو هكذا خيل اليه... توصل بمخا طبة وانتهى الأمر إلى هذا الحد... لم يألف مثل هذه الأصوات حين كان يعمل على المقسمات، رحال (خناشير).

هذا الاستقبال الحميمي والنغمة الملائكية عبر الاسلاك، تأتي عن بعد تدغدغ العواطف، وتخاطب الأحاسيس، وتبعث في النفس روح الحياة، لم يعهدها الرجل من قبل، حتى وهو تجمعه مع زوجته- فائقة الجمال- خلوة وهما في حالة راحة بعيداً عن العمل.

سرّ الرجل ذلك الرد الناعم والاستقبال البشوش من خلال مكالمة طرفها الآخر مجهول- حاضر سيدى لحظة من فضلك- صوت صاحبه مجهول لكنه دخل في الوجدان ولم يشاءان يخرج ضل الرجل هاجسه الوحيد تلك الفتاة- عاملة المقسم- التي لم يستطع أن يتخيل لها صورة على وجه اليقين. في اليوم التالي حين دخل الضابط الكبير مكتبة يمارس عمله كالعادة، وقبل أن يشرب قهوته، طلب المقسم- عن حاجة بالفعل أو هو افتعال من عنده- طلب مصلحة من المصالح، وفي هذه المرّه حاول أن يكون ودوداً ليناً، وفي طبعه الود اللّين،

وزاد وده أو تودده حين تبين أن من رد عليه هي الفتاة نفسها التي تكلم معها بالامس.... ولرجال البوليس ذاكرة حافظة للأسماء والأصوات- قالت على وجه السرعة: على الرحب والسعة حاضر حالاً سيدي سرت في الرجل أحاسيس الغبطه والفرح البهيج... جاءه الرد منها تعتذر في رقه: الخط الذي طلبته سيادتك مشعول سيدى حالاً أحاول سعه مرة أخرى.. تمناها أن تستمر معه في الحديث وأن تهمل الرقم المطلوب بالمرة فلم يعد في حاجة اليه ما دامت هي تتكلم معه، قال لها: وهو يبالغ في التأدب وحسن الخطاب محا ولا جرها إلى مزيد من الحديث- لا تشغلي بالك كثيراً، أنا شاكر لك على كل حال.

ردت مرة أ خرى: سيدى أنا في خدمتك في كل وقت وسأحصل لك على طلبك في أقرب وقت. وهكذا كلما استمع إلى صوتها الناعم الذي فيه غنج كما خيل اليه، ازداد تعلقاً بها، واستمرت المكالمات بينهما في حدود الطب منه لرقم من الأرقام، وطلبية الطلب منها على وجه السرعة، أياماً واسابيع إلى أن جاءت فارقة كانت منتظرة من الطرفين، فالكلام أجيب كلام كما يقال.... أصبح هو يتعمد اسطالة الحديث على هامش المكالمة المطلوبة وكانت هي تجاريه. ثم تحول الحديث ودخل في دائرة الصراحة التي فيها شيء من الغزل، وكانت تغض الطرف وتجاريه أيضاً عن بعد، فهي تسمع ولا تصرح في الرد، هي في غير مواجهة معه لذلك كانت ت تتمني المزيد من الغزل البرئ، فالمرأة حين تسمع قول الأطراء تسمن، فهي تسمن من وذنها كما في المثل... أصبح الرجل يتمادى كل يوم أكثر وهي تتمنى المزيد في صمت... الرجل فاقد للعاطفة والحنان كما يبدو. أو هكذا شاءت الاقدار، وللاقدار أمر تدبره... وضل الأمر هكذا حتى حان وقت المصالحة والتخلص من ثقل الهاجس الملح على الرجل الذي يقتله في

الليل و النهار.. هو أصبح يحب تلك التي تحادثه ولم يراها بعد.. كيف هي؟ هل هي جميلة؟ كزوجته على الا تكو ن مثلها باردة والعواطف لاهية عنه مشغولة بالبيت والأولاد، حديثها معه مقتضب، وحياتهما رتيبة خالية من كل مباهج وفرح، أكل وشرب، ثم نوم دونما أحساس بقيمة الأشياء في الحياة ولا تفاعل معها... روتين عمل أيام تلاحق أيام تمر بلا تغيير ولا تجديد.

لم تكن صاحبة هذه النغمة الملائكية والصوت الناعم والفرح المشع عبر الاسلاك، هي مثل وردة زوجته... نعم أن وردة هي وردة بالفعل في جمالها الظاهر لكنها وردة بلا رائحة وكأنها مصنوعة من بلاستك، أما هذه التي بقطر لسانها عسلا مصفى، وترقص كلماتها جذلي تغازل الحياة في بهجة وفرح، فلا شك أنها نوع آخر من جنس وردة يختلف عنها شكلاً وموضوعاً ويطول الحديث صباح كل يوم بين الرجل ضابط البوليس و صاحبته عاملة المقسم، يبدأ بتحية الصباح ويتشعب إلى حديث آخر يتحول تدريجيا إلى نوع من الغزل الخفيف المتحفظ في الأيام الأولى،ـ بعدها تعلو كل يوم عن ذي قبل حتى يصبح غزلا صريحاً واضحاً جلياء انفلت من الرجل زمام التحفظ، وأرخي العناع لسجيته في تعبيره الصادق الصادر من الايمان عن تباريح الهوى- لم تصمد هي طويلا فأصبحت تجارية فيما أراد، وكانت راغبة تريد ما أراد بل أشد رغبة... أفصحت عما في مكنونها من عاطفة مشبوبة ومشاعر كانت مكبوقة تفجرت حين دغدها معسول الكلام... التقت الرغبات وتبودلت المشاعر وتصافحت القلوب... كل ذلك أصبح واقعاً يحس به كل منهما عبر السلك الساحر ولم تلتقي الشخوص بعد..

قالت له مرة بعد أن تعرفت على أسمه: حميده أتحبني؟ كان اسمه محمد وأجاب أحبك يا منيره- أسمها- حبى ملك على كل مشاعرى.

- أحقا تقول؟! أنا أقول أنك صادقاً.

- وهل في الحب حق وباطل؟ آه لو تعلمي يا منيره ما بي من غرام.

- لكنه ليس الهيام الذي أصابني.... أنا حب لك حميده لا تتصوره.

- وأنا حبى لك فاق درجة الهيام... أنا عاشق متيم يا حبيبتى- أنتبه أنه لم يقل هذه الكلمة لزوجته من قبل- أضاف انت حياتي انت روحي يا أغلى من روحى.

- كل هذا ولم نلتقى.

- نحن التقينا يا عزيزتي... التقت قلوبنا، وتعا نقت أرواحنا، وتصافحت نفوسنا وتعاهدت على الوفاء... أليس هذا هو لقاء الجوهر؟ أما لقاء الشخوص فقريب انشاء الله، إذا لم يكن ما يمنعه عندك.

- وما الذي يمنعه أنه أقرب مما تتصور.

- ساعة المنى سأطير اليك على جناح السرعة حين تأذنين.

- أذنك معك من الآن... لكن قل لي كيف تتصورني؟

- تصورتك بعاطفتي بمشاعري وأحاسيس... وجداني أخبرني أنك النصف الذي يكملنى وقد وجدته بعد أن بحثت طويلا، جاء صدفة وبالها من صدفة جميلة.

- ومن قال لك أنني ممن تحب وتعشق حين تراني؟!

- أنا ريتك بقلبي، وعندما يرى الإنسان بقلبه يلغى ما تراه العين من حسابه.

- وكيف لو وجدتني سوداء؟

- حينها أسميك الزنبقة السوداء، وسوف تكون فرحت لا توصف، لأننى أكون قد حصلت على شيء نادر ثمين... ألا تعلمين أن الزنبقة السوداء ظهرت مرة واحدة في العالم عندما تم تهجينها في منابت الزهور في هولاندا؟

- وأنا حقاً هي الزنبقة السوداء النادرة كما تقول، ألا ترجع في رأيك حين تراني؟

- ساعتها أهنيئ نفس وأجحد فرحتي وأشكر ربي.

- اتتكلم جاداً؟ حمّودي.

- من قلبي ومشاعرى يا حبيبتى أنا أريد أن أراك الآن إذا سمحت.

- لا تتعجل ستراني... أنا الزنبقة السوداء وقريباً.

- متى؟ أريد أراك الأن.

- غداً انشاء الله نلتقى.

- كيف وأين ولماذا غدا؟

- غدا لناظره قريباً... الا تمنحنى فرصة التهيؤ لك... كن صبورا فالبصر تنال الرغايب.

- لم يعد لى مزيداً من الصبر... أحقاً تتكلمين جادة سنلتقى غداً؟

- غداً في مكان العمل، وسأصفه لك... عندما أركب الحافلة ومعى زميلاتي، حينها تكون أنت قريباً منها وتسأل عنى باية ذريعه، فقط قل من فيكن منيره... حينها سأجيبك وتراني.

- ياله من غد كريم ستلتقى فيه الشخوص بعد أن ألتقت العواطف وأشرقت شمس صباح العد، وتهيأ الرجل على أحسن ما يكون الحال، وعن المرأة لا تسأل كيف هي وعلى أية هيئة، وكيف لباسها وزينتها عندما تلتقى بالحبيب لأول مرة... كان الرجل ينتظر قبل الموعد بساعة، وحين وقفت الحافلة أمام المبنى الذي تعمل فيه منيره، غمرت الرجل مشاعر الفرح والرهبة معا... ودق قلبه، واضطربت جوانحه وتحركت قدماه في المكان تائهة قلقة... حاول أن يهدى من روع نفسه التي يهزها الشوق وتنتظرها المفاجأة... بدأت الفتيات العاملات في

المقسم بالخروج... أشكال وألوان أغلبهن من كفيفات البصر... لم يركز نظره على البيض منهن، ثم يوسوس له الشيطان: من قال لك أنها لم تضللك؟ فهي بيضاء لكنها ارادت أختبار صدق مشاعرك. طرد هذا الخاطر... هو يريدها كما قالت: زنبقة سوداء، وبعد هذا وقبله هو يريدها هي: منيرة كيفما تكون... يريد التي أحبها وتبادل معها المشاعر... هو يميز صوتها وقريباً يسمعها عندما يسأل عنها ويراها... تكامل عدد الراكبات، وقبل أن تتحرك الحافلة تقدم حميده: ضابط البوليس الكبير.. وقال من منكن منيره؟

قالت نعم وتبسمت.

- تبسّم لها وقال: مبروك... قصد السياره الاندروفر التي تنتظره ويقوها عسكرى في الخدمة... كان هو يحمل علي أكتافه رتبته الكبيرة في سلك البوليس... أستغرب رفيقات منيرة المشهد... والكلام المقتضب... سؤال عن الاسم... جواب... ابتسام متبادل كلمة الرجل الأخيرة: مبروك.

قالت أحداهن تخاطب منيره... أنزغرطو؟

- انشاء الله... اليوم العرض وننتظر الطلب.

- أخرى وبماذا تفسر بن كلمة مبروك.

- لعلها عكس معناها.

- والابتسامة المتبادلة أليس لها من تفسير؟... هي القبول لاشك في ذلك.

- غداً سأخبركم بالخبر اليقين، وارجو أن يكون كما آمل.

- قالت أخرى: ومتى حدث هذاكله ونحن غافلات؟

- قالت غيرها يا ما تحت السواهي من دواهي... أنه السلك الساحر.

- منيره السحر في اللسان، وما السلك الا موصلا للسحر.

- أخرى: أنت في هذا صادقة... نعم السحر في اللسان.

وجرى السلك مرة أخرى بين الضابط الكبير الذي تناديه منيره: حميده، وبينها بمجرد أن وصلت إلى البيت... وكان هو قد هاتفها أكثر من مرة قبل أن تصل... قالت لها أمها الهاتف رن أكثر من مره، وحين أرفع السماعة بنقطع الخط ما الحكاية؟!

- الحكاية طويلة.

- انشاء الله خير.

- ليس هناك الا الخبر انشاء الله.

- انشاء الله عريس.

- وهل في ذلك من غرابه؟

- ما غريب الا الشيطان الله يبعده المكتوب يأتي في وقته. وهما في هذا الحديث: منيره وامها... رن الهاتف من جديد، رفعت منيرة السماعة.

- حبيبتى أين أنت؟ ازعجت من في البيت... هاتفتك خمس مرات.

- تو وصلت... أخبرتني أمي... أه ما رائك؟

- أي رأي تسألين عنه؟... وقد جدتك كما أقلت يا زنبقتي السوداء.. يا زهوة العين والقلب.. أما زلت تسألين عن رأي؟ متى تكون الخطبة إذا لم تغيري أنت رانك؟

- متى تشاء فقط أترك لى فرصة لأحدّث أمى عنك، وغدا سأزف لزميلاتي الخبر السعيد.

- وكم أنا سعيد أيا منيرة، يا حبيبتي... صدقينى، وأرجو أن توافق أمك وأبوك.

- لا عليك كم مطمئن: وغدا ستنطلق الزغاريط في بيتنا وفي مكان العمل بين صاحباتي.

- وجاء اليوم التالى فذهبت منيرة إلى العمل تملأها الفرحة ويطفح على محيّاها السرور. سرور لا تخفية المشاعر والأحاسيس، وفي السيارة الحافلة زغرطت صاحبتها الودود زهرة... فتاة بيضاء كانت تتمنى لصاحبتها منيرة زيجة موفقة.

هي أسرّت لصاحبتها زهرة بأن الرجل الذي رأته بالأمس يبتسم لها، ثم يقول مبروك تقدم لخطبتها وبينهما قصة حب منذ شهور مضت، وهو ينتظر موافقتها لتكون الخطبه الرسمية يعقبها الزواج الميمون.

تسامع جميع من في الحافلة الخبر- حتى السائق علق بقوله (الدنيا بخوت) في مبنى المقسم الكبير وزعت منيره المرطبات والمشروبات بأمر من حميدة على شرف الموافقة المبدئية... بارك لها صاحباتها الوفيات، وتهامست الحاسدات بالقيل وأن في الأمر أنّ: أن في الجزء الثاني من الحكاية كانت المفاجأة، وقد أخذت شكلاً دراميًا أختزله أخو الخطيب في جملة واحدة رافضة، أصبحت فيما بعد نادره يتداولها أصحابه ومعارفه، حين أشاعها هو نفسه- الضابط- أما أخاه فقد قالها ومضى. كالعادة في الخطبة الرسمية يذهب أخوه العريس وبعض من أقاربه إلى والد العروس ليكون الأمر جاداً ورسمياً. محمد الضابط يعرف أن أخوته واقاربه لا يوافقونه، لا لشيء الآ تعصبا للعرق أو اللون، ولأنها سابقة في الأسرة والعشيرة، أن يتزوج رجل أبيض من سوداء... لذلك أختار أقرب اخوته اليه، روحا ومزاجاً، والينهم جانباً وتسامحاً في الأمور التي غير بال، قال لاخيه نصر: يا خوى نصر أنا أتفاءل باسمك وأريدك أن تنصرني في أمر نويته.

قال أخوه: خير ما نويت انشاء الله... أنا ذراعك اليمين... ماذا نويت؟

- عندى أفارى نبيك تمشى معاي.

- هذا ما تبغي! نمشى معاك على إديه ورجليه.

- على رجليك بس سادني... غير راك تلوى فيدي العصا.

- لا تهنى أنا عارف أفاريك وديما ناجحة بالك بلحقنا منها خبر.

- هيا معاى ماشين لشور أنشاء الله مبروك.

وذهب الرجل وأخوه إلى بيت منيره من أجل الخطبة الرسمية والفضانية، طرق هو الباب... فتح ولد صغير أسمر اللون... أدخلهما إلى المربوعة حسب التعليمات الصادرة من منيرة توجس أخوه أمر بين الشك واليقين... قليلاً من الوقت ويدخل رجل كبير السن أكثر سمرة من الولد... لا أكرس استخدام صغة (الأسود) حفاظاً على مشاعر الأخوة السمر. بعد قليل دخلت فتاة في العاشرة من العمر، تحمل صينية القهوة.. همس نصر في أذن أخيه محمد الضابط الكبير قائلا: يظهر أن رفاريك أسود يا محمد خوي؟!...

- والله الا اسود قالها وضحك... راك تقول حاجة تم خلاص... طاح الزناد.

- أنا عمرى ما ندخل افارى أسود: ولا دخلت فيه من قبل، قال نصر وخرج للتو.

- والد منيره ينبه نصر: قهوتك يا حاج.

- تو أنجى بنجيب دخان.

سكت والد منيره برهة ثم كسر الصمت الذي ساد المكان بعد خروج نصر الذي كان مفاجاة لأخيه... قال الرجل أشرب القهوة لا تبرد.

انتبه الخطيب، وكان سارحا يفكر في موقف أخيه، وماذا يكون ردة فعله. قال: أنا قهوتي ليست هذه.. أنا جيئت خاطباً بنت الحسب و النسب كريمتكم منيره.

- ألا ننتظر الحاج الذي ذهب ليشترى الدخان؟

- لا بأس أن تقول لي كلمتك... هو أخوى. أتى أو لم يأتي أنا اخبرته بالموضوع وأنا وأياه متفقان على شروطكم.. وأنا صاحب الشأن على كل حال.

- وأنا يا ابنى موافق... هي قسمة ونصيب... لا هروب من مكتوب، تقول الناس. بارك الله لك فيها... وشروطنا هي شروط وكل الناس نحن تابعين ولا نكون بادعين.

- نقرأ الفاتحة يا حاج.

- على بركة الله والفاتحة يوم العقد انشاء الله.

في الأثناء دخلت منيره المربوعة، بعد أن تأكدت من خروج مرافق خطيبها ولم يبقي سلمت وجلست... خرج والدها ودخلت أمها... أخذ الحديث مناحى شتى، فيه شيء من التحفظ بين الخطيب وخطيبته... أنصب في معظمه على يوم الفضائية ولوازمها، بعد ذلك موعد الزفاف و الشروط ما يلزم أيام العرس والسكن وغيره الجزء الثالث من الحكاية:

خرج محمد الضابط الكبير من عند خطيبته وقصد توًا بيت أخيه نصر... دخل عليه في المربوعة وهو يضحك... وجده مكفهرّ الوجه يدخن سيجارة وأمامه قهوة... بادره قائلاً هادى عمله أديرها؟، تهرب يا هراب، هو أنت اللى بتتزوج والآ أنا؟ّ

- أنا كلمتي قلتهالك في وذنك أفاريك أسود... عوّل فيه بروحك.

- تو تشوف افاري كيف يطلع... ماك وحّلتني في بنت خالتك ورده... أفارى ابيض لكن لون بلا عون... مرا عندها الحياة، أكل وشرب ونوم وصلى

وارفع صباتك.... ياريتك أو حلت أنت فيها يا نصر خوى... أتوريك النجوم في القائلة... كلمة طيبة ما تعرفهاش.... ضحكة في وجهي متعاركة هي وأياها... اللبس انجيبه طول أتعلقه في الدولاب... عمرى ما ريتها لابسه باهي، ولا دائرة بروحها كيف النسوان... الصورة والغله محموره... نلقى أني فديت يا نصر خوى من ورده.

- فديت من وردة؟ نوارة العيلة! اللى صباحها خير من خزنة مال؟!

- ياريتها مالك وحلالك... صدق اللى قال: بعد العشرة تبان الناس.

- وقال: حتى بدلت ذهبي بالنحاس... كيف ما بدلت أنت ورده ب....

- وقال بدلت طيري بالبنفيري... خلا الصقر وجاب بومه ريشها مفيش وعيونها صفر سمحات وما يشبحوش، بلا ثمره كيف ورده بنت خالتك.

- ما تنساش، ما تشكرني لين أتجرب غيري.

- جربنا البيضا الزعره الشهبه طلعت فالصو أو كان مش في دعوه.. هي زعره وأنا أزعر كيف أجى... ما يركبش على بعضه... غير ذهاب شبره.

- أهوه جبت اللى موش زعره... أفارى أسود حموم، تو نشجو ضنوتك كيف تكون.

- دم وجير ورأس خوى نصر... منيره حمراويّه وأنا أزعر... إجو كيف الروميات أندلوسيات والا طليانيات موشى كيف نبات ورده... جوني شهب زى النرويجيّات.

- وهي أسمها منيره؟ّ يتساءل معرضاً باللون... حق نور يشعشع اللى يحب لروحه يلقى وتزوج محمد (حميده) منيره فكانت له نعم الزوجة، انجبت له البنات الروميات كما توقع... ولدت له ولدا كان في منتهى الاخلاق الفاضلة

كان من النجابة والحذق بمكان رفع له أسمه بين اقرانه، والبنات كن حاذقات ناجحات جميلات تخطفهن العرسان، وعاش حميده مع منيره سلطان زمانه كما كان يقول، فكان أفاريه أبيضاً وليس أسوداً كما توقع أخوه.

الأفاري كلمة أيطالية معناها: مشروع أو عملية حياتية خاصة.

الجميـــل

والجميل اسم لبلدة معروفة في الطرف الغربي الشمالي من ليبيا وربما جاء الاسم على وجه التصغير، أو التربيج، نحن في هذه النادرة لا نتكلم عن الجميل البلدة، أما حديثنا هنا فيتعلق باسم أو الاصح لقب لرجل فارس كريم، عرف في منطقة أخرى بعيدة عن الجميل البلدة، والجميّل الاسم تعتى: تصغير الجمل أو التربيح كما اسلفت.

الرجل يعترض على اسمه أو لقبه على سبيل الفكاهة بين أصحابه فيقول: ما دمتم سميتونى جميل، وهنا صغر توني، وأنا كبيرا، فلماذا تبخلوا على بأن أكون جميلاً كبيراً؟!

ينبرى أحد أصحابه وهو العارف بخصاله الحميدة فيقول: أنت جميل للتمليح وليس للتحقير... فانت ويذكر اسمه الذي لا نذكره مرعاة للكتابة المحايده... أنت رجل بمعنى الرجال الكرام ..... أنت الفارس الذي نعرف، فلا يضيرك الاسم ولا اللقب فيرد الرجل معتزاً بنفسه وبخصاله الحميدة التي لا ينكرها عليه أحد من في المجلس، فيقول على نفسه من محفوظة الموروث: (جمل شابك النيبان موشى قعيد يرفع أحمول ارزان ما يتكبد).

يقول واحد من في المجلس: صحيح... ترفع حمول ارزان ما تتكيد يا عمبواللى يذم المليح.

نعود إلى الجميل يقال والعهدة على الراوي (عمران) أن الرجل لما حضرته الوفاة، طلب من اقربائه الحضور وان تحضر عند رأسه نساء أهله وأقاربه ومن

يعرفنه في قبيلته قائلاً: نادولى ها ل.... كلمة قالها نرفع القلم عن ذكرها- نبى نسمع شن بيقولو على في المعاده يعنى التعديد الذي ترثي به النساء الميت عندما يكون ذا حيثية وشأنا كبيراً.

فهو والناس تعرفه جميعاً: فارسا شجاعاً كريماً جوادا معطاء وشهما ذا مرؤة، وصاحب وجه وجاه ، وما من خصله فاضلة الا وقد تحلى بها، وأضاف الرجل عندما نسمع شيئاً ليس في فهو ليس لي وسأنبهن إلى ذلك.

قال أحد أصحابه المتحلقين به: صلى عالنبي يا راجل.. وأنت لا بأس عليك... علاشي (تفاول) لروحك بالموت.

قال الجميل: أنا مش كيفك نخاف من الموت... أنا خائف من الحمل.

- حمل شنو؟ قال صاحبه.

- حمل الذنوب.

- ربك يغفر.

- ونعمه بالله... وهذا طمعى فيه... وعمرى ما طمعت في انسان بخيل وجاء الطبيب إلى الجميل وهو على فراش الموت قال: لا بأس وعكه بسيطة وتزول... هذا دواء لمدة سبعة أيام بعدها سيكون الشفاء باذن الله.

الجميل ينظر إلى الطبيب بانكار ويقول: ما فيك من كذب يا دكتور! الطبيب وكان مصري الجنسية: الله ازاى أنا باكذب؟ وباكذب ليه والا باكزب ليه؟!

الجميل: هاذي عادتكم الأطباء عمركم ما قلتوا الحق ولا قلتو لو أحد بيموت أنت غلاص... قادم على مولاك... والمريض يعرف روحه.... وأنا قتلك تكذب، لأنى قاعد نشوف في اللي بيقبض روحي... بينى وبينك... اسمع

يا دكتور... هي الساعة أو الدقائق ما زال ماكملوش.

(وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) صدق الله العظيم.

الطبيب: دا الرجل بيخرف.

الجميل: انت اللى بتخرف... أما أنا عارف روحى ومانيش خايف من الحق... الموت حق... والخوف من الله... من الذنوب والله غافر الذنوب.

بين قاليل ودحمان

عماره شاب يظهر أنه من المجندين الليبين في الجيوش التركية في أحد العهدين- العثماني الأول أو الثاني- كان في خدمة أحد الضباط الكبار في الحامية التركية في طرابلس، ضل عمارة في خدمة الضابط الكبير طيلة أربع سنوات قضاها التركى في الأبالة الطرابلسية، ثم جاء نقله إلى سوريا، ومنها نقل إلى الخدمة العسكرية في أسطنبول ولأن عماره من المنطقة الغربية، قضاء الزاوية، وأصيل صبراته وصرمان، مديرية تابعه للقضاء، فقد قضى صباه في تلك الربوع... كان شابا مطيعا ومتفانى في خدمة الضابط التركى الكبير لذلك صحبه معه حين نقل إلى سوريا وبعدها إلى إسطنبول، الضابط التركى كان أصيل منطقة الأناضول على ضغاف مضيق البسفور من الشرق في القسم الأسوي التركي، كان هذا الضابط يملك أراضي واسعة في تلك الهضبة وعقارات في مدينة إسطنبول، وكانت زوجته من مدينة أزمير أحدى المدن الساحلية على الساحل الشرقية للبحر المتوسط، وهي أبنه تاجر كبير في المدينة، ترك لها والدها قصرا فخماً على شاطئ البحر.

ضل عماره في خدمة الضابط التركى: (مراسلى)، بمعنى مسخرا للخدمة في شئون المكتب اثناء ساعات الدوام الرسمي في مقر اللواء الذي يرأسه، وخدمته أيضاً في البيت حين كان يسكن عازبا سوى في طرابلس أو في دمشق، فلما نقل الضابط إلى أسطنبول وسكن في فيلا كبيرة ملحقة بالمعسكر، أستقدم اسرته: زوجته وابنته من أزمير للسكن معه في مكان عمله، لم يستغنى الضابط عن

الجندى عماره، لسلوكه المحسن وطبعه الهادى، إلى جانب عمله في المعسكر انتدبه بعد الدوام للخدمة في البيت، كلفه بقضاء حاجيات البيت من السوق، والاشراف على الحديقة والقيام بما تطلب منه السيده والخانو، من أعمال... خصص له بيتا صغيراً في طرف الحديقة الواسعة، يعيش فيه، كان لا باوى اليه إلا في الليل أما طول النهار فهو داخل البيت الكبير يقوم بما يكلف به من عمل تأمر به السيدة زوجة الضابط، كان عماره مطيعا طاعة عمياء كما تعلم في العسكرية، ينفذ م ما يؤمر به في سرعة ودون نقاش، لا يقصر في عمله ابداً، فهو هادئاً حاضرا ومستقرا، كان لين الطبع، راضي النفس، باشي الوجه لا يتذمر ولا يعترض على شيء... وكانت السيدة زوجة الضابط تراقبه في تصرفاته وحركاته، تكون عنه فكرة عامة من حيث الشكل والسلوك والتصرفات والأخلاق، وذلك لأنها أنست من بنتها ميلا اليه، حين لاحظتها هي الأخرى ترقبه من بعيد ومن قريب تنظر إليه نظرات تعرفها الأم المجربة من قبل، كانت البنت- تحادثه في رقة ومودة غير معهودة من مخدوم لخادمه... والشاب خالي الذهن من كل ما يدور في خاطر البنت، غافلا عماً في نفسها، هو خادم مطيع يلبي طلبات ما يطلب منه في نطاق الخدمة المكلف بها فقط وتمر الأيام، وتحس الفتاة نحو الشاب بميل شديد... أحاسيس ومشاعر تكبر كل يوم وتزداد، تتفجر العاطفة، ينجذب الجنس إلى الجنس... هكذا بدأ الحب من جانب الفتاة، ضاقت بما تشعر، اعتبرته في البداية سرا يجب الاحتفاظ به عن كل مخلوق، لكنه أرقها وأطار النوم من عينها... أتخبر أمها؟ أنها ليست بمخلوق غريب... لا بد من البوح لأحد ليس هناك أقرب ولا أوجب من الأم ليطلع على هذا السر... هي لم تعد قادرة على كتمان ما في نفسها من هوى... بعد طعام الأفطار الذي

قدمه لهما عماره... جلست وأبها في شرفة خارجية من الفيلا تقابل خميلة ظليلة من شجيرات منسقة في الحديقة الواسعة... كانت الشرفة دافئة فالوقت كان ربيعاً، عصافير برية كانت تفرّ وتزقزق من غضن إلى غصن يطارد كل أليف اليفة الشمس مشرقة، والسحب خفيفة بيضاء متقطعة تمر علي مهل جاء عمارة بالقهوة التركية كالعادة للخانو وبنتها كل صباح... وضع الصينية وانسحب في تلك اللحظات كانت البنت تملأ عينيها من هيئته وكيانها يضطرب من الداخل بمشاعر الحب والغرام، وكانت الأم تراقب وتقرأ الانفعالات على الوجوه، الشاب ليس له قضية تشغله، خال الذهن ممّا في نفس الفتاة... أما بنتها فهى عاشقة يتيمة، ظهر على وجهها غرامها بالشاب عندما وضع القهوة، وتفرسته الفتاة مليئاً، وحين مدت يدها لتأخذ فنجان القهوة كانت ترتعش، يتلون منها الوجه، وتطيش النظرات... تبسمت الأم ولاذت بالصمت.... طفرت دمعة من عين البنت... مسحتها بيدها ... خاطبت أمها في تلعثم، وصوتها لا يستبين كله: أمى: أنا أحب عماره... لم تنتظر الجواب... أسترسلت أنه ملك على قلبي ومشاعرى أرق نومى وأخذ روحي وذهب بعقلي... أنا لا أطيق الحياة وهو ليس معي... هو النصف الذي يكملنى سيكون شريكى في الحياة، أنا لا أعيش بلاه... أنا عماره سمعته يقول سيرحل إلى بلده... حينها لا تكون لى حياة... سأموت يا أمي... سكتت وهي تكاد تجهش بالبكا قالت أمها: ليس بخاف عنى هذا... كانت هذه تجربتي السابقة مع ابيك... أن الحب يا أبنتي أجمل شيئ في الحياة.. أن حياة خالية من الحب ليست بحياة... هي قاحلة مجدبة... ريح هوجاء وقفر موحش، وبرد قارس شديد... الحياة بلا حب... موت ولا حياة.

- وماذا أفعل يا أمى؟

- لا بد من الفعل- لكن الحب من جانب واحد يا بنتى، هو حب مجزؤ... الحب مشاعر متبادلة بين الطرفين... لا بد أن يحبك عماره... عندها تكتمل السعادة... سعادة القلوب، وتطيب الحياة ويكتمل الفرح.

- عماره فيه شيء من السذاجة والطيبة الزايدة عن الحد، ونوع من الغفلة.

- هو يتهيب المقام، ويقدر المكانة.. ولعله يرى في نفسه الدونية بالنسبة لنا.... لذلك لم يقترب منك، أو ينتبه إلى مشاعرك نحوه... هو يعرف نفسه خادما لابيك من قبل ولنا خادم في البيت منذ شهور، وأنت تعرفين شعور الخادم أتجاه مخدومه.

- أنا أريده زوجى لا خادما... حبيبا يحس بي كما أحسى به.... أبادله مشاعري ويعيش معي عيش الأزواج المحبين... اريده رجلا في عين المرأة التي تحبه وتقدره، لا خادما يشعر بالدونية والخجل.

وهذا ما أبغيه لك... لكن هذا لايتأتي قصرا وطلبا من طرف لطرف آخر كما تطلب الحوائج... الحب يا ابنتى عاطفة أحاسيس ومشاعر تجذب كل واحد للآخر من الجنسين... حين يكون هذا يكون الحب الذي لا تحده الحدود، ولا تمنعه السدود حينها يجرف كل شيء أمامه ويزيل العوائق والموانع أي كان نوعها.

- ومتى يحدث هذا من عماره.

- طرف الخيط عندك... أجذبي... الوسيلة الأولى: اللحظ... الرسالة تبعث بها العيون والقلوب تقرأ... فاذا أصابت العين الهدف ووصلت الرسالة.. تحركت عند الطرف الآخر المشاعر... حينها بحدث ما كنت تبغين من عماره... وحينها يفصح عمّا في نفسه.. الرجل يا ابنتى بضيق بما في داخله من أسباب الهوى، فلا يلبث أن يحدث حبيبه بما في قلبه... الرجل أجرأ من المرأة في التصريح بالعشق.

– وهل المرأة تبقى تعانى عذاباتها، تنتظر الرجل الذي لا تعرف متى يبادرها، هذا أن كان مهتماً بها أصلا.

– قلت لك أن الرجل تصطاده المرأة بلحظها، كما لا تعدم جملة من وسائل أخرى تجذب بها الرجل... للمرأة شباكها التي ترمى بها في طريق الرجل... المرأة لها مبادرات يفطن لها اللبيب، فلا يلبث أن يجاريها في مآربها، وعليها أن تحترس وتحاذر من تفسيرات الرجل التي قد تكون خاطيئة، فلا تحسسه بأنها راغبة فيه كغرض آخر غير الزواج المقدس الشريف.

– وهل تضنين أن عمارة فطن لبيب؟، ويفسر رسالتى كما أريدها؟

– هو ليس بالغبي، لكنه حيّي، ورسالة الحب التي ترسلها العيون لا تخطيئها القلوب... جربي وستعرفين النتيجة.

– هناك عقبة أخرى أفكر فيها.

– ما هي؟ ليست هناك من عقبات لا تتغلب عليها المرأة عندما تعشق.

– افكر في ما لو أطاعنى عماره وبادلنى حبا بحب صادق، وتقدم لخطبتي... هل تعتقدين أن والدى يوافق على زواجنا بسهولة؟

– أن أباك يحبك فأنت وحيدته.... ولو فرضنا أنه رفض رغبتك... لا تعانديه قولى له سمعاً وطاعة يا أبيى... أنت كل ما عندى في هذه الدنيا.... حرمت من الأخوة والاخوات، وما لى الا أنت وما تريده لا أرده عليك... رائك الحق ومشيئتك نافذة ما تأمر به يكون ... أنت يا أبي عزى وتاج رأسى... خاطبي فيه العاطفة الابوية.. . سوف يلين لك ويرق لحالك... أما من يخبره برغبتك فهذا علي أنا.

- وأنت تعرفين سابقاً أنه: عرض على رغبة شاب يعمل معه ضابطاً في المعسكر وأبديت له حينها عدم رغبتى في الزواج، لعله فسرها رغبة مني في عمارة، وأننى متفقة واياه وبيننا علاقة ما.

- لا.. لا يخطر بباله هذا الهاجس عندك.... لقد أخبرني قبلك برغبه الشاب الضابط... فقلت له لا تجبرها، ودعها وشأنها ما دامت لا ترغب في الزواج الآن وحين تتحرك عواطفها، ويخفق قلبها بالحب، وتميل إلى من تهوى ستفصح لى ولا تتورع أن تصارحك أنت... أن المحب لا يملك الا أن يعلن عشقه فيلجأ إلى من يسرى عنه... أنت تعرف هذا ولك تجربة سابقة أم نسيت؟! ايامك معى وذكرياتك؟... أما كنت تقول لى حين كان بيننا الحب: أريد أن أخبر الحجر والشجر والعباد، من أعرف ولا أعرف، بما أحس به من غرام وهيام بك... أنسبت أنك أخبرت أمك وأباك بقصة عشقنا، وأنك كنت تذرف الدمع في حضرتهما، وهما يضحكان من موقفك... ثم يقول لك أبوك: لست أنت الأول من أحب... وماذا في ذلك من ضير؟ أنت رجل كن معها رجلا إذا عهد أو في، ولا تخذلها فيك... إذا كانت كما تقول تبادلك الحب وتهواك بصدق وليس عن طمع. بشرها يا أبنى باننى موافق، وبارك الله فيها، وكانت أمك تشد من ازر ك وتشجعك وتبارك لك، وتدعو لك بالتوفيق، ولم يعترض على رغبتك.. لا شك أنك لم تنسى هذا ولن تنساه، كان أبوك ساعتها يعترف بهذا كله، فلا ينكر عليك حقك، وسنرى ما يكون منه على كل حال.

- أنا خائفة يا أمي... أبي لا يوافق بسهولة على عمارة لاعتبارات كثيرة؛ أولها أنه ليس تركى- هو عربي وسيناديه وطنه في يوم من الأيام.

- دعى الأمر لوقته. فإذا كان عماره مكتوبا لك و انت له فلا اعتراض على مكتوب كتبه القدر.

- دعواتك يا أمى لي... وكوني لي عونا على أبي إذا ما رفض عماره.

- أنا أدعو لك في كل صلاة... أنت وحيدتى وقرة عينى... لن يخذلني أبوك... سيكابر في البداية ويعاند، لكن قلبه لا يطاوعه في أن يرفض لك طلباً- وستتحقق أمانيك وكان وقتا ذات مساء و الضابط الكبير الذي يحمل رتبة لواء في البحرية التركية، وهي أقوي فروع الجيوش في تركيا، حيث كانت تسود البحار في ذلك الوقت.

كان يجلس في الصالون الكبير بعد أن تناول العشاء، كانت تجلس معه زوجته وابنته التي حبها كثير، ويرغب دائماً أن تجلس معه حين يكون في جلسة استرخاء، يشرب العرق الشامى ويدخن الارجيلية، ثم يختم بالقهوة قبل أن ينام- كان يقوم بوضع تلك الأشياء ومستلزماتها: الشيشة والعرق الشامي والقهوة: العسكرى عمارة المكلف بالخدمة في البيت. حين كان عمارة يدخل ويخرج بين الصالون والمطبخ، شعرت فاطمة- الابنة وهذا أسمها- شعرت أن عيونها ستفضحها، وهى تتابع عمارة داخلا خارجا، يقدم الأشياء التي يطلبها قايد البحرية الكبير... لذلك انسحبت متعلّلة بحاجة تقوم بها في جناحها الخاص، على أن تعود حين ينهى عمارة خدمته ويذهب إلى مكان اقامته، خارج الفيلا في طرف الحديقة الواسعة، أذنت لها أمها بعد أن طلبت منها بصوت مسموع العودة لتوانس أ باها حتى ياوى إلى فراشة. قال الضابط مخاطباً زوجته وقد مسته نشوة بفعل العرق الشامى الفاخر، الذي يرسل إليه بكميات في كل شهر- يبعث بها زميلا له ضابطاً كبيراً يحمل نفس رتبته لواء في الجيوش البرية، كان المسؤل عن حاميه حلب.

قال اللواء والد فاطمة: أرى فاطمة ليس كعهدى بها من قبل... أرى

مزاجها متغير، وعافيتها لا تعجبني منذ أيام... هل تشكو علة؟

- ابتسمت زوجته ثم قالت: ربما... هي لم تسر لي بشيء.

- وهل الشكوى من علة سر؟... السّر ابتسامتك... هل هناك ما تخفيه علي؟ أنا زوجك وهي ابنتك، وانتى تعرفين كم هي عزيزة علي.

- قد أخبرك بشيء يزعجك، وافضل أن تخبرك هي بعلتها، ما دمت ضننت ان بها عله.

- ربما علتها تتعلق بقلبها... أقصد عاطفتها.. لعلها تشكو من الهوى؟ إذا كان هذا، فهي لن تخبرني بشيء... هذا دورك أنت تقومين به... صارحينى فاطمة لن أرفض لها طلبا، على أن يكون الذي تهواه من عائلة كبيرة ومعروفة ولا تقل عن مستوانا حسبا ونسبا، جاها ومركزا.

- لهذه الأسباب كلها لا أريد أن أخبرك، فهي وشأنها معك. على أن تعترف أن القلب عندما يهوى لا يحسب لما ذكرت حسابًا.

- سوف لن أرفض من تريد فاطمة، حتى لو كان عماره.

- هو بعينه، عمارة الوحيد الذي تهواه فاطمة.

- لن أرفض ولكن.

- ولكن ماذا؟ أليس هو برجل خلوق طيب؟ أنا لم أرى فيه عيب يعاب.

- هو كما قلت، لكنه من بلد غير بلدها، وربما حن في يوم من الأيام إلى وطنه وأهله فذهب إليهم...... ساعتها هل تقدر فاطمة على مفارقتنا وتذهب معه؟

- هذا أمر في علم الغيب... نحن لا نسبق الأحداث، لتفعل الأقدار ما تشاء.

- هي تحوطات علينا أن نأخذها في الاعتبار، وأن تكون فاطمة على بيّنة من أمرها، فهي لازالت غرة وجدير بنا أن ننصحها وتأخذ بالنصيحة والتوجيه،

وهذا دورك أنت قبلى أنا.. .صارحيها بهذا الأمر.

صاحب الهوى لا يأخذ بالنصيحة والتوجيه إذا كانت تخالف رغبته... يضحى في سبيل حبه بكل شيء.

- واجبنا نصحها وتبيان كل شيء لها، فهي تجهل أموراً كثيرة... أن الغربة ليست بالامر المهين... أنا جربتها، وأنا الرجل خلق للتحمل ومصاعب الحياة فما بالك بأمرأة تربت في عزورفاهية كفاطمة ابنتنا.

- سأنقل لها هذا الذي تقوله... أنا نفس لا أقدر على فراقها يوما واحداً في حالة ما ذهبت بعيداً كما تقول... أنا أريدها معى لا تفارقنى أبداً، حتى في تركيا فما بالك، لو ذهب بعيداً إلى أفريقيا وراء البحر.

جاءت فاطمة بعد أن تدارت في غرفتها وقتاً أثنا خدمة عمارة لوالدها، كى لا تفضحها مشاعرها فتظهر على وجهها. يقرأها والدها فيكون موقفها محرجاً وتكون في موقف لا تحسد عليه.

جلست في مكانها بجانب والدها قبالة أمها، وصبت لنفسها قهوة.

قال والدها: فاطمة حبيبتي... مالى أراك في حال لم أعهده من قبل؟

- ليس هناك شيء يا والدى يقلقك... أنا بخير ما دمت أحضى برعايتك وعطفك الكريم أنت سندى واعتمادى عليك في كل شيء. لن أخالفك في رأى، وأنت تعترف طاعتى لك وحبي.

- فاطمة أتحبين عمارة؟ وتريدين الزواج به؟ أنا موافق.

كان منها الخجل الشديد والصمت المطبق للحظات، ثم قالت نعم وقامت تقبل يدى أبيها... تمثلي عيناها بالدموع وتنسحب، وقد رمت أمها بنظرة لها معناها.

كانت الأم ترقب الموقف مندهشة من تبدل موقف زوجها الصلب المتشدد، ثم مبادرته بطرق الموضوع في يسر وبنفس راضية وفرحة داخلية لاحظتها تغمره، وقد كان الامر صعباً ومعقداً، وكانت تتهيب الخوض فيه مع زوجها الذي تعرف عناده وتعصبه لرائه، فاذا به ينقلب لينا متفهماً، يسأل ابنته عن الأمر في هدوء ورقة، ومودة وعطف، ثم يتبع السؤال بالموافقة على زواجها من عمارة دون نقاش ولا جدال عندما تأكد أنها تحبه وهذا ما كان يريد أن يعرفه منها صراحة ووجه لوجه.

زغردت الأم زغرودة حافته، بينها وبين زوجها الضابط الكبير وصبت له كأسا العرق الشامي، الذي قدمه له عمارة وقالت: هذا في صحتك ونخب الموافقة على زواج فاطمة قريباً انشاء الله ورشفت من قهوتها.

– قال الضابط اللواء: فقط أريد أن أسأل هل عماره يعلم من الامر شيئًا؟ ومن قال أنه يحبها كما تحبه؟ ولعله مرتبطاً في بلده بأخرى.... العرب هناك كما أعلم يسمون بناتهم لأولادهم أزواجاً في المستقبل منذ الصغر.

– أتعتقد أنه يرفض فاطمه، أو يجد مثلها في الدنيا كلها حتى لو كان مرتبطا؟

– ليست المسألة اعتقاد من عدمه، أنما للاقوام عادات وتقاليد واعراف لا يحيدون عنها، هي بالنسبة لهم في حكم القانون... هؤلاء العرب أعرافهم هي دساتيرهم.

– سأعرف منه الامر بطريقتي ... وسيكون غبياً لو رفض هذا العرض الذي جاءه على طبق من ذهب... أيرفض فاطمة بنت للواء قايد البحر؟

– لو كان مرتبطاً ولو بكلمة سيرفض هذا العرض الذي لا يحلم به أنا أعرف هذا يقينا وسترى.

- كعادة الخانو كل صباح تأخذ كرسيًّا وتجلس أمام قفص كبير في ركن من الحديقة تتفرج على طيور الطاووس ويلحقها عمارة بقهوة وكأس من ماء.

جاء عمارة يحمل صينية القهوة... وضعها أمام الخانو واراد أن ينصرف فاستوقفته قائلة: عمارة اريد أن أسالك سؤالاً.

- نعم... تفضلي وضل واقفاً ينتظر السؤال.

- بعد برهة قالت له: عمارة هل أنت متزوج؟

- لا أنا التحقت بالعسكرية صغيراً، وسافرت مباشرة مع اللواء إلى سوريا.

- أمرتبط أنت بفتاة معينة في بلادك؟

- عاطى كلمة... هي أمى تريد لي صالحة بنت خالتى.

- وأنت أتحب صالحة؟

- لا نحبها لا نكرهها... كلمة قالتها أمي وأنا قلت لها (باهي).

- وإذا وجدت فتاة جميلة ومن بيت كبير وتحبك أتتزوجها؟

- وأترك صالحة؟

- نعم تتركها إذا كنت لا تحبها... وهناك أخرى تحبك.

- تركية أم عربية؟

- تركية وجميلة وتحبك ومن بيت كبير... هي فاطمة ابنتى.

- باهي... بمعنى: زين... طيب.... باهي: من البهاء.

وزفت فاطمة إلى عمارة في عرس بهيج حضره كبار اللواءات في الجيوش التركية: بحرية وبرية من زملاء اللواء قايد البحرية، وزوجاتهم والمقربين منه،

ولا بد أن يكون قد حدث لغط وهمس بشأن العريس، وخاصة بين الهوانم النساء اللاتي يتسلين بالأخبار والاشاعات وما هو سر زواج فاطمة التركية بنت الظابط الكبير، من عسكرى عربي يخدم في قصره.

الذي حدث بعد الزواج... اصبح عمارة مخدوماً بعد أن كان خادماً، وزوجاً لابنه أسرة ارستقراطية يشغل ربها منصباً كبيراً، ويحض بجاه عريضاً، لها من المال و العقارات الكثير والوفير.... عاشت فاطمة مع زوجها عيش الأمراء الأثرياء فتنقلت بين قصر والدتها في أزمير، وفيلا والدها الكبيرة في إسطنبول، وبين استراحات يملكها في هضبة الأناضول.. قامت رفقه زوجها برحلات سياحية على ضفاف البحر الأسود، وفي أرخبيل بحر إيجه، والجزر اليونانية، وغيرها من المناطق السياحية في إيطاليا وأسبانيا، وفى أسيا الصغرى.

كانت تحبه كثيراً وتغدق عليه من حنانها وعاطفتها ما لا يوصف... تسعى بين يديه في خدمته، وتنشد رضاءه... تدخل على نفسه البهجة والسرور... أما هو فكان بارد العواطف غليظ الطبع، خال قلبه من الهوى، يتعامل معها دونما رغبة وود وحرارة انفعال مجرد مشاركة حياتية تتكرر كل يوم لا يغاز لها بكلمة، ولا يخاطبها برقة، ولا ينبسط معها في الحديث... بل لا يشاركها حتى فرحتها حين تفرح، ولا يفاجيئها بهدية ولو كانت بسيطة، وحين تشعر بالسعادة في حضوره لا يشاركها مشاركة وجدانية تحسسها بقيمتها كأنثي في نظره، لا يعا ملها معاملة الزوج المخلص الوفي، ليس جفاء منه لكنه طبع فيه، أو هي جلافة العربي البدوي الذي تربى على قساوة الحياة وشغف العيش، أحياناً تغفر له سلوكه، هذا الذي لا يتعمده، وأحياناً أخرى تعتب عليه ولو بينها وبين نفسها، فالمرأة كائن لطيف يحب الملاطفة والاهتمام ولو بكلمة رقيقة، ولفتة ومداعبة وتودد.

أنست فاطمة من عمارة تلك المعاشرة التي فيها نوع من الجفاف، وذلك الأسلوب في الحياة الذي لم تغيره الظروف ولا الوسط المتحضر الذي عاش فيه عمارة منذ أن انتقل إلى تركيا. اقنعت نفسها بأن ترض بما هو موجود، وليس بما هو مطلوب، وأن عمارة لم يتأثر باسباب الثقافة والحضارة التي عليها المجتمع في تلك الربوع، لم يكن يحفل بما عليه الناس من حياة فيها مستجدات مادية ومعنوية لا تمت إلى حياته السابق بصلة.. ضلت تجذبه جذوره الأصل، ويحن إلى ما تربي عليه في صباه من قيم، وما وجد عليه أهله من نمط عيشي، وأسلوب حياة، بل حتى الأماكن ومعالم الأرض التي كانت له فيها جولات، وعر ف مواقعها بالاسم، وكانت ملعباً له ولأترابه أيام الصبا، كان يحن إليها ويتحسر على فراقها ذات يوم كان عمارة يتمدد على سرير عال من الخشب الثمين، وعليه مراتب من نوع رفيع، وشراشف وملاحق من قماش خاص، وحوله وسائد عند رأسه وتحت رجليه، وعلى يساره واليمين، وفاطمة تسعى بين يديه... كان يضطجع في استرخاء وعيناه في سقف غرفة النوم الفسيحة التي تتدلى منها ثرياً فاخرة من الكرستال التشكى الممتاز أرادت فاطمة أن تكلمه في شأن، فاذا به يغمض عينيه ويقول: "آه على رقده بين قاليل ودحمان وربيع أمفقص نواره)... أحجمت فاطمة عن الكلام وقالت: عماره تريد شيئاً منى؟

قال: لا أريد شيئاً، وأعاد على مسمعها: تلك العبارة: آه على رقده... خرجت من توها وتركته يحلم بأمانيه.. قصدت أمها في أحدى الشرفات المقابلة للشمس، الوقت كان ربيعاً... وجدتها تأخذ قهوتها المعتادة قبل الغروب التي كان يقدمها لها عمارة في السابق، وسلم القيام بها واعباء خدمية أخرى إلى خادمة وافدة من الأقاليم، فهو قد أصبح- زوجاً لفاطمة تقدم له الخدمات في السرير.

قالت فاطمة تخاطب أمها: بعد أن جلست وظهر على وجهها هم ظاهر (لا أعتقد يا أمى أنني سانجب من عمارة أطفالاً).

- سألتها: ما السبب.

- قالت: يقال في التعابير: طير البحر لا يألف طير البر، وهذا قول صائب.

- نعم قول فيه شيء من الصواب... لكن ما الذي خطر عليك هذا القول؟

- سمعت عمارة يقول في تنهد وحسرة قولاً ينمم عن حنينه إلى بلده وأهله ولا أضّنه إلا مفارق عن قريب.

- أن بعض الظن أثم... لعلّه خاطر خطر بباله فتذكر بعض الذكريات التي جعلته يتلفظ بما قال.

- أنه يتحسر، يتنهد من أعماق، كنت بجانبه ولم يحس بي.

- الغربة مرة يا حبيبتي، لعله حن إلى أهله ومرابع صباه، فلا بأس عليه في ذلك أعذريه وحاولى أن تسرى عنه.

- وما رائك أن أقترح عليه السفر إلى بلاده وأن ارافقه، وأنت تعرفين أن أبي كان قايداً للاسطول البحرى التركى في تلك البلاد، ولا بد مهيّئاً لنا أسباب السفر والراحة هناك، سيما وأن قايد البحرية في تلك الأيالة صديقا حميماً له.

- فكرة صائبة سأعرضها على أبيك وارى أنه لا يمانع في ذلك بل ربما سرّه، أن تزورى بلاداً كان يعيش فيها أبوك أيام شبابه، وله فيها ذكر يات وسيدلك على ما فيها من أماكن للفرجة.

- عجلي- الليلة ساوريه في الامر وغداً نجد عندك الجواب.

- الجواب عندك بالموافقة من الآن أبوك لا يالو جهدا في سبيل ما يرضيك.

في الصباح قبل أن يغادر اللواء البيت إلى مكتبه في قيادة الأسطول البحري... قصد الجناح الذي تسكنه فاطمة مع زوجها عمارة... طرق الباب فتحت له فاطمة... وجد عماره يتناول طعامه في سريره، حضرته له الخادمة التي سلم لها الخدمة.

فسأل اللواء مخاطباً عماره: عماره أين يسكن أهلك في أيالة طرابلس.

- أجاب: بين قاليل ودحمان.

- اين تقع هذه المدينة؟ لم أسمع بها طيلة خدمتى في أيالة طرابلس.

- هي ليست مدينة... هي مكان بين صبراته وصرمان.

- آه صبراته أعرفها... هناك مرسى للمراكب الصغيرة قريباً من المكان حسب تقديري هو مرسى بين صبراته وصرمان.

- بالزبط... كنّا نخرج منه لصيد الحوت: البورى والشوله والمناني والدندش والدرغال.

- ما رائك في أن أدبر لك وفاطمة رحلة في البحر إلى ط ر ابلس، ومنها سأطلب من صاحب لي، هو أمر البحرية في الأيالة ليهيئ لكما مركباً صغيراً إلى ذلك المرسى الصغير، فتزورا أهلكم وتعود أن حين تطيب لكما العودة.

- أقتلني يا سمن البقر... والاّ زي ما أيقولو تاكلش البسيسة بالتمر يا سارح ؟؟؟.

- أعتبر نفسك إذا مسافراً مع فاطمة إلى بلادك قريباً.

- لعل فاطمة لا تريد السفر؟

- هي التي طلبت السفر... ألم تخبرك؟ وستسافران معاً أنشاء الله والعودة بالسلامة.

- نادت قاليل ودحمان، الله يعزها... نهار مبروك من صبحه عليك يا عماره.

- فاطمة رتبي ما تحتاجينه ستسافرى أنت وعماره على أول مركب قاصداً إياله طرابلس... قال اللواء التركى قايد البحرية... يحقق لابنته رغبتها لتسافر مع زوجها عماره.

- انشاء الله سيكون كل شيء جاهزاً قبل موعد السفر، شكراً يا والدي على ما تقدم لي من فضل.

- سأخبرك عندما أعود اليوم ظهرا بموعد سفر أول مركب إلى الايالة وسأبعث معك برسالة إلى صاحبي أوصيه بكما خبراً.

عاد اللواء وقت الظهر، وأخبر ابنته أن موعد سفر المركب القاصد طرابلس بعد يومين وستصل في بحر أسبوع من الإقلاع... وفي الرسالة أوصيت صاحب أن يهيئ لكما مركباً ينقلكما إلى المرسى القريب من مكان سكنى أهل عمارة تصلان بالسلامة.

- انشاء الله سأشتاقك وأمى كثيراً يا والدى حفظكما الله.

- هي أيام تزوران أهل زوجك وتعودان على خير في رعاية الله وحفظه.

وجاء يوم الرحيل فركبت فاطمة وزوجها المركب الذي يقصد طرابلس: بعد أسبوع رست المركب على رصيف الميناء فكان في استقبال فاطمة وزوجها ثلة من الجنود وخصّصت لحراستها ومرافقتها داخل المدينة وخارجها، وبعد أن قدم لها صديق والدها واجب الضيافة... نفدلها ما طلب والدها في رسالته، أركبها مركباً صغيراً إلى وجهتها التي تقصدها: وصل المركب الذي يقلها وزوجها عماره بعد مسيره يوم واحد في البحر- في المرسى كانت تنتظرها عربة حنطور: كاليس يجره حصانان أوصلهما إلى قاليل ودحمان، فكانت المفاجأة التي تنتظر فاطمة، فإذا هي قاليل ودحمان: سبخة ترعى فيها الأبل... قفز عماره من

العربة، وامتد تحت شجرة قندول وقال: أحي من حياني، واقتل من قتلني ما أغلاك يا قاليل، وما أعزك يا دحمان.

قالت فاطمة ولم تنزل من العربة: أهذه هي قاليل ودحمان؟!!!

- أجابها زوجها عماره: هذه هي التي كنت أقول عنها: (رقده بين قاليل ودحمان وربيع أمفقص نواره)... كنت لا تعرفينها... ما رائك بعد أن عرفتها؟

- رأى أن تبقى أنت فيها غير ماسوفاً عليك، أما أنا فعائدة حالا إلى المركب التي تنتظرني في المرسى، ثم إلى طرابلس، ومنها إلى إسطنبول، و الله لا يسمعنى عليك خبر. حكاية متداولة من التراث حدثت فعلا في العهد العثماني الثاني كما تروى بالتواتر.

بوعجاجه

بوعجاجه رجل سمح الوجه، كريم الخلق، مرحب بشوش، حلو الحديث، حاد الذكاء فطن نبيه، له خبرة طويلة، وتجربه نادرة مع وظيفته التي لها علاقة بتقديم الخدمات للمواطنين، فهو موظف في أرشيف أحدى المصالح العمومية، التي يتردّد عليها الناس بعضهم تتكرر وجوههم كل يوم تقريباً مثل: ضباط الاتصال في مكاتب الخدمات العامة- وهؤلاء يعرفهم بوعجاجه باسمائهم- وبعضهم أناس لا يطرقون أبواب هذه المصلحة الآ مرات قليلة، حين يحتاجون إلى استخراج شهادة ما، ويعتمدو ن على انفسهم في استخراجها... وحتى هؤلاء تحتفظ ذاكرة بوعجاجه بسماتهم حين يترددون عليه، مرة أو مرتين، يحفظ أرقام ملفاتهم عن ظهر قلب مهما طالت خانات تسلسلها الرقمي، وغالباً ما تجد بوعجاجه وهو وراء الحاجز بين ردهات الأرشيف والجمهور، يستقبل القادمين بفرح دائم، ووجه لا يعرف العبوس، يلهج بالاسماء التي يحفظها، وهو يستلم طلب ويسلم شهادة.

ذات يوم استقبل بوعجاجه ثلاثة من الرجال عرف فيما بعد أنهم من منطقة واحده، ولم يعرفهم من قبل، جاء ثلاثتهم يقدمون طلبات لاستخراج شهادات من الأرشيف الذي يرأسه بوعجاجه.

أخذ طلب الأول، فحصه طالعة الاسم، قال بوعجاجه: باهي هذا بوحلفايه.... حط أهنى... ثم أخذ الطلب الثاني باهى وهذا بو شعرايه... حط

معاه، ثم جاء دور الثالث... وهذا يوزيتايه... حط مع خوته... بعدها خاطب بوعجاجه الرجال الثلاثة قائلاً لهم: أشبيكم ما جبتوش معاكم بوسديره؟! خير بلاكم يا واشون عمي! أسماواتكم زي الجنون... تقول ساكنين في الشجر!!!

قال الفطن منهم: وأنت.... مش اسمك بوعجاجه؟!

قال بوعجاجه: تبى الحق أنا هو الجن الكبير... ضحك الجميع وانصرفوا، وظلت نادرة بوعجاجه.

الكلب الكبير

بين جماعات التهريب وهم غالباً من سكان الحدود تكثر الحكايات والمفارقات والنوادر، وتتعدد الأساليب والوسائل التي تصاحب عمليات التهريب، وترتبط بها على الجانبين، ابتكارات تتحدد وأساليب تتنوع بتنوع السلع المهربة.

في هذه الصفحة نعرض نموذجاً من تلك المفارقات التي تتحول إلى نوادر تتحدث بها مجالس الحديث.

أحد المهربين كان يضع في جببه كمية مما خف حمله وغلا ثمنه- الذهب- ويسلك طريقا غير مطروقة، تفادياً للعسس المراقبة، والتي تأخذ أحياناً شكل الكمين المتخفى بين الأحراش في المسالك الوعرة.

كان الرجل يسير في حذر عند تماس الخطوط الوهمية للحدود، ولم تبقى له الا خطوات ويجتاز منطقة الخطر- فجأة في ظلمة الليل يحس بحركة أحدثتها جماعة متخفية، من حرس الحدود- الجمارك- في أحد الجانبين. هنا ليس للرجل المهرب بدا من دس ما في جيبه قبل أن يباغنوه في شجرة صحراوية كانت الأقرب اليه، ثم مال عن خط سيره وأخذ يمشي مطمئناً بعد أن تخلص من الممنوع.

تنبهت جماعة المراقبة إلى وجود خيال يسير في الظلام، خاطبه أحدهم قائلاً: قف عندك... لا تموت.

وقف الرجل... أحاطوا به... أخذ أحدهم بفتشه قائلاً: طلع ما عندك.

- عندى الخير والبركة انشاء الله- عمك حوّام يبحث عن ضاله ضاعت

منه في الصحراء... أوليد خوى ما عندك ما اتفتش ولا ما تلقى كانش ما طرت هالماء: (وعاء يحمل فيه شرابه) أنبل بها ريقى اليوم لي خمس أيام وأنا نلهط ألتو ما القبتش ناقتي.

- واحد من جماعة المراقبة: أنت زعمه مش منهم يا (سوفاج) أنا بقولى تراش كان في جيبك وحذفته في بعد الحطبات.

- ورأس رويسك مانكساب ولا نعلام حاجة كان جردي في رقبتي.

- غدوه إيبانلك ما هي جرتك قاعده وين بتروح باللى حذفته أنطلعوه انطلعوه.... يا زوفرى.

- الله يهديك ويستر حالك... توه عمك اللى تشبح فيه قدامك جرده ما يغلقش فمه جره... هذا بتاع ذهب والا فلوس؟!

- باهى... خوذ وجهك وانسبط والصبح إيبان كل شيء.

مبالغة في التمويه يسال الرجل الجماعة عن معلم من معالم المنطقة يبعد عن المنطقة بمسافة ليؤكد لهم أنه حق يبحث عن ناقة ضاله، فيفيده أحدهم بانه في الاتجاه المضاد فيتظاهر الرجل بتصديقه ويقصد حيث أشار، وهو يعرف أن فرد الحراسة ضلله، وما إن يغيب عنهم في الظلام حتى يغير وجهة سيره ويخفى نفسه قريباً منهم ريثما يذهبون حين ينتهى وقت نوبتهم فيخف للبحث عن ضالته التي رمى بها في شجرة صغيرة (حطبه) لا تزال ذاكرته تحفظها وما حولها من علامات داله، انجلى النهار ولم يغادر الجماعة المكان الا قرب الضحى، وهو لا يزال مختبياً بين الأحراش، وحين لاحظهم من بعيد يركبون خيولهم ويغادرون المكان خف مسرعا إلى حيث رمى برأس ماله من الذهب في (حطبة) لعله يهتدي إليها قبل

أن تحل في المكان الجماعة المناوبة عن الأولى في الحراسة. كان واحد من الجماعة الأولى ويقال: أنه الرئس قد اختبى هو الآخر يراقب المكان في وضح النهار إذ أن التجارب علمنه كثيراً من أساليب المهربين التي لا تخطر على بال أحد الا من تمرس في التعامل معهم، وخبر الاسرار التي تتفتق عنها عقولهم الجبارة.

جاء الرجل المهرب يحث الخطى نحو المكان الذي رمى فيه بصرّته وقبل أن يصل إلى المكان ظهر الرجل الآخر على هيئة مهرب وهو رئيس جماعة مكافحة التهريب (الجمارك) قال المهرب الحقيقي يسأل المزيف ضنا منه أنه مهرب مثله... قال: قابلكش واحد من هو ذوك لكلاب؟

قال رئيس المكافحة: أنا الكلب الكبير فيهم.

اسقط في يد الرجل المهرب غير أنه لجأ إلى الحيلة وأسلوب الاغراء قال لصاحبه تبى الحق؟ كان الكذب إنجي... الحق هو اللي أنجيّي هيا يا سيدي أندوروا على الأمانة ولا حاسد برازق.. أنت النصف وأنا النصف قال الآخر الله إيبارك عهد منى ما نأخذ منك كان النصف.

ضل كل منهما يبحث في المكان... سبق رئيس المكافحة على صرّة الذهب قال للمهرب: تعالى ما أتّعبش روحك هانى القيت الأمانة... أنا شميتها من بعيد.

قال المهرب: وشن صنعة الكلب غير التنسنيس.

قال له رئيس المكافحة: الكف الباهي حتى في وجهي باهي علي اليمين ماني واخذ منك حاجة.... خوذ امانتك وبره عليك أمان الله.

حكاية سارح الجلاد

أولاً: عنوان هذه الحكاية يحتاج إلى تفسير وشرح وافي، فالمسمى الجلاد، أو سارح الجلاد مغرق في الشعبية إلى حد بعيد، ولا بد من توضيح: الجلاد... فالجلا د يعني: خليط من ماعز وضان.... الاعجف والأصغر والمتضاد في الأعمار والأنواع، هو: غير حلوب... فهذه عنز غفود فقدت رضيعها فجف ضرعها من اللبن، وتلك نعجة لم يعتلها ذكر (كبش) فضلت دون ولد، وذكور ماعز (براشن) عزلت عن القطيع خوفاً من مناوشاتها الغير ناضجة، فتقلق المعزاة والنعاج، إذاً فهو قطيع لا نفع فيه لراعية من ناحية در اللبن الذي يعتمد عليه في حياته إلى حد بعيد... هذا القطيع يعزل ويكلف به راعي خاص هو السارح: (الراعي) يبتعد به عن القطيع الكبير من ضان وماعز أثناء المرعى، ويقترب حين المبيت على أن يبقى معزولا لوحده، أما راعيه: السارح فيتزود من زاد راعي القطيع الرئيس وخاصة من الحليب أو الجبن وحين يبتعد الجلاد لأيام طلباً للمرعى الجيد أو لأسباب أخرى فان راعيه: سارح الجلاد، يحرم من الحليب ومشتقاته، ويضل زاده مقصوراً على دقيق السويق يلثه بالماء فقط.

وسارح الجلاد هذا يطابق حاله حال بطل حكايتنا هذه، لذا سميناه سارح الجلاد هو رجل شعبي صاحب نوادر وتعليقات وتخريجات من تاليفه يرمى بها من يكون في محيطه، أو من ي عايشه زماناً ومكانا في ظرف من الظروف أو حال من الأحوال. قرر هذا الرجل حين أقترب موسم الحج والعمرة، أن يؤدي هذه الفريضة، أخذ يستعد للسفر ويعلن لخاصته عزمه... تسامع الأقارب والأجوار

الخبر... جاءت اليه عمته- عجوز كبيرة بالسن وبرجلها عرج- تطلب مرافقته، فهي مسكينة توفي عنها زوجها منذ سنوات، وترك لها ولدا عاقاً، سافر خارج الوطن ولم يعد... لبي لعمّته طلبها فهو محرم لها وحقها عليه قرابة وشفقة... ثم جاءت خالته تطلب نفس الطلب- أصبح موقفه محرجا، لابد أن يقبل طلب خالته كما لبي طلب عمته فمنزلتهما الاجتماعية واخدة، ثم أن أخته أيضاً ترغب في أداء الفريضة وزوجها مريضا غير قادر على مرافقتها وسمح لها أن ترافق أخاها، فهو رفقة مامونة ومحرم في نفس الوقت ثم كانت بنت أخته وهي شابّه مطلقة تريد مرافقة أمها وتلح في الطلب على خالها... قال: اللى رقد للستين يرقد للستة... هو مش نايض مش نابض، كما تقول العامة... زوجته حقها عليه قبل الجميع، رغبت هي أيضاً في الحج... قال لها: والصغار من بينهم؟ وانت ماك تشبحى: تعلقو في رقبتي أربعة... خلى العام الجاى انشاء الله حين نفتك من ها لمصائب ونلهي بيك... يا الله نقدر أنرد بالى من هالشلاّق اللى تلقط زي الجلاد... من هنا تبدأ تعليقاته حسب الموقف.

تحركت الباخرة في الموعد المحدد، وكان صاحبنا يرافق ذلك القطيع من النساء محملا باشياء هن- وأكثرها لا لزوم له- صعد السلم بصعوبة شديدة يئن تحت ثقل الحمل متحسساً الدرجات، وحين يصل إلى الصطح يضع حمله، ويهبط مرة أخرى، ليأخذ بقية متعلقات الوفد الكريم، من حقائب ومعدات، ومزاود بها سويق، وأواني فخارية مملؤة قد يدا وأخرى زيتاً، حتى المحمصة جلبنها معهن وحصير من الدبس، وسجادات للصلاة... بدأت متاعب الرجل تظهر من اليوم الأول، تبين له أن حجة لن يكون سهلا مع هذا الجمع من النساء الا تكاليات، رغم ما بينهن من تفوقه قوة وحيوية مثل بنت أخته التي لم تعينه على شيء... قال

في سره: "تو هاللى زى الفرس... شن ناقصها ما ترفعش حتى دبشها ودبش أمها" وأضاف هذا أول دلو في قربتك يا مادى: قول يتمثل به فيما يشبه حالة، ثم في سره: (المخطر على أفايله)... جمع كل ادباثهم في مكان واحد، بعد أن صحبهم عبر السلم ماسكاً عمته التي برجلها عرج وهي أكبرهن سنا، أجلسها بجانب الأدباش، وطلب منها أن تبقى حيث هي، حتى يستلم مفاتيح الغرف المخصصة لوفده ويصحبهم جميعاً إلى أعلى الباخرة، أين توجد طوابق السكن.

صعد إلى مكتب الاستعلامات وصحبته بنت أخته لتتعرّف معه على الغرف ولتعينه بعد ذلك على توزيع الجماعة حسب رغباتهن... لاحظ منذ أن صعدت معه بنت أخته، أن عينها غير ملتزمة كما عبر في داخله سرا، فهي ترمى بنظرها الطائش ذلك التجمع المختلط رجالاً ونساء، وعقلها مشتتاً أحياناً... أستلم ثلاث غرف وزعهم، بينه وبين نفسه كالتالي: غرفة خصصها لعمته صحبة خالته، وغرفة لأخته وبنتها وغرفة له... أعلم بنت أخته بهذا التوزيع، وكتب رقم كل غرفة، قالت بنت أخته" أنا نبي مع خالتى ساسية، فكني منها أمى ديما وهي تقيد في اخوالى... قال في سره: ما زالك تقييد لحوال يا .... خالتك ساسية نبوها ترد بالها من عمتى مرا معاقة... من بينها.

- حط معا ها أمى... وأنا حطنى مع خا لتى سايبه مع أمي لا.

غير هيا غشو انجيبوا الدبش ونرقوهم وبعدين ساهل في سرّه تو ايبانلك يا منبج ما أنحطّك الاّ في دار قبالتي.

صعدت الجماعة إلى الطابق الأول: اين تقع الغرف التي طلبها أن تكون قريبة من المسجد لأن من رفاقه من هو عاجز.

وزع الغرف على المجموعة: وضع عمته مع أخته، ووضع مع خالته بنت أخته، و أخذ هو الغرفة المقابلة بحيث تسهل مراقبة تلك الهجالة كما يقول، لأنه لاحظ عليها الطيش وخفة العقل.

تحركت الباخرة تمخر عباب البحر في اتجاه الشرق من طرابلس مرورا ببنغازي حيث ينتظر ركاب آخرون في طريقهم إلى الحج... ضلت ثلاث أيام بلياليها حتى وصلت الميناء فالتحق الركاب المنتظرين.. في الأيام الثلاثة الأولى لم يبرحوا غرفهم الا في أوقات الصلاة، البعض منهم فقط: هو وخالته وبنت أخته، أما أخته فقد أصابها دوار البحر فضلت مع عمته تعتنى بها... بعد ذلك تخلفت خالته اذ فضلت البقاء مع المتخلفين ما دامت الصلاة تجوز حتى في الغرفة كما افتى الشيخ المرافق للبعثه، وضل يخرج هو وبنت أخته فقط، فهما لم يصبهما دوار البحر.. في جولة ذات مرة بين طوابق الباخرة، أكتشف ان في الباخر ة مقسماً يقدم الوجبات للركاب ثلاث مرات في اليوم، وأنها مجاناً، فهي محسوبة ضمن ثمن التذكرة.

كانت إعاشتهم في الأيام الأولى قبل هذا الاكتشاف، مكوناتها فقط دقيق السويق والمحمصة والقديد.. أخذ الحاج وقت كل وجبة يصحب جماعته إلى صالة المطعم، من يقدر منهم، ومن لا يقدر يأتي له بطعامه إلى غرفته، مثل عمته المعاقة، ومن لا يزال تحت تأثير دوار البحر.

وصلت الباخرة إلى مينا بنغازي فالتحق بها الركاب المنتظرين، ثم واصلت سيرها تعبر البحر الأبيض، ثم قناة السويس في البحر الأحمر حتى مينا جده.

توسعت علاقات الحاج علي بعد أسبوع على ظهر الباخرة وتعددت مع رفاق سفر من مختلف المدن والقرى والأرياف في ليبيا، و خاصة من بنغازي، تعرف على

كثير من الحجاج.. معرفة سطحية في بعض الحالات: كالاسم و البلدة والمهنة وما اليها، وتعارف في حالات أخرى معرفة تكاد ترقى إلى الصداقة والرفقة الحميمية، يلتقي فيها مع أشخاص مخصوصين تكونت بينهم وبين الحاج على روابط وثيقة كما كان مع مراجع من بلدة سلوق، كان هو الآخر يصحب أخته للحج.

كان مراجع أصفر من الحاج على بخمس سنوات، وهو أعزب ذهب يؤدي فريضة الحج عن أبيه المتوفي والذي أوصى بذلك أبنه قبل وفاته، أما أخته فهي وحيدة أبيها ولم يشاء أن يتركها لوحدها، فباعت من نصيبها أغناماً تركها لها والده ورغبت أن ترافق أخاها فهي أرملة مات عنها زوجها ولم تنجب منه.

توطدت الصحبة بين الحاج على ومراجع من جهة وبين أخت مراجع وبنت أختى الحاج على من جهة أخرى، فالشابتان المطلقة والأرملة متقاربتان في العمر، كانت أخت مراجع في الثلاثين وبنت أخت الحاج تصفرها بسنتين.

أحياناً تفضّل النساء الكبيرات: خالة على وعمته وأخته الصلاة في غرفهن، ويخرج مراجع وأخته وعلى وبنت أخته إلى الصلاة في المسجد بعدها يجلسون جميعاً في المقهى الخاص بالطابق الأول.... تذهب الأحاديث مذاهب شتى، على يتحدث مع مراجع وبنت أخت على تتحدث مع أخت مراجع، ولا يخلو حديث النساء من بعض الخصوصيات، فكانت الأرملة تتحدث عن زوجها الراحل حديثاً تذكره بالخير، وتترحم عليه أثناء الحديث، أما المطلق بنت أخت الحاج على لا تفتي تذكر مطلقها باشنع النعوت، وتلقى عليه باللائحة بسبب طلاقها منه، فهو تقول: بخيل مقتر، ومنتقد سباب، وشرس الطباع، غضوب لأتفه الأسباب لا يهتم بنظافة فمه وجسمه، ولا يعتني بلباسه، كذلك كرهت معاشرته فدبرت التخلص منه بشتى الوسائل فطلقها مكرها، وهو كما تقول نادما أشد الندم يريد

مراجعتها وهي ترفض... وكانت سالمين أخت مراجع تسمع منها وتصدقها في ما تقول، وما تقوله بنت أخت الحاج فهو محض خيال، لا أساس له من الصحة، لكن قمر- اسم بنت أخت الحاج علي- كان لها أسلوب يسحر سامعه... بدأت سالمين ترتاح إلى قمر فكانت غالب ما تخرج من غرفتها في القاطع المقابل، وتأتي إلى صاحبتها فتصحبها إلى المسجد، وبعد أنتهاء الصلاة تخرجان إلى الجلوس في المقهى، أو إلى الصطح الجانبي للباخرة، حيث توجد كراسي على حافة السطح تحميها حواجز، فتجلسان فترة من الوقت تتطلعان إلى البحر وحركة المياه تدفعها التربينات في مؤخرة الباخرة، مشكلة خطاً أبيضًا كانه طريق بتلاش كلما أبتعد أخره، وفي هذه الجلسات سوى في المقهى أو على السطح يكون الوقت مناسباً للمزيد من الحديث الحر دونما رقيب ولو من بعيد، كما كان يفعل الحاج علي مع بنت أخته، خوف عليها من الرفث حتى قبل دخولها في الميقات.

في هذه الجلسات التي تعقد بين شابتين أحدهما أرملة والأخرى مطلقة... لابد أن يكون هناك، تبادل أحاديث الأمانى والأحلام... سالمين كانت أكثر تعقلاً وتحفظاً في الحديث حول ما يتعلق بمستقبلها في الحياة، فهى أرملة رجل كانت تحبه وتحترمه، والآن تترحم عليه في قبره، وقد رحل في مقتبل عمره وترك لها أجمل الذكريات، لاكنها انسانة واقعية وتعرف وأن كانت لا تفكر في الزواج في الوقت الحالي الا أن أهلها وعلى رأسهم اخوها تعرف أنهم لن يرضوا لها حياة العازبات، وأنهم لابد متحدثون معها في هذا الموضوع وسوف يطرق الخطاب بابها في يوم من الأيام.

تسألها قمر، وهل من أحد تراه المرشح الأول لها من قبل أهلها؟

- تجيب سالمين: هناك أبن عمتى جار لنا رجل من وجوه اقاربنا، لكنه

متزوج من أثنتيتن وله من البنات والأولاد ماشا ء الله.

- لاه.. أوخيتى آش لازك عالضيق... الوسع راحة... هو ما شدوهش ثنتين؟!

- هو عينه والسعة... ويعرف وين أخط كراعه... قال بنت خالى ما أنفو تهاشي.

- وانت شن قولك فيه؟

- سكوت.. والله ما فيه ما ينعاب غير كيف ما قتلك واشونه واجد.

- ونساوينه زوز... ضربتين في الرأس يوجعو.

- شوفى شن أيقول المكتوب... أحنا نقولو قول وربى يفعل فعل.

- لا حتى أنت أو خيتي سالمين... باين الجمل عينه في الكرمه.. راضيه العين تبيه غير تكذبي على روحك دائرة روحك ماكش هني.

- تبي الحق خيتى قمر أنا ما نختار عليه حد، غير ما زال كابر علي ننسى المرحوم فيسع شن أيقولو عليّ الناس.. مات راجلها نساته وحنّت وحنت.

- شن بيقولو؟ حنه وخلاخل وراجل آخر،... مهناش وحده في عمرك مات راجلها وقعدت بلا راجل... وأنت عيني ما تضرّكش..... زين وصغر الف واحد يتمناك. كانت قمر قد تعمدت هذا الحوار الذي دخلت فيه مع سالمين... بسؤالها هل من مرشح لها، ذلك لتجرها إلى الخوض في هذا الموضوع الذي يمهما هي بالدرجة الأولى، وهي المطلقة منذ ستة أشهر فقط، وقد تحركت مشاعرها العاطفية نحو أكثر من واحد في حينهم، لكنها لم تقرر مصيرها بعد... وفي هذه الأيام جنحت عواطفها نحو مراجع هذا الشاب الخجول المؤدب، ذو الوسامة البدوية الظاهرة في تقاطيع وجهه وبريق عينيه... شموخه وثقته بنفسه... فهي عندما ا لتقت به لأول مرة صحبة أخت ه سالمين، وكانت هي عندما التقيت به

مع خالها على في المقهي بعد فراغهم من الصلاة، حينما جلسوا لفترة وجيزة، لاحظت عليه الرزانة والتعقل وانتقاء الكلمات عندما يتحدث باسلوبه البدوي، وحين يبدى الراى في بعض القضايا فتكون الحكمة والصواب..... وأحيانا كانت له تعليقات دقيقة ساخرة تدعو للضحك دون تحفظ... من الجميع، فالرجل يعجب بمن يضحكه والمرأة تحبه، من ثمة كانت قمر تحب مراجع في سرها ولم تبدئية علنا حتى لرفيقتها سالمين أخت مراجع هذا إلى جانب أعجابها بمظهره الخارجي، رغم أنه ليس في مكان التأنق واختيار الملبس.

فكانت تتصيد الفرص لتبوح بما في نفسها من ميل مراجع، وما يلامس عاطفتها من مشاعر عشقية نحوه... وهذه سالمين يملها تجد عندها سلوى، وربما تشجيعاً، ثم هما من ناحية أخرى ستلقى بثقل هذه المشاعر والأحاسيس إلى من تأنس فيه مشاركة و جدانية، وما سالمين الأ محلاًّ للثقة وحفظ الاسرار وقد ارتاحت اليها كثيراً أثناء جلستهما الانفرادية تراقبان حركة سير الباخرة، وتتأملان في زرقة السماء والبحر وهما فوق السطح.

كانت قمر تراقب باب غرفة مراجع وسالمين في القاطع المقابل من نافذة صغيرة تعلو الغرفة التي تسكنها مع خالتها ساسية... رأت مراجع يخرج إلى المسجد لأداء صلاة العصر بعد أن ارتفع الأذان، وكان من عادته أن يمر على الحاج على خالها لما تأكدت من ذهابهما معاً إلى المسجد، خرجت مسرعة في زيارة إلى سالمين... طرقت باب الغرفة رقم ١٢.. فتحت سالمين الباب... مرحبه... مرحبه: كيف عرفت أنا بيدي قاعدة بروحي؟

جلست قمر على حافة سرير يقابل آخر كانت تجلس عليه سالمين، حين قامت ترحب بها ثم جلست باشة في وجه زائرتها، وهى تكرر الترحيب.

- أجابت قمر: قلبي دليلي... قالى سالمين بروحها... أمشي أشي بيك تشحيلي... تقولى ما تعرفينيش؟!

- نقرأ في عيونك.

- شن قالو انشاء الله خير.

- فيهم كلام... كلام واجد.. مخبياته عليّ من قبل.. العيون تفضح مولاها.

- قلت الحق... والله الا عندى كلام... سر... والسر اللى ما يقدرش إدسّه حد.

- قوليه... سرك في بير... أنا خيتك.

- مراجع يا سالمين.. سرى مراجع.

- سلامته مراجع؟ وقد فطنت إلى سرها الذي تفضحه عيونها ولا يستطيع قلبها الاحتفاظ به... مراجع تحبيه؟؟

- سكوت.

- الحب مش عيب... كلنا حبينا... وجربنا... الساعة أحكيلى... أمتى هذا صار أنا بيدى عارفه الحب ما إشاور... يدخل القلب من شبحة عين... من كلمة.. من حاجات كثير يا خيتي... مش أنت أول من حب، وأنا بيدى معاك.. اللى تبيه منى حاضر... غير خلى كل شيء بشويش.

- انجيك لي ويسلمك... بس كيف هو يعرف... أنا نحبه؟؟

- خلى هذا على خيتك... وخليك رزينه... وأنت حويته عليك: زين وعين خلي بالك راهو الخف عوق السماحه.

وعدت قمر سالمين بأن تكون عاقلة رزينة.. والا تظهر عواطفها حتى لأهلها. والآ تتعرض إلى مراجع لا من بعيد ولا من قريب، بحيث يغطن إلى

نواياها، وما في قلبها من مشاعر الحب و الغرام به، فالرجل تعرف أنه يزهد في من تلاحقه أو حتى تبدأه بكلمة فيها تلميح بما في دخيلتها، وخرجت تكاد تطير من الفرح لموقف سالمين المتفهم، والمتعاطف والناصح.

عاد الحاج على من المسجد بعد صلاة المغرب رفقه صاحبه مراجع، فدخل كل إلى غرفته حين أحست خالته به دخل غرفته جاءت اليه على عجل وهي تطلب منه في رجاء:

- زود أو ليد أختى: عمتك كملت منها النفه، بكرى وهى اتنق علينا- دورولى نفّه واحنا كمشه ولايا، وين نعرفوا أبيعو في النفه.

- نفه؟ّ وانا منين انجيب لها النفه؟ .... هناك نفه إبيعو فيها هنى؟!

- دبر أو ليد أختى.. راهي معا دش تسكت أطول علينا الليلة.

- كانت قمر تقف بجانب أمها... وقد سمعت خالها يقول: أمنين انجيب النفه؟

قالت قمر بكري بعد صلاة الظهر، شفت شيباني طالع من الجامع طلع حكّه من جيبه فيها نفّه، خدى منها ودسها في جيب فرملته.

- وأنت أش رافعك غادى... يا أمهره... وعينك على الشيباني والصغير... مش قتلك صلى في دارك مع خالتك!!

- مشيت أنا وسالمين صلينا وبعدين قعدنا في القهوة.

- ما سدّك الجامع زدت كملت القهوة... القهوة ما عادش تمشيلها الا معاي أنا.

- مشيت مع سالمين قالت لي تعالى ناخذو قهوة قلت لها باهي.

كيف الحاج عن مجادلتها حين ذكرت سالمين مرتين، وكأنها تتعمد ذلك، فخالها لاحظت عليه ولاحظ عليه كامل الوفد بما فيهم عمته المعاقة التي لم تخرج

من غرفتها ... لاحظوا أنه يختلس نظرات معروفة إلى سالمين حين ترافق قمر لقضاء غرض من الأغراض، أو حين تزور عمته للسؤال عن صحتها.

- تو المهم وين ريتيه الشيباني اللى عند النفه... خلى فمشي اندور لها نفه هالنشفه... تعرفيهش وين سكن؟

- خطم هكّي ... أبقول يسكن أمقابل سالمين ومراجع... مازالت تذكر سالمين.

- تو نمشي ننشد مراجع بالك يعرف غرفته - خطرت بباله سالمين، ربما يجدها بمفردها... مسافر ومسلم على خليفة- كما يقال... هانى ماشي انشاء الله نلقالها نفه هي عارفه هناك نفه على ظهر المالح!

خرج الحاج على قاصداً مضان غرفة الرجل صاحب النفه، وقبل أن يصل إلى غرفة مراجع وسالمين، التقى برجل خارجا من غرفته كما وصفته قمر، فاطلق عليه السلام ثم ساله يا عمى الحاج عندكشش نفه؟

- عندى يا ولدي... الحاجة بين الناس... النفه الله لا يوريك مكروه حشيشه حرفه مولاها ما يقدرش يقعد بلاها....هاك خوذ شغطه.

- لا يا عمى الحاج أنا ما أنفش... عندى عمتى عزوز كبيره، صاحبة حشبشة كملت منها النفه اليوم.. نهار كاهل وهي لاوية رأسها... نشفتنا هاتولى النفه- ما عرفناش منين انجيبو هالها... الله يرحم ولدك أعطيني شوي في كاغط كان تعمل معروف.

- خوذ يا ولدي... غالي وطلب رخيص.... أنا عارف حشبشة النفه مولاها ما يصبرش.

أخذ من الرجل كمية من النفه في صرّة صغيره، كان الرجل يحتفظ بها

في جيبه وقال له: كان كملت منها تعالى خوذ لها يا ولدى راهي الحشائش ما يقدرش يصبر بلاها.

أخذ منه الصرّة قائلا له: الله يسترك يا عمى الحاج ويبلغ الله قصدك... حج مبرور وذنب مغفور انشاء الله ويطول الله عمرك.

فرح من جهة لأنه حصل على مطلب عّمته، وضمنها لها طول الرحلة في البحر حتى يصل إلى جده، فربما يجد من يتعاطى النفه أو يبيعها فالحج تجد فيه مالاً يخطر على بالك لكن من جهة أخرى استاء لأن الفرصة لم تمكنه من الوصول إلى غرفة مراجع ليرى سالمين ولو للحظات سريعة حتى لو كان مراجع موجوداً، وكان يؤمل أن لا يكون موجودا، فتفتح له سالمين الباب ليكحل عينه بطلتها، وربما تبادل بعض كلمات بعد التحية كأن يسألها عن شائب يسكن بالقرب منهما.. غير أن الحظ لم يحالفه، فوجد الشائب في الممر قبل أن يصل إلى غرفة مراجع.

جاء إلى عمته بصرة النفه فأعطاها أياها وقال لها: خوذى قعدى راسك والله الا عندك حظ من السماء.. القيت الشبياني اللى قالت عليه قمر جايب معاه تموين شهر كامل، وزاد قالى كان كملت عمتك تعالى خوذ لها... بحبحي غير أدعيله وأدعى عيلنا معاه، و ادعى لي الشالق بنت أختي... أ و كان غير ادير عقلها في رأسها.

– ندعيلكم أكل أوليد خوي وربي يقبل بجاه مكه واللى زارها.

– وزيدي ادعى، هالشالق بنت أختى انشاء الله تكمل حجتها على خير– كانت قمر واقفة بجانبه– ونظر اليها نظرة ذات معنى.

– إنشاء الله أوليد خوى في الحفظ والصون أحنا والسامعين يارب الصالحين.

لم تستطع سالمين الاحتفاظ بسرها طويلا، فصاحب السر يضيق به صدره....

ثم هي قد طبلت منها قمر ضمناً أن تبلغ الرسالة... فلا بأس أن تبدأ بالتلميح، وأن لم تصل رسالتها صرحت بها... لكن مراجع من الفطنه و النباهة بمكان بحيث لا تفوته الإشارة أو مبطن الكلام، فما أن قالت سالمين: شن رائك في قمر بنت أخت الحاج على؟ .... حتى تفطن إلى سؤالها، وما وراء سؤالها فأجاب: خفيفة، وأضاف كل زين فيه لولا.

- لا... الزين حدك... والخفه من الصغر.... أيقولو الناس لو ماكنا صغار مانلومو أصغار:

- أنا سمعت من خالها... قال: مفارقة، مانيش عارف ليش.

- امفارقة حق... لكن شن قعدت عند راجلها؟ّ ست شهور بس.

- ما قالتش ليك علاش فارقاته؟

- نقناق وبخيل... وما هو ش صاحب صواب على ما قالت.

- البخل طبع ، وطبع أحرف.... لكن النقنقه عندها سبب وقلة المعرفة معاطى من عند العاطى، وحتى اللي قال قوله مش أكله صحيح.

- صدقت... لكن التنقنيق، قالت على ما أهناك حاجة... أدور حتى سبله صغيرة ويبدأ يسب ويكفر، وهذا مش كار التريس الباهى.

- النقنقه للمرا الخائبة- ما هيش للتريس... يصمت قليلاً، ثم يضيف وأنت شن رائك؟!

- فيش تحاول أن تتجاهل ما فطن اليه وتضل تنتظر الجواب عن سؤال تفصح عنه ملامح وجهه.

- يا بنت أمي ما أديريش روحك ما تدريش... شن قالت لك قمر بالزبط... شنوا اللى في عقلها.

- ما عليك حجيده خيتى قمر تبيك.

- وأنا قلت لك شنو رائك... درتي روحك ما فهمتيش، وأنت بنت الشيخ عوض يفهمها وهي طائرة.

- قلت الحق... غير أيقولو رقى العو بالتسلس والكلام للفطين إشارة والا غمزة عين.

- ما زال مع بعضنا أسبوع آخر في البحر... ونبو شهر في الحج ... ويقولوا اللى تبات معاه ليلة تعرف نومه... وأنت ما زالك أكثر من شهر معاها... والجلام قال: (اللى غابيه في الصوف تظهر على رأس الجلم).

- الله يرحم من عقبك بابا وأم... خلى كل شيء علي وأختك شن تودلك يا نور العين. كثرت طلبات (الجماعة) الوفد، المسؤل عنها الحاج على، وضاق درعاً بالبحث عن تلك الطلبات في مضانها. وتوفيرها مكرها بحكم كفالته للجماعة منذ أن وافق على أن يكن في معيته، وهي جماعة نسائية بالكامل أتكالية إلى أبعد الحدود في كل شيء تقريباً فهذه تطلب نفه أمس، وأخرى تريد الصلاة في المسجد جميع الأوقات بما فيها صلاة الفجر وهو يخاف أن تضل مكانها فلا تعود، وأخرى من عادتها شرب الشاهي الأخضر ثلاث مرات في اليوم، والا تكسر رأسها كما تقول، وفي اعداد الشاهي صعوبة ومشقة، فالموقد الخاص (الفرنيلو) الذي احضرته معها ممنوع بتعليمات من طاقم الباخرة، وبنت أخته لها حاجة سرية لا تستطيع البوح بها اليه، وقد نفذ منها الاحتياط، فلا بد من واسطة تخبره بطلبها... وكلهن يستحين منه، حين يسمين له تلك الحاجة، لكن عمته وهي الكبيرة بالسن تجرأت فاستخدمت التوريه فقالت له: (وليدى خوى: جيب لبنت أختك حاجة النسى).

لم يفطن في البداية.. سكت برهة ثم قال بلسانه اللاذع.. هادئ وين نلقوها يا عمتى هاذي زي النفه تنطلب طلبه.. حاجة النس تتطلب من النس.. تمششى تسومح تلقاش وحده في عمرها حاسبه حسابها وجائيه احتياط تطلب منها... تو لو كان هناك سوق نشريلها منه، ما دام أحنا في الغريق يا كبدي ما عندى ما أنذير لها... أضاف كلمة، لأول مرة تخطر على باله- أوحي بها الموقف- تستاهل يا سارح الجلاد وخرج جاءت بعده بنت أخته إلى عمته في غرفتها وسأتها: قلتيله يا حاجة؟

- قتله... قالك برى تلقيش كيفك تطلبي منها... ما عنداش منين أجيبها... بهذلتوه يا ودى كل وحده من جيهة.. فد أوليد خوى مسكين... وهو لسانه أحرف هوين سمو روحه سارح الجلاد.

- شنو سمى روحه سارح الجلاد؟

- هذا شور خاطيك يا بنتي قليل من يفهمه.. لكن هو حق صائر له زي سارح الجلاد.

تسامع الجماعة الوفد بالاسم الجديد الذي أطلق الحاج علي على نفسه سارح الجلاد؟ تضاحك النسوه جميعهم: أخته وخالته وعمته من هذه اللذعه اللسانية التي قصدهن بها الحاج على... وسمعتها أيضاً سالمين من قمر التي كانت تجهل معناها إلى أن تحايلت على حالتها ساسية حتى فسرتها لها، وهي تضحك حتى سالت دموعها وشرقت بريقها... سالمين أيضاً ضحكت من قلبها وأحمر وجهها خجلاً وحياء، رغم أنها كانت لوحدها مع قمر، وكانت تكرر: فاهمه.... فاهمة حين حاولت قمر توضيح المعنى أكثر، لأنها بنت موال تعرف مثل هذه المصطلحات المتداولة في البادية على سبيل التورية.

أصبح الحاح علي ينعت بين أفراد الوفد (جماعته) بهذا الاسم: جاء سارح الجلاد مش سارج الجلاد... ناد وسارح الجلاد... قولو لسارح الجلاد... وهو مقتنعاً بهذا الاسم الذي أطلقه على نفسه، وكان يخاطب نفسه في سره: لو كان مش مدعى ولديّه راني جبت عيلتى معاي، منها ربحت حجتها، ومنها أنا ما نقعدش بايت في الصقع توها لجلاد اللى نهار وليل سارح بيه أش جتني منه من ثمره الغدد و الصهد. أنا ما زال أنديرها!! نلقاه أن الواحد ساعات تنذهب شيرته.

جد في حياة الجماعة أمران: الأول الاسم الذي أطلق علي على نفسه، وأصبح يتداول لانهما من عمر وأحد والسر بينها مباحاً، وضلت تتندر ان بهذا النعت الذي أصاب الحقيقة، كما كانتا تفسران الأمر بوضوح بينهما... الوحيد الذي لم يتنامي إلى سمعه هذا الاسم بعد، هو مراجع... أما الأمر الثاني هو تعلق قمر بمراجع عاطفياً... أمر لم تسمع به أمها ولا خالتها ساسية ولا عمة الحاج علي ولا الجاح علي نفسه... فقط هو سر ما زال بين ثلاثة: قمر وسالمين ومراجع... أما قمر فهي تزداد كل يوم اشتعالاً عشقياً تبوح به إلى سالمين كلما واتتها الفرصة، وسالمين متواطينة معها إلى حد ما، وأن كانت تراجع نفسها أحياناً بشأن مستقبل هذا التعلق الذى طرأ على صاحبتها... فهي سالمين- غير مرحبة كثيراً بفكرة أن يتزوج مراجع من قمر.. أولا لأنها مطلقه وهو اعزب لم يتزوج بعد، وهذه تعد منقصة وتصرف غير معتاد الا قليلاً، وخاصة في مجتمع البادية والأمر الثاني هي من غرب البلاد- قمر- بل من أقصى طرفها الغربي... وهما من شرق البلاد من بادية برقه، والمسافة بين المكانين تعد بميئات الكيلو مترات، والتواصل غير ميسورا في كل الحالات، ربما مرة في السنة وبتكاليف تكلف وقتاً ومالاً... ومع هذا وذلك، سالمين لا تعجبها خفة العقل في تصرفات

قمر أحيانا، وأن غفرت لها سلوكها في بعض المرات لصغر منها لكنها لا تغفر لها خفة العقل التي هي طبع متأصل فيها... أما مراجع فهو شاب وأن كان في مقتبل العمر لكنه ذو عقل راجع ورأى حصيف، وحدس يصدق في أغلب الأوقات، هو لا يتسرع في مثل هذه الأمور... يأخذ الأمر بروية وتؤده، ويزن كل شيء بمزان العقل، وإذا قال كلمته فهي الحسم القاطع... والرجل منذ أن لمّحت له سالمين بنية قمر وعرضها غير المباشر، أو لنقل تعلقها به الذى لم تصرح الا بقلة قليلة منه لسالمين، خوف أن تحسبها خفيفة غير متزنة وطائشة... كان مراجع يقلّب الأمر على وجهه... يدرس الجانب الإيجابي فيه... وما سلبياته... كيف يتقبله أهله ومحيطه لو تم فعلا؟ وهو من معترض ولو بتعليق عابر؟ وربما حتى مواجهة صريحة من خاصته والأقارب، وما يكون موقفه حينئذ؟ هل من حجة يقابلهم بها. أو ذريعة يضطر للتذرع بها؟ وهل من ضرورة تجعله يقف مثل هذه المواقف أمام أصحابه وأقاربه ومحبيه؟ ذات ليلة وقد خرج الحاج على رفقه صاحبه مراجع بعد صلاة العشاء في المسجد إلى المقهى القريب من قاطع السكن في الطابق الأول من الباخرة، أجتمعت النسوة متكدسات في غرفة الحاجة سليمة المعاقة، وكانت معهن في هذه المرة سالمين بعد أن استأذنت أخاها في أن تذهب إلى جماعة الحاج علي لقضاء بعض الوقت فاذن لها... كان الحديث غالباً ما تدير دفته الحاجة سليمة المعاقة فهي أكبر سنا وأكثر خبرة بالحياة، ولها من حذلقة اللسان ولذعته وسرعة الخاطر، والتعليقات الساخرة، التي ورثها منها الحاج علي بحكم الجينات وقانون الوراثة.

تكلمت الحاجة سليمة فقالت: سامحونى وتسامحنى ه المرا البرانية، وما براني غير الشيطان... أو ليدخوى شقيتوه وبهذلتو بحاله... وهو نهار كامل: جيب

جيب، ما زال غير حليب الفوله ما طلبتوهش... حتى من قطن بنت أخته هاللى ما فالحه غير أتلق من مكان لمكان.. ما دارتشي حسابها.. ما جابتش ما إسدها... هاذى حاجة تنطلب من خالك؟.... كان ماكش فانس؟

ومن يقدر يطلبها منكم؟ لو كان مش أنا واطيت راس وطلبتها بالمعنى وهو فهيم قالى: باهي... باهي يا عمتى ودنقر وطلع.

كن يضحكن على كل كلمة تنطق بها، وكانت سالمين وقمر تتغامزان.

قالت قمر: هو شن سمى روحه يا عمتى سليمه؟!

- شن سمى روحه سارح... الجلاد، وحق هو سارح جلاد... وأنتم غير الغفود وأختها... شاقي وموشي لاقي الغدد انشاء الله والصهد زى ما نسمع فيه أيقول غير أنتم الفهم اجيبه ربي.

تكلمت أخته: واحنا شن نقدرو انديرو له يا حاجة سليمه؟... أخته وخالته وبنت أخته، وأنت عمته... حارمات أكل... ما حلال عليه كانش سالمين كان بي تخطبوها له ها هي تسمع.

- عمته سليمة: بنت خيار الناس... وهو يستاهلها.. لكن أحنا وين والا وين؟! ؟؟ أنديرو عرس أطبل في هالضيق واحنا على ظهر المالح؟

- خالته: لا أحنا نخطبو هاله تو، والعرس بعد الحج والعمرة انشاء الله.

- سالمين: سيد الرجال، والراجل ليه الحق في أربعه... غيرها ذي حاجة تبى وقتها واحنا تو من في بابها... ياسرنا عرفنا ناس خير مننا.

- عمته: لا احنا اللى عرفنا ناس ما تنقالش بعدهم... مشاء الله على سالمين وعلى خوها عقل وزين، أو هره، وفم ما أطلع غير الكلمة الطيبة اللى تفضي القلب ربي يكثر من امثاله ويزيد في ماله.

– سالمين: الله اخليك يا عمتى سليمة على رائك فينا إنشاء الله ربي يقدرنا على الفعل الزين معاكم ومع الناس الكل، وربي بقى علينا الستر.

الحاجة سليمة تسأل سالمين: بننشدك يا بنتي، والنشده ما فيها عيب هو خوك مراجع خيره ما تعيلش لتو؟!

– سالمين أنقولك يا خالتى الحاجة: كان واتى كل شيء... باتى وتى لزوم الفرح كامل... وكان ناوى الحج في السنه هاذى، وبعد ما إروح بنذير و الفرح... لكن أحنا انقولو قول وربي يفعل فعل... ليّام كملت توفى باتى.

– ام قمر: الله يرحمه ويوسع عليه ... عقب راجل.

– سالمين: ما كملتش ليك... خوى مراجع قال : ما دام باتى كان ناوى الحج نمشي أنا نجح عليه، وقالى ما تقعد بش بروحك هيا حجى معاى.

– الحاجة سليمة: ومراجع خويك عنده (حويمه)... بنقول عنده من أمقابله؟

– عنده بنت سيده... مسميه عليه من صغرها... لكن مراجع يقول: البعيد خير ماك تعرفي بنت السيد ديما مكروهه.

– حق ابنيتى... بنت العمة دم... وحتى سيدى النبي يقول: الدم إدس.

اشارت الحاجة سليمة إلى الحديث الذي لا تحفظ نصه، وأتت بمعناه... كانت في هذه الاثناء كل النسوة اذانا صاغية إلى إلى الحوار الذي دار بين الحاجة سليمه وسالمين وخاصة أم قمر، وقمر نفسها الذي كان ترمتر الأمل عندها يهبط ويصعد... هبط عندما قالت سالمين: عنده بنت سيده، إلى الصفر، وصعد إلى أعلى قياس حين سمعتها تقول: هو البعيد خير كما قال مراجع.

– أم قمر صدق يا بنتى البعيد خير... هاك تشجى في قمر بنتى تهجلت في

خيار شبابها، ست شهور قعدتهم معاه، محسوب في ذمته، وهم اكلهم في بيت بوها... يومك وثانيك وهي مروحه غضبانه، مناشى؟ من قرب الدم.

- سالمين: مكاتيب يا أختي تبره ترفع وتجيب، وتبعّد القريب، وتقرب البعيد.

- صدقتى يا بنتى، واش خلانا انتلاقو أحنا وأياكم، واحد من الغرب ولأخر من الشرق... هو المكتوب، وفي ها لسفره المباركة وأحنا قاصدين بيت ربي.

كان حوار سالمين مع أم قمر يبعث الأمل في نفس قمر... الفال الحسن أحياناً يحقق الامانى، وفي حوارهما كان هناك فال: البعيد خير... المكاتيب تجيب... المكتوب يقرب البعيد.

وكنا النسوة الأخريات بين متعاطفات مع قمر وأمها، ومحايدات لا شأن لهن بأمانى قمر وأمها... كانت العجوز الكبيرة تحلل كل ما دار في الحوار من معاني ومرامي ونوايا في كلام تبره أم قمر، ومجاملة وحتى مشاركة وجدانية في ما تقوله سالمين لذلك أنهت الحوار بقولها: همسا "اللى في قلب السلوقي في قلب لرنب" ثم بصوت مسموع، ترى شوفى يا قمر خالك جاش.

- بقولى ما جاش داره أتبان سكّره.

- لا جى بكرى نشيح فيه ؟؟ فيده كيس ترى شن فيه قالت خالته.

- العجوز: أما له الظهر صار... هو ما أجيش كان ما يصلّى الظهر.. نوضو يا بناويت كان بتصلو، والهو بغداكم تو قريب أخشى عليكم.

- سالمين تبتسم وتقول: وينهم البناويت يا خالتى سليمه؟

- العجوز: البناويت عندنا أحنا في الغرب هم: الصبايا عندكم في الشرق.

- سالمين: صار الشرق شرق، والغرب غرب؟

- أم قمر: كل بلاد وعزاها كيف ما يقول المثل.

- العجوز: وأنت ما القيتى غيرها لمثل؟ والا ماكش عارفه معناه؟ غير تأخذى واطلعي من فمك اللى إجى عليه.

العجوز الثانية خالة الحاج: عارفاته غير ما توزنش، اللى أجى على فمها تقوله زى ما قلت.

- أم قمر: وعلاش نوزن؟... أحنى منو معانا يراني علاش الحشم؟

- الحاجة سليمه: معانا سالمين بنية صغيرة وبرانبه، وانت ديمازى الدجاجه تخلط في الشعير بالنخاله.

- سالمين: وش معناها يا خالتى سليمة اللى ما يدرى يقول سبول، ... أول مره نسمعه؟

- تبره: علاش مش طائبه؟ درتينى نيه والا درويشه فاقده عقلها.

- سليمة: أنت ما كش نية ودرويشه بس... أنت ناقصك فورين.

- تبره: كبر قدرك يا حاجة سليمة... تو مش لازم زيد الدقيق زيد الماء.

- العجوز الثانية: خلى الزميطة أتبارك... كانكم بتقعدو في ها لموال لاعاد تصلو ظهر، ولا أديرو غدى. بري أنت يا سالمين تو راهو خوك روح كانك بتقعدى مع هالعزيز الخارفات ما عادش أديري ثمره.

وخرجت سالمين إلى غرفتها في القاطع الآخر تشيعها... قمر علها تضفر بنظره ولو خاطفة من طلة مراجع تكحل بها عينها، متذرعة بمرافقه سالمين لتوصلها إلى غرفتها، في حالة ما ظبطها خالها خارج غرفتها، فهو لا يجادل في أمر يتعلق بسالمين وحين يذكر أسمها في حضرته يضل صامطا محلق في خيال يحفظ سره في صدره.

بعد صلاة العصر أخذت الباخرة تطلق أبواقها معلنة قرب وصولها إلى ميناء جده حيث المحطة على البحر، ومنها يستقل الحجاج الحافلات التي يكون المطوفون قد أعدوها لنقل الحجاج المسجلين لديهم إلى مكة المكرمة والمسافة بين مكة وجده تستغرق ساعة أو أكثر... هناك في مكة سيتوزع الحجاج على عمارات سكنية موزعة بين أحياء مكة التي تختلف بعدا أو قربا من الحرم المكي الشريف، وكل وحظه أين يسكن.

بدأت عملية نزول الحجاج من الباخرة على رصيف الميناء، وهذه عملية مربكة يتزاحم فيها الحجاج ويتدافعون، كل يرعى رفاقه أو نفسه، ويحرص على اصطحاب متعلقاته دون أن ينس بعضها- يأخذ طريقه نحو سكنه المؤقت في مدينة جده، يصحبه مندوب المطوف بعد أن يتجمع مجموعة من الحجاج رجالاً ونساء تكون وجهتهم نفس المطوف.

كان نزول الحاج على وسربه شاقاً ومربكاً ومنهكاً بالنظر إلى المجموعة المتكونة من نساء بما فيهم عمته المعاقة، وأدباشهم الكثيرة التي أغلبها لا لزوم له، لذلك قسم على رفاقه: المهام، هو يأخذ بيد عمته وهى تتكي عليه وفي يده المتحررة منها يحمل حقيبتها الثقيلة المقفلة بأكثر من قفل، وزيادة في الحيطة ربطتها بحبل مميز تقاطع حول أبعادها طولا وعرضا، أما أخته فكلفها بحمل جزء من متاعهم على أن تأخذ بيدها خالته صعيفة النظر خوفاً أن تعثر في السلالم، وبنت أخته- كان يكن لها نوعاً من العداء وعدم الارتياح- فقد الزمها بأن تصحب معها بقية الأدباش، وهي أكثر من حقيبة ولما احتجت على كثرتها، قال لها: انزلى بالشوى أولّي.. شنو ناقصك صحة وأنت زي البغله تأكل وما تلدش.

- عمته وهي تتكى عليه: أو ليد خوى... أنت ساعات بركتك سكات تلاحظه تلميحه.

– انقول في الحق... وهي اليوم أسبوعين في البحر... تأكل وتشرب وراقده شن قطع صحتها؟ قلة عمود. أربع شناطى والآ خمسة ما تقدرشش أتنزلهم؟

تكاملت المجموعة الحاج علي ورفيقاته الأربع... وقفوا على ناحية من رصيف الميناء، وقد حملوا لافته كتب عليها أسم المطوف الذي يقصدونه، وما هي الآ دقائق ويأتي مندوب المطوف ليضمهم إلى مجموعات أخرى وفرادى من الحجاج الذين يستقبلهم في ذلك اليوم، النازلون من الباخرة التي القت بمراسيها منذ ساعة... صحبهم المندوب جميعاً إلى سكن موقت للمبيت فيه ليله واحدة بعدها يغادرون إلى مكة المكرمه، وهم يلبون محرمين... هنا انفصل عنهم مراجع وأخته، فهما كان من ضيوف مطوف آخر... حيث أختلف السكن وموعد السفر إلى مكة. لأنه لكل مطوف أصطول النقل الخاص به وموعد تحركه نحو مكه... لكن الحاج على ومراجع تبادل عناوين المطوفين ليسهل بينهما الاتصال، والتزاور عند المكوث في مكه، وبقية أماكن المشاعر المقدمة.

دخل الحاج على وجماعته إلى سكنهم الموقت... غرفه واحده واسعة، تناثرت على أرضها حشايا مهتريه ومتسخة من كثرة الاستعمال، تنبعث منها رائحة ندية من طول التخزين، مع عبق روائح أخرى لروائح عرق أجساد بشرية جاءت من بلاد مختلفة أفريقيا شمالها وجنوبها... من أسيا تلك الجماعات القادمة عن طريق البحر، ومن اليمن وارتريالم يرتح الحاج على إلى جو هذه الغرفة وأثاثها القذر، لكنه تمثل بالقول المعروف: وهي ليله وفراقها صبح، أنزوى في ركن من الحجرة مباعدا بينه وبين النساء وأن كن محرمات، وهو الوحيد الذي يختلف احرامه عن إحرامهن، وكان قارنا بالعمرة فليس له مبررا ليكون حجه بالتمتع كما أفاده مفتى البعثه : مرة أخرى يداهمه خاطر: لو كان مش مريض راني جبت مرتى

معاي، تعاوني على ها لمصائب اللى ما فيهم فائدة: جلاد ملمده من كل مكان... عمتك... خالتك... أختك بنت أختك... كانت بقية الوفد قد انطرحت على مساحة من الغرفة فيها تقارب بينهم.. عمته التي يحترمها ويقدرها ويحدب على راحتها كانت الأقرب إليه باعتبارها كبيرة في السن، ومعاقة تلها خالته، ثم أخته وبنتها، بعد ما تناولو وجبة العشاء، حيثما أتفق: زميطه وشيئ من التمر، وشاهى أحمر أعد على عجل.. نام الجميع بسرعة من شدة الأعباء أثناء عملية النزول التي كانت متعبة بسبب التزاحم والتدافع الشديد الذي هو من طبع البشر، عندما تكون المجاميع كبيرة والحيز ضيق. أنفصلى مراجع وأخته عن الجماعة، كل ذهب مع مندوب لمطوف... ولم يكن هناك داعي لتبادل العناوين في جده، فهى ليلة واحدة وينتقل الحاج على وجماعته، ومراجع وأخته إلى مكه منذ صباح الأمس وقبل أن تدخل الباخرة إلى جده، وبمحاذاة رابغ أخذ الحجيج يلهج بالتلبية ونصها معروف يحفظه الجميع ويذكره كل لسان، والتلبية لا تنقطع ما دام الحاج في حالة يقضة. عند ضحى اليوم التالي من الوصول تحركت الحافلات حاملة لكل مطوف قاصديه، فاخذت الأصوات تعلو حين قال لهم المندوب: نحن الآن في طريقنا إلى مكة المكرمة وسنصلها بعد نحو ساعة، وهناك تتشرفون برؤية الكعبة المشرفة فاجتهدوا في التلبية لله سبحانه وتعالى ولا تقطعوها ما أمكن يا ضيوف الرحمان... ضجت أصوات الحجيج من الرجال والنساء، وعلت نبراتها، فاختلط الدعاء بالشجن والدموع... رقت المشاعر واهتزت القلوب، وتعلقت النفوس بنفحات الإيمان... فكان: (لبيك اللهم لبيك) تنبعث من كل حاج يتوجه بها إلى المولى عز وجل تقطعها: (أن والنعمة لك والملك).

كان الحاج علي يلبي والمجموعة تردد وراءه التلبية، فلا يملك نفسه من

السيطرة على مشاعره التي ينبض بها وجدانه فتنزل دموعه على خده، وحين جاشت عواطفه الإيمانية وفاضت بكى بصوت مسموع، هنا أزداد نشيج النسوة فضاعت منهن صيغة التلبية عندما لم يتبينها منه وهن مرددات وراءه... حتى قمر الشابة الصغيرة تفجّرت عاطفتها وانسكبت دموعها... يسيطر الحاج على نفسه، يكابر فيعود إلى حالة الطبيعي ويواصل التلبية، خالية من العبره، فتستقيم وراءه تلبية النساء.

وتصل قافلة الحافلات إلى مشارف مكة فيعلن مندوب المطوف قائلاً: نحن الآن ندخل مكة.

- الحاج على: يعزها الله.

- المندوب: لبي يا حاج، لا تقطع التلبية بغيرها من الكلام... أنه الرفث يعود الحج إلى التلبية وتلبي النساء... قصدت الحافلات إلى العمارة السكنية التي سيقيم فيها حجاج المطوف قبل الترويه وبعد الفراغ من أيام التشريق.. خصص المندول للحاج على وجماعته حجرتين متجاورتين بينهما حمام... أستقل هو وعمته المعاقة في حجرة، وخالته وأخته وبنتها في الحجرة الأخرى... بعد استراحة قصيرة صحب الحاج جماعته إلى الحرم المكي، وأخذو جميعاً في تادية طواف القدوم، ثم بعد سبعة أشواط حول الكعبة صلوا في الحجر، ثم اجتهدوا في التسبيح والدعاء منتظرين صلاة الظهر، بعد الصلاة عادوا إلى السكن لتناول وجبة الغذاء، والتي هي جاهزة في أغلب الأحيان: بسيسه وتمر وحليب مع شيء من الفاكهة المنوعة والمتوفرة طول العام، في مكة المكرمة: البلاد التي كرمها الله فلا ينضب منها ماء ولا طعام، وأهلها ياتيهم الله رزقهم، كما أتاه لاسماعيل وأمه، حين حلت بموقعهم قافلة جرهم، وأن الله يرزق عباده أينما كانوا وكيف شاء

التلبية لا تنقطع، فلا نطق بكلام غيرها الا بقدر التفاهم بخصوص الضروريات الحياتية الصلاوات الخمسة داخل الحرم في الفضاءات الواسعة حول الكعبة والمساحات التي تنحسر داخل أقواس ترفعها أعمدة من رخام، وفي الطابق العلوى وفوق السطح.

هذه إذاً مكة التي فيها البيت العتيق: الكعبة التي شرفها الله فهى: أول بيت وضع للناس ببكه، واسكن إبراهيم الخليل: زوجه هاجر وولده إسماعيل بوادى غير ذي زرع فيه... تركهما في رعاية من لا يغفل على كل شيء، وقفل راجعاً إلى أهله في مكان لم تحدده الأخبار، وأن قيل ليس على الوجه الصحيح في: الشام.

هناك في ذلك الوادي الصغير الذي ينحدر من سفوح أحد جبال مكة المرتفعة بسيول تجرف أمامها الحصى حين تمطر السماء.. ضلت هاجر وأبنها بذلك الوادي حتى نفذ منهما الزاد، شراباً وطعاماً، فلم يقدر الصبى على تحمل العطش، فأخذ يبكى يطلب الماء، وأمام حيرة هاجر أخذت تحث الخطي مسرعة بين ربوتين أو جبلين صغيرين هي: الصفا والمروة، وهي في هذه الحال والصغير يضرب الأرض برجليه حتى انبجس الماء تحتهما، فخفت إليه تغرف الماء و تسقيه، ثم شربت وهدأ روعها- سبحان الذي لا يغفو عن عباد ه- وكان بعد ذلك من أسر جرهم، وزواج إسماعيل الأول والأخير وزيارة إبراهيم له في المره الأولى والثانية ووصيته في المرتين، وكيف عمرت مكة بعد ذلك فأصبحت افئدة تهوي اليها منذ ذلك التاريخ البعيد ثم كيف أصبحت قبلة المسلمين بعد الإسلام وتؤمها الملايين منهم في كل عام.

تنوعت مهام الحاج علي وتعددت منذ اليوم الأول الذي استقر فيه في مكة، ما زال على التروية أسبوعا كاملا، وعليه ألا يبرح مكة وهو محرم ومكة بردها

شديد وخاصة في الصباحات الباكرة كما هو حرها شديداً أيضا حين ترتفع الشمس. الحاج علي في الأيام قبل التروية عليه أن يهتم بعمته المعاقة اهتماما خاصا فهي إلى جانب خدمتها عندما تكون داخل السكن وأيضا تلقينها بعض الادعية والاوراد وأصول تأدية مناسك الحج ثم هو يصحبها إلى أداء الأوقات الخمسة في الحرم منكبة على كتفه، ويؤجر لها من يحملها على (محفة) للطواف حول الكعبة كل هذا والواجبات الأخرى التي يقوم بها نحو الجماعة كشراء مستلزمات المعيشة من لحم وخبز وخضراوات وفاكهة وعليه أيضا مراقبتهم بخصوص مشترياتهم الخاصة، فلا يسمح لهن بشراء أي هدايا أو حاجات أخرى قد تسبب لهم رهقاً، سيما وأنه ما زال أمامهم التنقل بين أماكن المشاعر مثل: منى وعرفة ومزدلفة والمدينة المنورة بعد إتمام الحج، لذلك كان دايما ينبه الجميع إلى ارجاء المشتريات إلى أسواق جدة، فهي من جهة رخيصة ومتوفرة ولا تكلف مئونة نقلها اثناء الانشغال في تأدية المناسك، ولم يأذن لهم الا بشراء ما خف حمله كالمسابح: جمع مفرده السبحة، أو أغطية الرأس وما في حكمها.

ذات ليلة في فترة الراحة التي يأوى فيها الحاج علي إلى النوم بين صلاة العشاء وصلاة الفجر، كانت الجماعة مجتمعة على براد الشاهي...براد بمعنى: سخّان أخذ اسم الضد كما هو معروف

في الاثناء قالت أم قمر: خبر، علي أصحابنا موجهة كلامها إلى الحاج علي.

- منهم أصحابنا.. مؤمنين ان شاء الله؟

- مراجع وأخته سالمين.. أنسيتهم!!.

- أي حق فكرك في الشهادة.. أنسيناهم خلاص نظر نظرة خاصة إلى قمر

وكانت تعد الشاهي..لكن عندنا من تفكرهم .. أضاف العربي لا دبّر نصف الدبارة ليه.

- عمته: لا أوليد خوي ما ينسى أصحابه غير الخرش غدوه بعد صلاة الظهر برّه انشد عليهم..إتجي منك انت لول خير.

- ان شاء الله من غدوه نمشي انا وقمر أو تشوف سالمين، وانا نشوف مراجع وكان يود لو قال العكس.

بعد صلاة الفجر ضل الحاج علي في المسجد رفقة عمته الكبيرة، وعادت أخته وقمر الى السكن لاعداد فطور الصباح، في الطريق لمحت قمر مراجع يقف خارج حانوت للذهب ينتظر سالمين التي كانت تعاين بعض القطع الذهبية وتناقش البايع في السعر.

- في عبارة غلبت عليها الشهقة قامت قمر تنبّه أمها وخالتها:

مراجع اهّو...والله الّا مراجع.

تقدمت النساء الثلاثة إلى مراجع للسلام عليه وللسؤال عن سالمين.

- أم قمر صباح الخير أوليدي..شن حال سالمين اليوم نهارين بينا كأنهم شهرين..

- الله ايبارك فيك يا خالتي تبره...ما تفقدي غالي ..سالمين أهي هنا في هالدكان..

ماك عارفه النساء لما يلصف قدامكم الذهب.

أي حق وليدي، وينها ليها وحشة-في الاثناء تخرج سالمين من محل الذهب قتفاجأ بالجماعة يتحلقون حول مراجع-ترفع صوتها مرحبة خالتي تبره؟!.. مرحبة بالغالية وخالتي يزّه-قميرة وحشتيني يا ناسية العشرة..اليوم كنّا ماشيين ليكم أنا ومراجع.

- قالت قمر واحنا خالي قال اليوم بعد صلاة الظهر بنزوركم.

- مراجع: خلاص أحنا نراجو فيكم..الغدا عندنا.

- قمر جاينكم. وقد أعطت كلمة انراجو فيكم معنيً في عقلها..فقابلتها بكلمة جاينكم، وان كان مراجع لا يقصد ما ذهب اليه فهم سالمين وقمر. ثم سار الجميع في الطريق الواسع المغطى إلى خارج ساحة محلات المجوهرات، بعدها تفرق الجمع-مراجع وسالمين ذهبا يسارا حيث محل سكناهما وقمر وأمها وخالتها واصلن الطريق نحو وجهتهن.

عند الضحى عاد الحاج علي تتكي عليه عمته لتناول فطور الصباح ثم الاستعداد إلى زيارة مراجع، وكان يعرف عنوانه من (كارت) صغير فيه أسم المطوف والشارع الذي تقع فيه العمارة..ليس ببعيد عن الحرم.

دخل الحاج علي ففاجأته قمر: خالي تلاقينا أحنا ومراجع وسالمين في الطريق واحنا مروحين-كانت تعنيه سالمين ويعنها مراجع-ما تقوليها شي شن حالها؟ بدل أن يقول شن حالهم.

- لا بأس عليهم وقالوا: الغدا عندهم..ايراجو فينا بعد الظهر.

صلى الحاج الظهر مع الجماعة في الحرم، وعند الخروج انفصل عنهم بمعية قمر قاصدا حيث يسكن مراجع وسالمين-في الطريق دخل صالة تبيع المرطبات واشترى كمية من نوعية فاخرة، رتبها له البائع في علب جميلة معدة كي تكون هدايا ثم غلفها بورق زاه وأحاطها بشرايط ملوّنة، كانت أكثر من علبة تختلف فيها المرطبات شكلا ونوعا.

دخل الحاج علي عمارة سكن مراجع تتبعه قمر، وكان مراجع وأخته في انتظارهما

على باب العمارة، كان الترحيب وكان السلام، سلام الرجل للرجل مصافحة باليد، أما سلام المرأتين فمصافحة الخد للخد كعادة النساء ..ثم الجلوس في غرفة واحدة.. انفرد مراجع بضيفه الحاج علي، وانتحت سالمين بقمر جانبا قريبا..

لاحظت سالمين كثرة علب الهدايا، قالت:

- شن هذا كلّه يا حاج علي-لأول مرة تنطق أسمه وقد لاحظ في صوتها الفرح والامتنان-غلّبت روحك..سلمك جيّاب.

- قمر هالحاجة الكبيرة..أنتم قيمتكم عندنا بردع الدنيا.

- مراجع: هدبة الكريم تغني يا سالمين ..هاذي كلمة باتك يقول فيها ديما الله يرحمه.

- الحاج علي وقمر في صوت واحد: تعيش وترّحم.

الحاج يغير الحديث إلى وجهة أخرى - لا والله سكنكم باهي، حجرة نظيفة واسعة وفي الدور لول هاذي وين تلقاها؟

- صدقت انا ريت جماعة حاسرهم المطوف في حجرة واحدة في الدور السادس. أنشا الله انتم سكنكم باهي؟

- مش بطال أحنا خذين حجرتين -أنا وعمتي في حجرة، وقمر وامها وخالتها ساسيه في خجرة -الحق بنقال مرتاحين، وفي الدور لرضي على خاطر عمتي ما تقدرش تركب الدروج.

كانت في الاثناء قمر في حديث هامس مع سالمين كعادة النساء عندما يكون في المجلس رجال.

كان حديثهما لا يخلو من العواطف، ومشاعر الوجدان فقمر ما فتيت تذكر فراقهما لثلاثة أيام تقريبا وشوقها لهما المبطن كما تعلم سالمين ، وسالمين تبادلها

نفس الشعور مجاملة وربما هي أيضاً بها ميل إلى الحاج علي لم تعلنه بعد.

انتهت الزيارة قرب دخول صلاة العصر الذي يجب ان يصلوها جماعة في المسجد الحرام.. لذلك خرجوا على عجل بعد ان شربوا قهوة معدّة سلفا في ترمس كان موضوعا في جانب من الحجرة.. كانت قمر تسير بجانب سالمين في حديث يظهر أنه متواصلا مع حديثهما في الحجرة، تقدمهما مراجع والحاج علي في خطى سريعة قبل أن تقام الصلاة.

حل اليوم السابع من ذي الحجة: اليوم الذي يكون فيه غسيل الكعبة والباسها كسوة جديدة تعد خصيصا كل عام.. بعدها يذهب كل الحجيج إلى منى للمبيت في مزدلفة -اليوم الثامن- ومنها ينفرون إلى عرفة قبل شروق الشمس، ليقف الحجاج على جبل عرفة والوقفة، وبعد صلاة الظهر والعصر جمعا في مسجد نمرة، ينفر الحجيج بعد غروب الشمس قاصدا منى حيث يبيتون مرة أخرى في مزدلفة ويصلون العشاء والمغرب جمعا، ثم يجمعون الحصى لرمي الجمرات في يوم النحر، ويكون النحر في اليوم العاشر ورمي الجمرة الكبرى.

- تختلف المذاهب في مواقيت رمي الجمرات-بعدها يكون طواف الافاضة الذي تكتمل به واجبات الحج ثم العودة إلى منى للإقامة فيها أيام التشريق، ومنها يخرج الحجيج لأداء طواف الوداع، بعده يتفرق الحجاج خارجين من مكة، بعضهم يذهب لزيارة المدينة، وبعضهم الذي أدى الزيارة قبل الحج، يذهب إلى جدة ليعود إلى بلده، كل بوسيلة قدومه جواً أو بحرا أما حجاج البلاد المفتوحة على المملكة العربية السعودية فانهم يعودون برا بوسائل النقل المختلفة: كالعراق وبلاد الشام وتركيا وإيران وأفغانستان واليمن وبقية دول الخليج.

ذهب الحاج علي ووفده الكريم إلى زيارة المدينة المنورة، استغرقت الرحلة

يوما كاملا تقريبا بواسطة حافلات المطوف، وحالما حط رحاله في المسكن المخصص له من قبل المطوف. ذهب وجماعته رأسا إلى زيارة قبر النبي ملعم كما هو مستحباً ان لا ينشغل الزاير عن زيارة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

في ما عدا اليوم الأول في المدينة بدأ الحاج علي يفقد سيطرته على معظم افراد الوفد عدا عمته المعاقة، فهذه خالته تمردت على سلطته وأمره فأخذت معها قمر وخرجت الى الأسواق تشتري ما طاب لها من هدايا، وتبحث عن محلاّت المجوهرات لتأخذ لبناتها المتزوجات أساور وعقود دون أن تستشيره، فهي تعلم مسبقاً أن لا يسمح لها، لأنه يطلب منهم ارجاء مشترياتهم حتى الوصول إلى جده.. أخته من جهتها تعرفت على نسوة ليبيات في المدينة رافقتهم في جولة شرائية، كنّ خارجات لها بعد صلاة المغرب، ولم يبقى الا هو والحاجة عمته المعاقة حين عاد من الصلاة في المسجد النبوى وكان دايماً يحثم على الصلاة فيه لأن الصلاة فيه بالف صلاة كما استمع من الواعظ الديني المرافق جمع الحاج على جماعته بعد صلاة العشاء، وأخذ يسألهن- وقد اخبرته عمته سرا ما فعلن- سأل خالته: وينك أنت يا خالتى ما ريتكش لامنين خشيتى المسجد ولا منين ظهرتي.

- أوليد أختى أنا مشيت نشرى في حويجات للبناوين، قلت ما عادش عندنا وقت وبالك أنت ما تفضاش في جده.

- ومن مش معاك؟

- قمر مشت معا ي شن تعرفني أوليد أختى نعرف نمشي والآمنين انجى؟

- أنا عارفها هالشالق... هي اللى دبرت عليك... هاذى ما عاد حاكم فيها حد كمّلت الحج وتبى أدير ما في رأسها نهار كامل وهي تمج زي الفرس المقطعة.

- شن اللى نبديره خويلى... مانى الا وليه من حيطن قصير.

- أنت؟! أو كان يطلقولك المردّه... أديرى البلا لرقط، يا لفعه رقطة يعطيك أرقط يضر بك بناب... يا ناب.

يضحك الجميع ما عداه.

- أنا يا خالى؟ الطف علي من لرقط شن تقولي يا ناب شن وليت شارف.

- وشن تعرف معاك الشارف؟ أنت الشارف تحوسيها في جردوها وتعليمها اللى عمرها ما تعلماته... أنت أتقولى للبلا أنزل والانرقالك.

- أخت الحاج: لا خويلها الطف عليها بنيتى... بعيد السؤ، مشت مع خالتها ما فيها بأس، وهي ولّت تو الحاجة قمر مناش خائف عليها؟

- يا هاذى... يا هاذى من بنتك هاذى أو كان يرخولها تشيب عرب... أنا عارف روحي هذا وين بديت سارج جلاد حق... كل وحده تمشي على زي رأسها، وأنا نقعد انعيط ونقدع كيف شارح الجلاد التعب وقلة الدر.

ضحكن النسوة جميعاً وتغامزن بما فيهم الحاجة الكبيرة عمته، فالرجل لم يعد يتحفظ في شيء، فاصبح كلا مه في حكم الصريح، رغم أنه يستخدم التوربة والرمزية.

أحس بحرج تخرج وهو يسمعهن في صوت خافق- الواجد ساعات يخرج من عقله ثم بصوت أعلى نبره: أنا ماشي بنطق في مراجع وتو أنجى وتو العشاء.

- قمر نمشي معاك يا خالي نشوف سالمين.

- لا مشتي بكرى ياسرك .. في سؤال انكاري هو أنت مستاحشة سالمين؟

بعد قضاء اربعين صلاة في المسجد النبوي، سافر الحاج ورفاقه إلى جدّه، حيث أزف موعد عودة الباخرة بالحجيج إلى الوطن.

في جدّه ازدادت متاعبه بسبب تعدّد طلبات رفاقه وتنوعها، وعليه أن يرافق كل واحدة لتستكمل مشترياتها أو ان يغض الطرف ويخفف من القيود التي فرضها عليهن، أذ قرّر مسبقاً أن لا تخرج واحدة إلا باذن منه، أو برفقته، الا انه غير من أسلوب معاملته معهن، خاصة وقد أدّين حجهن، فلا خوف عليهين من الرفث والفسوق، كما كانت توسوس له نفسه، ومن جهة أخرى لابد من منحهن شيئاً من الحرية في اختيار مشترياتهنّ وحتى لا يلزم نفسه بمرافقتهن في كل حين، لذلك قال لهن غدوه جولة حرّة، كل واحدة تاخذ وجهة وتشتري اللي خاطرها فيه، واللي ما يلقاش حاجته والا ما يعرفشي وين ايبعوا فيها، يقولي نمشي معاه .. يا سرني من التلاوس مع هالجلاد كل يوم .. اعتقوني لله .. خلاص ملّيت .. حتى الموت تعطى راحة.

عمته: حق أوليد خوي اليوم شهرين وأنت أتقالد مع هالجلاد زي ما تقول: من الغعود للبرشنيه للشارف ما بعدك.. حتى سارح الجلاد يروّح في الشهرين مره لبيته يأخذ راحة .. أفجويه فيك، والله صبرك ما يصبره واحد.

كان الحاج يؤمن على كلام عمته: كلامك حق يا عمتي .. قوليلهم بالله عليك .. شفتو اللي يلوم ويعذر، شفتو اللي ما أدرقش السمس بعين الغربال؟.. هاذي عمتي حق اللي تحسّني .. عرفتو تو أنا سارح جلاد حق والا خلّي تفهمكم عمتي زين .. كنتو تضحكو .. النار أحسّها الا اللي عافس فيها.

خرج من عندهن وهو لا يكاد ينظر في وجوههن قائلا: أنا ماشي بناخذ قهوة مش بعيد، واللي هاذي تتفكر شن ناقصها، خلاص بعد غدوه مروحين انشاء الله.

انخرطت النسوة رفيقات الحاج في نوبة من الضحك والتعليقات على الحال التي تعتري الحاج على حين يشتد غضبه ويأخذ في تقريعهن وخاصة قمر التي يقول عنها ؟؟

آه منها مال الكلب لو كان مش بنت أختي، ها المقصحملة الواحد افسدّ عليها الحجة لكن هذا حال سارج الجلاد، الله غالب وخلاص.

عاد الحاج بعد ساعة وجد الجماعة قد تناولوا عشاءهم وتحلقو حول الشاهي.. أخذ طعامه وجلس قرب عمته الكبيرة يتناوله، وكانت خالته وأخته وبنتها تتذكّر كل واحدة ما ينقصها من حاجات، وقمر تسجل النواقص في ورقة.

- قمر خالي انا شريت كل حاجة، ما عادش ناقصني الا حاجات بسيطة ما عرفتش وين نلقاها.

- زي شنو؟ هو أهناك حاجة أنت ما تعرفيش وين تلقيها؟! وأنت نهار كامل زي دلاّل السوق من دكان لدكان.

- أم قمر ناقصها حاجات انا أنقولك عليها.

- ناقصها عقل.

- غير أسمعنى تربح سلم أوخي.. أول حاجة ناقصتها: الحبّة السوداء، وثاني حاجة الزعفران الحر.

- الحبة السوداء والزعفران الحر؟ أشكون بتسحر هالسحارة؟

- قمر لا نسحر لا أندير كتيبه...

- الحاج: سلم العين السوده اتجيبه .. كمليها علاش سكتي، طاح الغطا أمبمبكه.

- خالته: لا عاد لا حشم لا جعره .. تختلط الشعر والصوف .. يا سما صبى الما.

- تو اكمل الحج معادش لا رفث... اللي في خاطره حاجه ايقولها.

- أم قمر: ما كملتشي تبّى ادورلها الزئبق لحمر.

- خلاص تمّت ما زال غير بتسخّر الجنون . شنى لاقيه كنز بتقلعه؟؟

- ييه أوخييي حتى انت تنشد على البسباس واللي زرعه .. جنون شنو؟ وكنز شنو .. الزئبق نبيه أنا باهي للشقيقه.

- باهي وأش بيه أندورو الزئبق لحمر، وحتى الجن لزرق، وانت شن ناقصك يا خالتي.

- انا وليد أختي نبي فاسوخ، وحنتيته، ووشق.. حتى شوي شوي.

- هاذي اكلها بضاعة جنون، شن حكايتكم أنتم مع الجنون والسحر الله يحفظنا؟

- عمته: واعميمتك نبي كمون حلو وجلجلان وزعتر ايقولو دواء لكل شيء.

- لو كان الزعتر دواء مامات حمار مسلاته.. شورك بديري بسيسه يا حاجة؟ ديما خير من من السحر والكتيبه والجنون بعيد السو علينا.

- أخته كمّل جميلك أوخي، أهي قريب تفراج وكل حد يمشي لهله وأجرك حاصل.

- أجر سارح الجلاد.

انفجر الجميع بالضحك وتغامزن .. أدارت بنت أخته وجهها حياء كاذبا.

- باهي انا ماش اللي ناقصها حاجة تقولي راهو غدوه العشيه بنركبو انشاء الله.

خرج الحاج علي وفي جيبه ورقة بها قائمة طويلة باسماء حاجات متنوعة ما انزل الله بها من سلطان .. نظر فيها ملياً، وهو لا يقرأ ولا يكتب فلم يتعرف على ما فيها .. عاد إلى الجماعة وخاطب بنت أخته وهي مدرسة قائلا: أقريها عليّ اللي نحفظه با هي، واللي ما نحفظاش الله غالب على سارج الجلاد.

- بنت أخته وهي تواصل ضحكها مع الجماعة ..انت وريها لمولى الدكان وهو يعرفها.

- أمّاله هي تحسابيها في مكان واحد.. هاذي حاجات زي الشعر في البحر. تبيلها آش إبلائمها.. أخذ منها الورقة بغضب وقال: اللي اجيك سادكم.

ما أن غاب الحاج في زحمة الناس الذين يعج بهم السوق، حتى خرجت الجماعة بما فيهم الحاجة الكبيرة المعاقة تتكي على بنت أختها أم قمر، بعد ان سمعوا منه أن الباخرة ستبحر في مساء اليوم التالي.. ظلّن يملأن الاكياس البلاستيكية بمشتريات من كل نوع حتى أتوا على آخر فلس في حوزتهن وعدن محملاّت بتلك السلع وأخذن يفرزنها لكل منهن نصيب ملأت به حيّزا من الحجرة الكبيرة التي يقمن فيها جميعاً، فلمّا عاد الحاج علي ذهل مما وجد من اكياس تضيق بها حقائبهن .. قال محتجًّا: هذا وين ماشيين بيه؟ وين بتحطوه.. من بيكركره من هنا إلى الباخرة ؟ ومن يرقيّه؟ ومن ينزّله؟ .. سارح الجلاد.. الشفاعة يا رسول الله، توّ هاذي عمله درتها في عمري؟! أصير في الذكر غير ما ايقولش لأمّه .. شعفه يا داود ما عاد انعاود.

كن جميعاً صامتات مشفقات عليه وهن يكدن ينفجرن ضحكا من كلامه المتواصل الذي يندب فيه حظه ملقيا باللوم عليهن مسلّما أمره لله وهو لا ينسى تلك الكلمة التي أصبحت لازمة في كلامه كلما وجد لها محلاً "سارح الجلاد".

هدأت ثورته قليلاً فأخذ يوزع عليهنّ طلباتهن.

- هاك انت يا سحّاره .. الحبّه السوده والزعفران الحر، آهو زعفران جائبيين من أيران، أحسن زعفران في العالم، وهاذي الحبة السوده يعطيك حبّه.. والزئبق نشدت عليه لين طاحو رجليه .. قالوا تلقاه في أم درمان .. افتكينا منه خلّي الجنون راكحين.

- واعميتك جبتلها حوجاتها؟

- عمتي هي لوله: أهم الكمون الحلو والجلجلان .. الزعتر مهناش صنته .. تو غادي نمشي لمسلاته والا الداوون نعبيلك شكاره.

- وخويتك نسيتها؟

- لا ما انسيتكشى ماك وصيتي على الجدره والحنه.. توه هناك جدره في جده، والحنة المليحة قالو تلقاها في قابس.. مش ايقولو الناس الحنه قابسيّه والفجره طرابلسيه، عادتكم النساوين صغار تحنو رجليكم، كبار تحنو روسكم.

- وخالتك جبتلها حاجتها؟

- فاسوخ، وشق، حنتيته... الفائح الفائح بضاعة جنون أهم ما زالش حاجه؟

- عمته: شن ما زال خلاص الريالات كملو .. حتى سنتهم .. كانش انت عندكش حويجه .

- وأش بيه اعطي بنتك وزيد ...

- خالته حتى انت ما القيتي ما تقولي يا حاجه.. يا سرنا قريب عرق الجبه ينقطع

- هو انقطع من يوم سميّ روحه: سارح جلاد قالت: عمته.

- هو: ما علينا شي.. الرجوع لربي.. الطويلة من القصيرة أهي حزّت، ويا سعدك يا فاعل الخير .. أنا توّ ماش بنشوف مراجع .. ماذا بينا كيف نركبو نركبوا مع بعضنا حتى أيعاوني في هالقشبش اللي عبتيتو بيه الدنيا.

- قمر نمشي معاك يا خالي.

- بتجربي سحرك من توه .. فيسع فيسع؟!

- بنشوف سالمين سحرشنو اللي بنجربه؟

- أماله الزعفران والحبة السودة لاش؟ كان مش للسحر.

- حتى انت يا خالي .. راجيني هاني طالعه معاك.

- هيّا غير ديري عقلك في راسك .. وانت تروقبي الشارع أكل تمسحي فيه بعين واحده.
- ضحك الجميع وخالته تعلق والله خذينا على بصارتك شن بنديرو بعدك.

يخرج الحاج على في زيارة إلى مراجع ترافقه قمر بنت أخته .. في الطريق تلتقي قمربجماعة النسوة اللائي تعرفت عليهن في المدينة .. تقف معهن للسلام والسؤال عما إذا كن مسافرات أيضا على نفس الباخرة، فتعرف منهن: أي نعم. ويقف الحاج قريبا ينتظر، فلما لحقت به قمر قال لها: شورك في كل ثنية عندك ولية؟!

- ها ذوله النساوين اللي تلاقينا معاهم في المدينة مروّحات معانا..
- وأش بيه أنشاء الله غير حتى هنّ ما نحصلش فيهن زي حصلتي فيكن.
- حتى أنت يا خالي بديت تتخايل، معاهن رجالتهم ما ناقصهم فرح.
- الملدوغ يتخايل الحبل .. أنتم خليتو فيّ عقل؟

وصل الحاج وبنت أخته إلى حيث يسكن مراجع وسالمين.. لم يكن مراجع موجود اخرج لشراء بعض الحاجيات .. ضلت قمر مع سالمين ساعة من زمن الحاج في جانب من الغرفة، ليس قريبا منهما لكنه بين الحين والآخر يرمي بنظرات فاحصة يستوضح بها معالم سالمين الجسدية في غفلة منها، لكنها لم تكن غافلة، وكانت قمر أشد منها انتباها ومراقبة له، فما من مرّة الا وظبطته وهو يرمي ببصره إلى الارض بعد ان كان يختلس النظر وهما في حديث لاهيمات فاطنات له.

طال غياب مراجع فقرّر الحاج عدم المزيد من الانتظار خوفا من افتضاح سره وهو يسترق النظر إلى الحاجة سالمين الشابة التي كانت هي أيضا ترغب في جلوسه معهن.

نهض وأوصى سالمين في لهجة تودد ظاهر قائلا لها: غدوه يا إجيني مراجع يا أنجيه الصبح لأن في العشية الركوب انشاء الله، وتو تصبحو على خير هيا يا قمر عطلنا.

- سالمين تلقى الخير انشاء الله يا حاج علي باهر تو انقوله.

- دغدغ مشاعره الداخلية لفظ سالمين أسمه في لهجة ودودة، وخرج ترافقه قمر قائلا لها: جاتك فاشوش.. نيتي خير من نيتك، يقصد أنها لم تلتقي بمراجع والتقى هو سالمين.

- وعلاش فاشوش ماني القيت سالمين وهدرزت أنا وأياها.

- إي زعميتك انت جائه لسالمين، خالك ما يمشيش عليه.

- وانت لمن جاي، لمراجع؟

- لمراجع امّأله لمن؟

- زعمه الجمل مش عينه في الكرمه.

- معناها أنت الجمل وسالمين الكرمة .. لا لا جمل لا كرمه انت اللي حادفه العين وهاك الزعفران الحر والحبّة السودو رانا انقول مش بلاش.

- بالله يا خالي حتى انت وين رافعك عقلك.. أحنا في الحضرة والا في طلبة البندرير؟

- لا حضرت البل يوتو حواياها، كل حاجة بوقتها.. خالك ما هوش عيل.

وكان يوم السفر من صباحه وحتى عشيته حين أبحرت الباخرة، والحاج علي على قدم وساق وهو ينقل تلك الادباش المكدسة في الغرفة، وما من معين له الا قمر، فقد كانت نشطة تحمل الادباش في خفة وحماس وتصعد بها سلالم الباخرة ثم تعيد الكرة يدفعها أحساسها الداخلي بانها ستلتقي بمراجع على ظهر الباخرة وكانت تؤمل ان يكون سكنهم جميعا في قاطع واحد كما في رحلة القدوم.. كانت هذه المرة الوحيدة أثنى فيها خالها عليها، وغفر لها ما تقدم من هفوات وطيش

فكان يقول: اليوم حق سارح الجلاد لقى من يعاونه .. والله لولا قمر اليوم راهو انقطع جهدي في هالشناطي والصراير، شيء محزوم وشيء أمفرث... هذا عادي تبيله كرهبه بالريموك باش ترفعه لبلادكم .. ما نيش عارف غير منين جبتو لفلوس؟ وانا وين ما انقول هيا بنجيبو لحم والا تفاح وعنب اللي هاذي تلبد وادير روحها ما سمعتش لكن يستاهل سارح .. ويسكت فتكمل عمته المعاقه: الجلاد.

وصلت الباخرة إلى بنغازي بعد اثنتي عشرة يوما فنزل مراجع وأخته سالمين بعد ان ودعا اصحابهما، وعرف كل من الحاج علي ومراجع مكان سكن الآخر، وهما واحد من الشرق والآخر من الغرب وتواعدا بالزيارة حين تسمح الظروف.

واصلت الباخرة سيرها نحو طرابلس وبعد ثلاثة أيام رمت بمراسيها في حوض الميناء فنزل الركاب تباعا، وكل كان يستقبله أهله على الرصيف.. جاء ابناء الحاج علي واخوته وأقاربه، وأهل أخته وخالته، أما عمته فلا عائل لها الا هو فهي من أصله. أخذ كل جماعة حاجيات الحاجات، وأخذ أهو الحاج علي حاجياته وحاجات عمته وتفرق الجمع في تلك الاونة إلى حين وصولهم جميعا إلى البلد فهي واحدة بالنسبة للجميع.

وكانت الزيارات والولائم والاحاديث حول المشاهدات في الاراضي المقدسة، المتاعب والمفارقات، فكانت أولها التسمية الجديدة التي سميّ بها الحاج نفسه، وقد تهامس بها النسوة بعد أن روتها الحاجات وفي مقدمتهم قمر وأمها – أخته – فكان التندر بهذا الاسم – سارح الجلاد – في كل مجلس سمر للرجال ومجمع للنساء ومن يومها أصبح أسمه الحاج علي: سارح الجلاد .. الصقوا به هذا الاسم الجديد ونزعوا عنه اسم الحاج، فكانوا يقولون: سارح

الجلاد قال، سارح الجلاد فعل .. ذهب أو جاء .. وهكذا لم يستمتع باسم الحاج الذي يحرص عليه كل من زار الاماكن المقدسة، فكان يقول عن نفسه:

أود يرى بروحي موشي دير أعيال ... شوي في قد ما يطرالي

انا اللي سميت روحي: سارح الجلاد، وحق ونصف أنا: أنا سارح جلاد .. لو كأني مش سارح جلاد ما نرافق أربع أنسي حارمات محرّمات علي .. التعب وقلة العناء .. لو كاني صاحب دباره راني رفعت عيالي - زوجته - وهنيت بالي وراني لا سميت روحي سارح جلاد ولا سموني الناس .. برّه عاد سكر أفاههم .. مشت فيّ لا غالب الله غالب.

الزميطه بالزيت

بين نجوع العرب الرّحل التي تضرب أطنابها في مرابع البادية البعيدة يتفرق الاهل والاحبة، كل يقصد وجهة يامل فيها المرعى الخصيب لانعامه .. ويحدث ان ينقسم نجع من النجوع، بعض يتجه غربا وبعض يقصد الشرق.. تنفصل المرأة المتزجة احياناً عن أهلها – بيت أبيها – حينما يشرق بها زوجها ويقصد أهلها الغرب، وأخرى بالمثل حين يشرق أهلها ويذهب زوجها نحو الغرب، ولا يكون بينهم اتصال ميسورا الا في اوقات متباعدة، وحين يرسل طرف مرسول إلى الطرف الآخر، وبينهما مسافات بعيدة واحيانا يحدث الخصام والاختلاف بين الزوج وزوجته في مرات عديدة تكون اسبابه تافهة في اغلب الاوقات، والمرأة بطبعها تضيق بمخاصمة زوجها وليس لها صبر ولا قدرة على تحمّل الوجع النفسي – مع عدم التصميم – وهي تحس دائما: أنها مظلومة ومن (حيطن قصير) كما يقال ولا تتحلى بما يقوله المثل الشعبي: "الغيض غدير طوله ينزح" فهي تنحاز إلى نفسها حين يخاصمها زوجها فتتخذ قرارها في التو واللحظة.

تستنجد بأخيها أو أبيها دونما تترك خطاً للرجعة فتبعث إلى أحدهما ليأخذها إلى بيته.

في حكايتنا هذه بعثت مبروكة وهذا أسمها إلى أخيها تستغيث به من ضيم لحقها من زوجها، الذي يبعد بالمكان عن أخيها مسيرة يومين.

جاء أخوها على عجل يحث السير على جواد له متين ..وصل إلى بيت زوجها

ليلا، وجده رحّب به وأدخله، ولأن اخته غضبى لم تعد لهما عشاء تماديا في إظهار الغضب وكي لا يلومها أخوها على مخاصمة زوجها.. أعدّت لأخيها فراشا بجانبها ولزوجها فراشا أبعد .. راجعت نفسها كيف تفارق زوجها لاسباب غير وجيهة، لا تستحق كل هذا الرهق الذي تكبّده أخوها، ثم ان اخاها لابد أنه مصاحبها معه فهي غضبى والغضبى ليس لها ألا بيت أخيها أو أبيها .. تصالحت مع نفسها وتصالحت مع زوجها من جانبها سراً.

استغرق زوجها في النوم أما اخاها فأرقه النعاس لكنه ضل غامًا رأسه بطرف برنسه.. انسحبت من جانب أخيها وأعدّت وجبة خفيفة خصّت بها زوجها: (زميطه بالزيت) ثم مشت على أطراف أصابعها ولكزت زوجها بلطف حتى استيقض فقدّمت له عشاءه، ثم عادت إلى مكانها دون أن تحدث ما يريب، كان أخوها يراقب كل شيء بعين مفتوحة.. في الصباح قالت لأخيها: هيّا بالك نمشي معاك .. ما عادش قاعدتله.

قال لها أخوها: يا بنت أمي .. يا مبروكه اسمعي مني هالكلمة وديريها في عقلك: " اللي اخش بين المرا وراجلها تتخطاه الزميطه بالزيت" أنا ماشي بعدما ريت كل شيء بعيني وانت ربي أهنيك بعد ما ردلك عقلك .. وعاد كل شيء إلى طبيعته وضلت قولة الرجل مأثورة بين الناس.

«اللي خش بين المرا وراجلها تتخطاه الزميطه بالزيت»

الحاجه امباركه

الحكايات الطريفة والنوادر وقصص الفكاهة والمواقف الدرامية المميزة والفارقة التي تحدث في الحياة، هنا وهناك قد تعبر الحدود فتنتقل على الجانبين وتنتشر بين الاهالي المتساكنين في قطرين متجاورين.

وهذا نموذج دال على ذلك .. مفارقة طريفة نقلتها الاخبار من منطقة القيروان: بلدة سيدي علي بن نصر الله بالذات، حيث تسكن قبيلة زلاص التونسية –عرش– وهي قبيلة تتسم بالبداوة في وقت سابق قبل ان تعم اسباب الحضارة والتمدن، وانتشار الثقافة والتعليم.

ذهبت الحاجة أمباركه مع زوجها المولدي إلى الاراضي المقدسة في موسم من مواسم الحج والعمرة، ولأنها أمرأة بسيطة ساذجة طيبة – على نياتها – وذات مرّة وهي برفقة زوجها تطوف حول الكعبة وتدعو بما علمها زوجها من دعاء، هو نفسه لا يعرف غيره حفظه عن إمام المسجد في بلدته بصعوبة، كانت تدعو بذلك الدعاء، فلما استقلته أخذت تذيّله بدعا من محفوظها حين كانت تزور ضريح سيدي عمر بوحجله القريب من سكناها.. أخذت تقول يا الله يا سويدي عمر بوحجله.

صاح زوجها: تلا .. تلا.. أما سيدك عمر بوجله يا بنتي؟

ما تماشي هونى سيدك عمر بوحجله .. هوني ثمة هاكي الجميعة اللي دايره بمحمد بوبكر وعمر وعثمان وعلي بركه، أش بيك يا مرا ما تفهمشي .. يزيك من الهدره. وتنتقل هذه النادره الطريفة عبر الحدود بواسطة تنقل الافراد بين تونس وطرابلس، كما تنتقل الامثال والتعابير المأثورة التي يزخر بها التراث بين القطرين.

مانيش صيّدتك

كانت علم في حيّها .. من بيت كبير ولها من الجمال ما فازت به على أترابها، حاذقة نبهة صاحبة خاطر سريع، تقول الشعر وتتمثل بالامثال، وكان طلاّب يدها يتسابقون على أبيها .. أبوها ليس من المتزمتين المنغلقين، يعرف حقه فلا يتجاوزه مع أهل بيته، لا يستبد برايه ولا يتعامل مع زوجه وابنته الا بالنصح والتوجيه.. هناك حقوق لكل لا يتعدى عليها. فلا يصادر رغباتهم المشروعة ومنها اختيار الزوج بالنسبة لبنته التي بلغت مبلغ النساء، واصبحت قاب قوسين، من ان تصبح زوجا لواحد من شباب الحي كما هي سنة الله في خلقه، وما جرت به العادة الاجتماعية ليستمر النسل وتعمر الارض.

وكأي فتاة لها نظر، كان لها ميل إلى واحد من شباب الحي، وان لم تصرّح به إلى أمها بعد، وغير هذا الشاب الذي تعاهدت وأياه سرا، هناك من يطمح في الفوز بها من الشباب.

كان أحدهم معتدا بنفسه واثق من مكانته، له في الكلام وقول الشعر .. أظهر هذا الشاب رغبته في الاقتران بهذه الفتاة التي تسامع الحي بجمالها ورجاحة عقلها، وما هي عليه من مزايا أخرى تجعلها فوق الجميع.

ظهر هذا الشاب في محيط الفتاة عارضا نفسه كفارس تنافس مع آخرين للفوز بها، ضلت هي تقارن بينه وبين الذي كانت تحلم به، رجحت كفة صاحبها الاول عن هذا الذي ظهر في الميدان، بعثت له بقول قاطع:- الفارس الجديد – تنبيئه بما في نفسها.

قالت: ”لا نيش صيدتك ولا نك طيري إداعيك مكتوبك وتلقى غيري“

يكف الشاب عن ملاحقتها وقد بيت في نفسه أمرا.. ضل يتصيّد الفرص المواتية حتى هيأ هاله القدر.. كان صاحبها الأول ضعيف الشخصية إمعه لوالدته.. لا رأي له معها ولا كلمة أستغلت سيطرتها عليه – أمه – وخطبت له بنت أختها: فتاة قميئة أصابها مرض الجدري حين كانت صغيرة فخرّب وجهها وشوّه أنفها علاوة على حول في أحدى عينيها منذ الخلقة.

سمعت الفتاة صاحبة الحكاية قائلة البيت“ ما نيش صيدتك .. أقسمت أن توافق على الزواج ممن يطرق بابها الاول من الشباب تقدم صاحبها الذي خصته بالبيت المشار اليه سابق .. بنى بها .. في الليلة الأولى قال لها هذا البيت: يحرم على أفتاشك، ويحرم علي مرقدك وفراشك، هذا الجمل ضمي عليه أقشاشك وهاذي الطريق أوين تبى سيري .. ردا على شعرها الذي بعثت به اليه سابقا .. لا نيش صيدنك ولانك طيري.

طريق خانب التبن

لعلّ هذا العنوان، أو على الاصح هذه التسمية التي تحفظها الذاكرة الشعبية الجمعية، باعتبارها توصيف لما تعارف عليه الناس، لما يظهر متوسطا كبد السماء وقت الليل حين لا تغطيها السحب، من خط يشبه الطريق تضيئه نجوم كثيرة نتبينها صغيرة، وربما هي مجرّات متعاظمة الحجم تبعد عن كوكبنا الارضي بملايين من السنوات الضوئية.. هذا الخط نسميه: طريق خانب التبن لتشابهه مع من يسرق تبنا ويسير في خط مستقيم والتبن يتساقط وراءه مشكلاً ذلك المسرب الطويل.. من هنا جاء التشابه فكانت التسمية التي استعرناها عنوان لحكاية سنسردها، وكان يجب ان يكون العنوان : سارق اللوز، غير اننا أبدلنا اللوز بالتبن مجازا.

والحكاية واقعية حدثت في مكان معلوماً، وكنت شاهداً عليها ولما فيهامن عبرة لمن يعتبر، وشيء من الطرافة والمفارقة فاننا نسوقها إلى الناس وهي كما يلي:

كان أحدهم يملك مزرعة متنوعة المغروسات بما فيها اشجار اللوز المعروفة والتي تجنى ثمارها صيفا.. كان صاحب المزرعة لا يتواجد فيها الا يوم الجمعة، نظرا لارتباطه بعمل بعيدا عن موقع المزرعة وكان أحد السرّاق في المنطقة يدرس تحركات أصحاب المزارع وهي في العادة دون حراسات، فيعرف توقيت تواجد أصحابها وعلى أساسها يقوم بسرقة المنتوج المنوّع في كل فصل .. احيانا يسرق التين والعنب، واحيانا الرمان، وعند استواء نضج اللوز يسرق هذا المنتوج.. وهو يتخذ تحوطات يؤمن بها نفسه من الافتضاح فيستطلع أيضا مزارع الاجوار

والمسالك المؤدية اليها واقرب النقاط التي توصله إلى مأمنه مع مسروقاته.. وجد مزرعة بجانب مزرعة اللوز، كانت مهملة وبها أشجار بريّة ما يسمى (أثل) قرّر ان يخفي فيها مسروقاته حين يجمعها قبل يوم الخميس ثم يكترى سيارة لنقل محصوله المسروق إلى السوق ويتصرف فيه بالبيع، وهو يعلم ان صاحب المزرعة لا يأتي اليها الا يوم الجمعة .. ضل يجمع اللوز طيلة خمسة أيام من يوم السبت وحتى يوم الخميس، ثم أخفى المحصول في المزرعة المهملة. ذهب يوم الخميس ليكتري سيارة ينقل بها المحصول المسروق ولطارئ شغله عن نقل ما جمع، وحيث ان المحصول مؤمن في المزرعة المهملة فلا خوف عليه وارجاء نقله حتى يوم السبت، غير ان الاقدار تدبّر أمرا آخر.

جاء صاحب مزرعة اللوز كعادته يوم الجمعة صباحاً وكان معه ثلاثة من اولاده الراشدين.. حين وصل إلى نقطة تحاذي اكياس اللوز المخبأة توقفت السيارة بسبب فراغ الايطار من الهوا وكان عليه في عدم وقوف السيارة ان يستمر ف بالسر مسافة نصف كيلو متر تقريبا حتى يجد المسلك إلى مزرعته وفي هذه الحالة سيبتعد عن المسروق ولا يهتدي اليه، ولكن الاقدار رتبت أمرا آخر.. أمر اولاده بتغيير اطار السيارة، ومشي خطوات قليلة في المزرعة المهملة بحكم الفضول ليس الاّ.. نظر أمامه واذا به يرى كيسا من اللوز (شكارة كبيرة) مخبأة تحت شجرة أثل، تقدم خطوات واذا به يكتشف خمس اكياس أخرى من نفس الحجم في اماكن متفرقة.. حار في أمره.. المزرعة مهملة وليس بها أشجار من اللوز.. لمن هذا اللوز اذا؟! لابد من تقصى الأمر.. أخذ يتبع الأثر أثر اقدام السارق.. ها هي تدخل مزرعته المحاذية للمزرعة المهملة .. دخل مزرعته ومزرعة جاره المهملة .. تأكد بما لا يدع مجالا للشك من أن اكياس اللوز هي

من مزرعته .. عاد نادي أولاده طلب منهم ان ينقلوا اكياس اللوز إلى سيارتهم بعد أن أصلحوا إطارها.. السيارة كانت زراعية (عكارية) أخذ يبيع اللوز في السوق أحد أولاده يسأله: منين اللوز يا بوي؟ يجيبه: لوزنا من حوازتنا جمعه من لا يأكله وياكله اللي رزقه حلال.

تأملوا في هذا الأمر: السيارة تقف للضرورة بمحاذاة اكياس اللوز المسروقة وصاحبها .. صاحب المزرعة المسروق منها اللوز تمشى به قدمه حتى يقف على رزقه الحلال الذي لولا القدر لأخذه ذلك السارق واكله حراما ليس له فيه حق.. تصوروا لو ان السيارة تقدمت ميئة متر فقط لأخطأت القدم موضع الاكياس .. أنها عبرة وعضة لمن يتأعظ ويعتبر.

الغالب والمغلوب

هي جريئة ومبادرة، تتصرف بذكاء وحيلة تدخل في مبارزات مع الرجال، تدرس المواقف وتخلق الحوار الذي غالبا ما يكون من طرفها هي فقط .. بعد ان تسقط الرجال بمفاجأة لا تخطر لهم على بال، تواجههم بسلاح يجرّدهم من سلاحهم بغتة، فلا يقوون على مجابهة المشهد، حينها يفرون أمامها مدبرين تحت ستار الحياء والحشمة، وهي تعرف هزيمتهم مسبقا.. فقد درست نفسيات الغالبية منهم فغلبتهن حتى كان يوما مشهودا .. هزمت فيه أمام رجل أكثر منها دهاء وحيلة .. خسرت المعركة الاخيرة في مشوارها الهزلي ومسرحيتها التي كانت تتسلى بها مع صاحبات لها.

كانت تخرج في معيّة اترابها من الاناث في شأن من شؤنهم الحياتية في تلك الربوع البدوية المفتوحة .. فضاءات واسعة تكسوها خضرة الربيع بازهارها الفواحة مع النسمات العليلة الرطبة والشمس الدفيئة وزرقة السماء.

في مرات عديدة سابقة كانت تمثل فصلا هزليا مع من تصادفه يسير بمفرده من الرجال، وهي محاطة بصاحباتها تقبل على الرجل وهي مشمّرة ملابسها من قدام قائلة: "أش يهودي هيه .. أش يهودي هيه"! تحريض لكلب مفترض على مهاجمة اليهودي الذي كان في وقت سابق يطوف نجوع البادية يبيع للنساء (خردوات)- التحريض كان يصدر عن الصبية الصغار ليضحكوا من هلع اليهودي .. كان كل رجل يفر من أمامها حياء وحشمة لانه لم يعتاد هذا السلوك

من قبل من فتاة مع جماعة من صاحباتها .. فكن يتضاحكن من الرجل وموقفه المحرج وهزيمته التي لم تكن في حسبانه .. كانت تكرر هذه المسرحية مع كثير من الرجال، وكانوا كلّهم يهربون منهزمين .. حتى جاء دور أحدهم ممّن يسمونه (ولد امه) أو صاحب الزرع بيده .. هاجمته المراة كالعادة مردّدة الكلمة: أش يهودي هيه .. فما كان من صاحبها هذه المرة الا أن شمر من قدام وهاجمها وهو يقول: مرحب مولاك .. مرحب مولاك.. أخذ الرجل يتقدم نحو المرأة وهي تتراجع القهقرى حين عرفت نوايا الرجل، في الوقت الذي فر فيه صويحباتها بعيدا أما هي فقد تعثرت ببروز من تراب لم تراه لانها تمشي على عقبيها .. انقلبت على قفاها فما كان من صاحبها إلا أن اعتلاها، فلما قضى وطره قال لها: ما رائك في عهر الرجال؟؟

قالت: غلب عهر النساء.

للتوضيح: كلمة مرحب مولاك.. هي رداً على التحريض الذي كانت هي تقوله: أش يهودي هيه .. أي بمعنى أنه صاحبك فلا تخشاه، وتقدم فهو لا يؤذيك.

ملاحظة: هذه الحكاية النادرة في راي هي من ابتداع أصحاب الخيال، ولا اعتقد انها تحدث في تجمعات البادية المحافظة.

فلسفة حمّود

حمود رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، هو خريج مدرسة الحياة، دارس مدقق لمجرياتها .. له فكره وتأملاته وفلسفته الخاصة، أنه فيلسوف شعبي له تخريجاته واستنتاجاته، تصيب الحقيقة وتقدم الحجة الدامغة ولا تجانب الصواب.

حمود هذا مواطن يسكن بلدة على شاطئ البحر يخترقها الطريق الرئيسي الرابط بين مجموعة من القرى تقع غربي البلدة وجنوبها، وبلدات ومدن أخرى تقع في الشرق بما فيها العاصمة – طرابلس – أهل هذه البلدة متسامحون، بينهم وبين جيرانهم تقدير واحترام، وقواسم مشتركة أخرى اقتصادية واجتماعية وأدارة محلية واحدة، والجغرافيا والتاريخ مشترك من ناحية أخرى.

يحدث مرات عديدة ان سكان تلك القرى المجاورة وهم يطرقون الطريق الرئيس الذي يخترق البلدة – بلدة حمود – في اتجاههم نحو الشرق إلى العاصمة ومدن أخرى قريب منها .. يحدث ان يشكل هؤلاء الطارقون حوادث سير يذهب ضحيتها أطفال وحتى رجال من تلك البلدة، وتبعا للاجراءات لابد ان يتم توقيف المتسبب في الحادث للتحفظ عليه حفاظا على حياته، ولكن الاهالي في هذه البلدة يسارعون الى اطلاق سراح الموقوف بان يقدموا طلب التنازل عن حقوقهم الشخصية، ويعملون على تسوية القضية ما امكنهم ذلك، ويظهرون موقفهم المتسامح دونما يطلبون دية أو تعويضا، وهذا مشهود لهم به حتى من الاغراب من خارج المنطقة.

حمود له رائه الخاص وفلسفته، رائه الذي يكونه عن قناعة وتمحيص للامر.. هو يقول صراحة وعادة في المجلس الذي يلتأم عقب حادث من الحوادث وخاصة حين تكون الوفاة اثناء المعزى الذي يقيمه أهل الضحية.

يقول حمود: تبو الحق؟ الحق موش في اللي خبط العيل مثلا او غيره .. الحق فينا أحنا .. يقصد أهل البلدة.

واحد من الجمع: كيف يا حمود؟!

- أنتم تعرفوا .. أصحابكم وجيرانكم اكثرهم ما عنداش رخصة قيادة والمليح فيهم عنده رخصة: مشي حالك.

- كيف مشي حالك يا حمود؟

- واخذها عن طريق معرفة .. جائبها له خوه من صاحبه والا عطى عليها بعض الحاجة .. حتى هاذي هناك .. والسيارات جديدة والبنزين سوبر والحاجة لخرى وهاذي هي المهمة ..

- شنيهي يا حمود؟

- بناتكم أسماح ياسر ونهار كامل وهمه يحومو زي افراق الحمام يقطعو في الشارع من جهة لجهة .. وصاحبكم اجي راميها في المية .. حال فمه وعيونه مش معاه طف يضرب عيل لونّه انتافه .. هو بقوله بيعفس على لغرينو يحط كراعه على البنزين .. الحق موش فيه الحق في عقله اللي موش أمعاه .. عقله مسافر في جرة الحمام .. بالك كلامي موش صحيح.

- لا حق ونصف يا حمود .. قلت الصح.

- أمّاله احملو اللي اجيكم من اصحابكم .. ما دامكم طالقين هالحمام يلط بين جاله وجاله.

ميزان العنتير

العنتير رجل بدوي له من الذكاء والنباهة الفطرية والحيلة نصيب وافر .. ذات مره كان ينتصب مضلّة عبارة عن اعواد من سدر ينشر عليه جرده : يمارس تجارة وقتية في السوق الاسبوعي الذي يؤمه رجال من البادية يضربون خيامهم في المنطقة.

كان العنتير يبيع عنبا اشتراه من البدال، الذي كان يطوف به بين النجوع، فلما أحس – البدال – أنه قارب على التلف – العنب – باعه للعنتير بربع الثمن والعنتير يبيعه بالثمن كاملا زايد الربع كهامش ربح للعنتير أي أنه كما يقول .. إيبات بلاش بمعنى أن العنتير كانه لم يدفع شيئاً.

وكان ميزان العنتير يعود كما يقول إلى العهد العصمالي: (العثماني) وكما يؤكد أنّه ميزان مطبوعاً من قبل الحاكم لا يرقى اليه الشك غير ان ادوات التقدير أو ما يعرف بالصروف كانت غائبة لقدم العهد فقد ضاعت أو ضيعها العنتير واستعاض عنها بصروف ابتكرها من حجر وقدرها تقديرا.. هذا يوازي كيلو، وهذا نصف، وربع إلى آخر القائمة، وصنع أيضا من حجر نوافل لصروف الوزن، على وزن نوافل القول لاستخدامها عند الضرورة.

في أحد المرات كان العنتير يوزن كمية من العنب لواحد من معارفه.

طلب الشاري من البائع كيلو عنب .. كان الميزان من النوع القديم الذي يرفع باليد وكان للعنتير ولدا يساعده: شنتي وضع العنتير الصروف حجرة

مقدّره بكيلو في كفه ووضع العنب في الكفة الآخرى.

قال العنتير : آه .. آه .. يخاطب الولد: نقص شرموخ

- الولد يرفع شرموخ كامل: عنقود كبير.

- العنتير لا لا زيد كعبه .. زيد كعبه كان يدغم فلا يظهر العين في نطقه : لهجة المنطقة.

- الشاري كيف يا عمي العنتير؟ تنحى عنقود كامل وترد كعبه؟!

- عاد هذا هو يا ولد خوى.. ميزان أصمالي لا يستهى مني ولا منك راكحه السنره في السنزه، وكان قد وضع نافلة من حجر خلسة في كفة العنب ليتسوي الميزان – كل شيء قدام العين.

- الشاري تو هذا حق والا باطل يا رسول الله ؟!! خلاص انا ما صار ليش

- العنتير : أجعلك لا لحست.

خذت الشهادة

أحدهم سأل صاحب له عن أبنته التي دخلت المدرسة، في وقت كان فيه دخول البنات المدارس عزيزا، وغير معتادا في أحدى القرى الداخلية، في بدايات الثمانينات من القرن العشرين .. سأل الرجل صاحبه أذا ما أخذت مبروكه بنته الشهادة.

أجاب أبو البنت: لا خذت رجل.

قال صاحبه: تلك هي الشهادة الرسمية.. أحسنت أنت وأحسنت هي.

الحاج خرتول

أحدى الجمعيات الخيرية في منطقة ما من البلاد، أخذت تجمع مبالغ مالية من المتبرعين لتنفقها في وجوه الخير: فك ضائقة المحتاجين أو توزيع بعض الحاجات العينية على اليتامى والفقراء، أو تجهيز بعض المرافق الخدمية وصيانتها وما شابه ذلك.

ذات مرة عنّ لهذه الجمعية أن تجمع مبالغ مالية لبناء سور حول مقبرة البلدة، أخذت تجمع التبرعات من أهل الخير منوهة بالمشروع المستهدف: - بناء سور حول المقبرة -

كان الحاج خرتول من الذين قصدهم مندوب الجمعية فلما استفسر منه عن الغرض، أفاده المندوب الحقيقة قائلا: سنبني سورا حول المقبرة ونجعل لها بابا يقفل ولا يفتح الا عند الحاجة.

انبرى الحاج خرتول قائلا: ومن هو الذي وضعتموه في حفرة داخل هذه المقبرة ووجدتموه خارجا منها؟!!

أفحمت حجة خرتول المندوب فلم يحر جوابا.

يا لسياد الطفل هنا شن سماه؟؟

باك مادي رجل من السمر – وباك لفظة تستعاض بلفظة با باك للتخفيف .. مادى .. هذا أخذ حفيدة إلى مستوصف القرية من أجل التطعيمات المعتادة .. ذهب مادي يحمل حفيده على كتفه سيرا على الاقدام مسافة خمسة كيلو مترات اثناء القيلولة، وكان الحال هجيرا.. خالط ذهن مادي تشويشاً بسبب الحرارة العالية .. لما سأله الموظف الذي يقوم بتسجيل أسماء الذين أجريت لهم التطعيمات نسي مادي أسم حفيده.. أستنجد مادي بالحظور قائلا: ويا لسياد الطفل هذا شن سماه؟؟ – قال أحدهم : ولدك حامله على ظهرك وما تعرفش أسماه؟!

- ندري على دعوته المتأخذ .. شورني أنستيه.
- تفكّر في عقلك .. تو تعرفه.
- ما ظنيش ما زال أنجيبه.

هنا يتدخل موظف التسجيل قائلا: ما صلة قرابتك به؟

- شن معناها؟
- معناها: شن يقربك.
- بالك ولد ولدي .. في بالي ولد بركه عندي.
- هو بركه ولدك؟
- أي بركه ولدى مسميه على جدّه.

- أماله حتى بركه سمي ولده على جده .. يعني على أسمك.. أنت شن سماك؟
- أنا مادي.
- حتى ولد ولدك أسماه مادي .. هذا حسب الضن.
- ما تلوّح شيء.. أبالك سماه مادي.
- نكتبوه مادي؟؟
- اكتب اللي إجي قدامك .. ابقولي أسماه مادي الميخوذ .. نسمع في جدّاه مرّه مرّه .. تقول له يا مادي ولدي لمّا تكبر تسرح بمعزة جدك مادي .. ماكش بعيد سماه مادي .. راحت والقيناها .. اكتب مادي وخلاص والا اكتبه على اسم باباه بركه .. هو مادي هو بركه.

حمد بن أمحمد

رجل المعي الذكاء، سريع الخاطر، فكه الحديث، لطيف المعشر، نبه فطن، هو من قرية مجاورة لقرية نسكنها، ومن قبيلة أخرى تغاير قبيلتنا، لكن بيننا نسب ومصاهرة، وتواصل اجتماعي، ومعاملات على مستوى الجماعة والافراد. لم تكن لي به معرفة حين كان شابا، فانا من جيل يقع في الترتيب بعده، لذلك كنت أسمع عن نوادره وطرائف حديثه من عارفيه ومجائليه، فهو لهذا السبب معروفاً ومشهورا، ويعرف بأنه ملح حديث الميعاد، والرجل من وجوه قريته ومن أهل الرأي والفضل، كنت أسمع عنه قبل ان التقي به في مكة المكرمة، حين كان رفيقا لخالي في أدا فريقة الحج والعمرة وكنت أنا أيضاً حاجا معتمرا رفقة شخص من اصحابي، كان لقاء عابرا لمدة ساعة جلسنا معاً في مقهى أخذت عن الرجل انطباعا حسنا عزّز ما كنت أسمع به عنه.

بعد سنوات طويلة، والسنون تمر دون أن نشعر بها، أو نحسب حسابها وهي تستقطع من عمرنا .. التقيت به في قريته في فناء جامع القرية، كنا نتهيأ لصلاة الجمعة سألته بعد أن سلمت عليه: كيف حالك يا خالي حمد؟ أجاب: هان: التسكره في اليد أو واقفين في الطابور، يعني انه في طريقه إلى مغادرة الدنيا ، نرجو في الساعة .. كان قد تجاوز في ذلك الوقت التسعين من عمره .. اضاف لكن مرة مرة يزرق واحد قبلي مستعجل.. شن بنقوله؟! برّه يا سيدي ما دامك مستعجل سيورنا أنتلاقو.. هاني في جرتك كان ما زرقش واحد قبل حتى هو مستعجل زيك.. وضحك عمك حمد بن أمحمد وأشاع جوا من الراحة وسكون النفس في من حوله، وهو يضحك ودخل المسجد: ومن ذلك اليوم لم التقى به حتى سمعت أنه جاء عليه الدور، فاخذ طريقه إلى الدار الآخرة، رحمه الله رحمة واسعة.

تورّاهم إوازو

تزوجت من رجل موسر، انعم الله عليه بمال وفير، عماده، الأنعام: أبل وأغنام، فهو من أهل البادية، وهذا كسبهم في الغالب، أما هي فكانت بنت فقير، شحات، تعتمد وأسرتها على تكفف الناس.. أعطوهم أو منعوهم، هكذا هي الدنيا وهكذا حظوظ الناس فيها، هي في كوخ أهلها الحقير تجتمع وأخوتها ووالديها في نهاية طواف اليوم ليفرزوا ما منحهم أهل الاحسان: هذا شعير وهذا قمح وآخر صوف ووبر، بعض ملابس دراسة، واشياء قليلة زهد فيهاأصحابها. تذكرت تلك الجلسة مع أسرتها وهم يعزلون الموجودات عن بعضها .. جلسة فيها فرحة بماحصلوا عليه من رزق تكفّفوه من الناس، مضحين بكرامتهم وماء وجوههم. نطقت بتلك العبارة «توراهم ايوازو» كان زوجها الموسع عليه بفضل الله بالقرب منها .. أستفسر منها عما قالت.. أخبرته أن أهلها الآن مجتمعين يفرزون ما حصلوا عليه من الناس من اشياء سمتها له وهي تنزع إلى تلك الجلسة التي كانت تشارك أهلها فيها من قبل.

قال لها: أهل المدن يقولون عن حشرة أسمها (الزقرلو) يقولون حين يضعونها على بساط من حرير، تجرى نحو بيت الخلا، لانها تعوّدته وهو اللائق بها، وأنت حالك كحال هذه الحشرة من الآن انت في حل من أمرك.. أذهبي إلى أهلك غير مألوف عليك .. أذهبي وازي معهم.

عندكمش بقري؟

حدثني صاحب كان من أصحاب الخواطر السريعة والبديهة الحاضرة والفطنة والنباهة، كان عندما يفاجئه سؤال أحيانا يكون محرجا وفيه بعض التورية والاسقاط. يجيب عنه دونما تحفظ، بما أشد منه أحراجا وأبانة وافصاحاً والرجل نفسه يتصيد بعض المواقف والمفارقات، وغفلات الغافلين وقصور الفهم عندهم، فيحصرهم في احراجات يترتب عليها ردات فعل ممّن هم في نباهته وذكاءه، تصل أحيانا إلى حد الشروع في الأذى بقول اللسان وحتى الفعل بلغة اليد.

كان هذا الرجل ذات مرة يحضر مع جماعته لاقامة زردة على شاطئ البحر في أيام الصيف .. جاء إلى محل جزارة ليبتاع بعض اللحم من أجل الشواء، سأل صاحب محل الجزارة مستفسرا عن انواع اللحوم التي عنده. أجابه الرجل: عندنا لحم خروف وجدي، وأيضاً عندنا لحم القعود. قال الرجل الذي سأل عن انواع اللحوم، وقد داهمته الخاطرة: عندكمش بقري؟ وتبسم في خبث.

فطن الرجل الآخر إلى ما يرمي إليه من قول مبطن – أصطلاح معروف بين الناس – اخذ ساطوراً معلقاً علي الحايط وهجم عليه ليمسح ما عدّه مسبّة في حقه، فما كان من صاحبنا الذي (حبكت) معه الخاطرة الا أن أطلق ساقيه للريح، ونجا بنفسه، من تهلكة كانت ستصيبه، اعتذر رفاقه للرجل صاحب الجزارة، وقالوا له: حقك في رقابنا، وصاحبنا الذي هرب: هذا ديدنه لا يكتم خاطرة في نفسه ولو كانت عاقبتها سيئة عليه، وهو مزاح ليس إلا سريع الخاطر حاظر البديهة سليم النوايا.

انشاء الله ما إوليش

يذكر الناس إلى يومنا هذا موقفا حدث في المنطقة الشرقية من ليبيا، وعلى ما ذكر محدثي، كان الرجل من قبيلة العواقير المتواجدة من سلوق وحتى مرتفعات الرجمة في الغرب من الجبل الأخضر .. كان أحد شيوخ تلك القبيلة رجل من أهل الشهامة والمرؤة. له غيرة على الوطن وأفراد قبيلته، وكانت الظروف على غير ما يشتهي ويرغب، في البلاد كانت قد خضعت للمستعمر الايطالي في اعقاب المقاومة الشديدة التي بها في كل شبر من الارض الليبية بعد كفاح دام أكثر من عشرين سنة والحادثة تمثلت في أن السلطات الايطالية قبضت على أحد المتمردين من أفراد قبيلة الشيخ وجئ به إلى السجن، سمع الشيخ بالخبر فخف إلى نجدة الرجل ليتحايل على اطلاق سراحه بكل وسيلة يجدها – جاء إلى مكان اعتقال الرجل مستفسرا عن الأمر ولان الامر مجرد اشتباه ولم تثبت الادانة بعد، طلب من الشيخ ان يدلي بمعلوماته عن الرجل، وما اذا كان حقا من الفلاقه كما كانوا ينعتون المجاهدين، قال لهم الشيخ هذا الرجل من أفراد قبيلتي وهو من أهل البادية يرعى أبله وليس له فيما تدعون.

قالوا: سنطلق سراحه بكفالتك على أن يأتي الينا كل يوم خميس مثلا

قال الشيخ: أطلقوه:

قالوا: عن طريق المترجم: أو كان ما جاشي .. باللسان المحلي ..

قال الشيخ – وفي قوله اعاز إلى الشخص المقبوض عليه:

كان ما جاش أجعنه باش جي – وهو يفيض غيضا وحنقاً على المستعمرين.

يا ربي ارزقني بمفتاح بن سويسي

مفتاح بن سويسي رجل يأبى الظلم، ينحاز إلى الحق، وينصر المظلومين دون أن يطلب منه ذلك، هو رجل بدوي غيور يخف لنجدة المقهورين والذين يقع عليهم ضيم. كان ذات مرة رجل من أهل الصلاح، مستضعف مسالم لا ينازع الناس حتى في حقه يلجأ إلى الله حين تقع عليه مظلمة، يدعوه فيستجاب له، يترك مشاكلة الظلمة وجدالهم، لكنه يستقوي عليهم بالله وباصحاب المرؤات الذين ينصرون الحق ويناصرون المغلوب.

كان هذا الرجل الصالح ذات مرة يسقي أبله على المورد، يوم موردها. وصادف ان وجد إبلا كثيرة تشرب على المورد، وأهل الابل يتزاحمون على سقي أبلهم ويتنازعون، وحدث أن تصدى أحدهم لابل الشيخ الصالح فمنعها من الماء، أغتاض الشيخ من تصرف الرجل الذي لم يرعى له حرمة وظلمة بأن طرد ابله من على المورد وأغلظ له القول مستضعفه ومحقره، تأثر الرجل وكظم غيضة، وهو لا يقوى على رد الاهانة وليست من سلوكياته، لكنه أتجه يطلب الله أن يعينه بعون يمسح تلك الاهانة ويحفظ له كرامته، قال في دعوته: "يا ربي أرزقني بمفتاح بن سويس" فاضت عيناه بالدمع ونظر في الافق، فاذا بهذا الرجل الذي استنجد به يجد السير نحو المورد يبحث عن بعير ضال.

وصل مفتاح إلى الرجل وكان يعرفه معرفة تامة، وجده على غير الحال المعهود، أستفسر منه.. أخبره بالرجل الذي طرد الابل واساء اليه وهو شيخ كبير.

كان مفتاح هذا معروفاً بشجاعته وقوته.. جاء إلى الرجل الذي أساء إلى الشيخ دخل معه في جدال حول الواقعة، قابله المسيء بوقاحة وسؤ أدب: فما كان من مفتاح الا أن هوى عليه بعصاة غليظة أوقعته أرضا وسقى للشيخ أبله، وذهب في حال سبيله بعد أن وجد ضالته على المورد فكان الشيخ هو الذي يروى الحادثة في مجلسه، وكان صاحب مجلس للصلاح والتقوى وذكر الله.

صابة عامر

حكاية صغيرة يتندر بها في الجنوب التونسي، وتحديدا سمعتها في مدينة جرجيس الساحلية، ومفادها أن شخصا مسؤلا أمام أهل الحل والعقد في الدولة، - كان ذلك في زمن بعيد - مدير ناحية أو متصرف (معتمد) مثلا أو نائب والي اسمه عامر جاء اليه جماعة من الاهالي يطلبوا منه بذورا لزراعتها اثناء الموسم، على أن يرد له الكمية زايد المعلوم المتفق عليه كما يقره العرف.. اعطاهم كيلات من القمح وذهبوا ليبذرونها حين نزل غيث السماء، وعندما حل موسم الحصاد، جاؤا اليه - الرجل المسؤول فقالوا له: الموسم خاب فقد أنبتت الارض شوكا، وقد زرعناها قمحاً.

-كانوا هم قد اكلوا القمح ولم يزرعوه.

-قال لهم: لنرى اذا ما كان كلامكم صحيحا.

-ذهب معهم إلى الارض التي أدعوا أنهم زرعوها قمحاً.

وجد الرجل فعلا شوكا برياً نما وغطى الارض وطاب حصاده.

قال لهم: من يزرع لابد أن يحصد.. وعليكم بحصاده، وأجبرهم على ذلك، فكان حالهم لا يحسد عليه، بعدأن أمرهم بدرس ما حصدوه بايديهم ودرسوه باقدامهم، فذهبت الحكاية نادرة يتمثل بها فيقولون: "زي صابة عامر"

ناقة بن دلفو

وهذه الحكاية تذكر الليبين وخاصة أهل الجنوب (فـزان) سبها وما جاورها، بحكاية ناقة بن دلفو .. وهذا أيضاً رجل نافذ حاكم مدينة أو منطقة، أو أقليم، كانت له ناقة يطلقها تاكل من زروع الاهالي وتعيث فيها فسادا، فلما ضج الناس من أفساد الناقة لمزروعاتهم جاءوا إلى بن دلفوا هذا ينوون تقديم شكواهم بخصوص الناقة وعندما دخلوا عليه بطلب منهم في أمر هام بالنسبة لهم أحجموا جميعاً عن الافصاح، فقا لهم ما طلبكم؟ قالوا: الناقة.. قال وما بال الناقة .. وقد فهم غرضهم .. وأظهر الغضب الذي وراءه شراً .. قالوا في صوت واحد: الناقة تبي جمل .. تحصناً من شرّه وإثارًا للسلامة، وضلت حكاية ناقة بن دلفوا نادره أخرى يتندر بها في الجنوب.

الكبش خش

صاحب لي له في "الكيف" وصاحبي هذا لم يبرح القرية، وكان تحصيله العلمي ضئيلاً لم يجتاز الشهادة الابتدائية، ابوه صاحب مزارع وأراضي صالحة لزراعة الزيتون والكروم، أمتهن في بداية حياته مهنة متواضعة ثم أتجه إلى الزراعة كوالده ونجح فيها .. كان الرجل مقصداً للظيوف وكان يهوي الزردات، مع أصحابه وخلاّنه، وزرداته لا تخلو من كيفه وكيف جماعته: الشراب المعروف باللاقبي على أيامه، والنبيذ المصنع محلياً حين أنقطع الأول وشح البديل.

ذات مره عاد صاحبنا إلى بيته في وقت متأخر من الليل.. كان الظلام دامساً فتعثر في عتبة الدار.. وقع وقعة مدوية، ضجت لها كلاب الجيران من بعيد.. أخذ يتأوه ويحاول الدخول إلى بيته – الدار .. كانت زوجته بين يقضة ونوم، وكانت المسكينة تحدب طوال النهار على تدبير منزلها، ورعاية أولادها العشرة، نادت أبنها الأكبر من تحت الغطاء: : "نوض يا مصباح حسّه الكبش خش ايقربع.

قال لها الرجل الذي ما زال تحت تأثير الوقعة: لا هذا الكبش الكبير سيد العيل ودخل بصعوبة إلى فراشه، واستغرقت هي في نوم عميق.

والحكاية يرويها أكثر من واحد .. يدعى أنها حدثت له هو نفسه.

أحدهم قال قالت الزوجة وهي في نعاسها: حسّه الكلب ينسنس نوض يا ولد لزّه.

قال: هذا السلوقي تو إينسنس ويظهر.. عاد سلوقي خير من كلب.

وآخر قالت زوجته: هذا الحمار خش تو ياكل شكارة النخالة.

أجابها زوجها: أضرب الحمار عالنخالة ينس الشعير.. حق حمار لو كان مش أحمار ما أنجي أنقربع بعد نصف الليل .. نامت هي وضل هو يقلب في كلمتها على وجوهها، فوجدها محقّة في وصفها.

حصّلت غرارتين (شريح): تين مجفف.

أحدهم أخبر جاراً له وصاحب، وهو مزهواً مفتخرا .. بأنه تحصل على (غرارتين) – وعاء – من التين المجفف، انتاج مزرعته، وأنه أحتفظ بذلك الانتاج، ولم يبح منه شيئاً في السوق وأنما أدخره لفصل الشتاء من أجل استهلاكه واسرته.

قال له صاحبه – وكان من قوم مشهورين بلذعة اللسان – جريت على خراب ...

زي مربوعة الشيخ

في الارياف خارج المدن، حيث لا تتشكل قرى أو مدن صغيرة، وانما السكان يبنون بيوتهم كل في مزرعته، وهي بيوت في الغالب متواضعة من طين أو حجر، خالية من الزخرف والاناقة ونوافل الاشياء، بيوت صغيرة وحسب الحاجة، وحسب الامكانات المتوفرة.. الشيخ فقط .. شيخ القبيلة .. هو الذي ينشئ فضاء متسعاً من أجل استقبال الظيوف والاعيان وافرادالقبيلة في المناسبات المختلفة – مكانا يسمونه مربوعة ومربوعة الشيخ دائماً متميزة باتساعها وعلو سقفها ونوافذها المتعددة بحيث تتوفر فيها التهوية وتتسع لعدد من الافراد.. لذلك يقال: زي مربوعة الشيخ.

وصادف أن تزوج أحد افراد القبيلة بامرأة ثيب، وصادف ايضاً أن التقى بأحد معارفه يوم الصباحية.. قال له صاحبه: كيف وجدت فلانه أجاب الرجل: زي مربوعة الشيخ: الوسع والبرودة.

رميله واسماعيل

اسماعيل رجل بسيط من عامة الشعب، ثقافته شعبية وأسلوب حياته ونمط عيشه، يتمتع بقدر من النباهة والحذق سريع الخاطر حاضر البديهة فطن .. يعرفه اقرانه والمحيطين به بنوادره وفكاهات الحديث، يعيدون أقواله وأحكامه وفلسفته الشعبية التي تصيب الحقيقة في الغالب، ولا تخطئ الا نادراً.

اسماعيل انشاء مزرعة على اطراف القرية، كانت في ارض وعرة لا يصل اليها الا بصعوبة، وعبر مسالك ملتوية ممهدة بطريقة بدائية وكثيرا ما تهب على مسارها الرياح فتراكم فيها الرمال، التي تعوق اسماعيل حين يطرقها للوصول إلى مزرعته، فيضطر إلى النزول من سيارة (رينو) متهالكة يملكها، فيزيل تلك الرمال بيديه، ويضل يداوم على الفعل وقتاً طويلا حتى يتمكن من اجتياز تلك الصعوبات .. كان أسم زوجته (رميله) وغالبا ما تكون معه في طريقهما إلى المزرعة .. في يوم مر به جماعة من معارفه سالكين نفس الطريق .. كان اسماعيل منهمكاً في أزالة الاتربة التي تسد الطريق..

قال له جماعته: كيف حالك يا اسماعيل منتظرين منه أجابة طريفة كعادته – قال لهم: هانا: في النهارة رملة في الليل رميلة.. أستحت المرأة وأدارت وجهها وضحك الجماعة وضل اسماعيل يناضل لازالة التراب.

حصّل ما حصّل

واحد من الكسالى الاتكاليين الذين يعتمدون في معاشهم على ما يجود به الناس من عطايا قد لا تفي بالحاجة، لكنهم وقد استمرأو الراحة وفضلوها على السعي في الارض من أجل كسب قوتهم وقوت عيالهم بكرامة وشرف، فهم والحال هذه دائما في محل الضعة والهوان وغالبا ما يتكففون رزقهم من المعارف واصحاب الاحسان، لا تندى وجوههم من سؤال الناس أعطوهم أو منعوهم.

كان واحد من هؤلاء محل سؤال وجواب بين اثنين من العارفين بحاله. سأل الأول – وقد علم أن ذلك الكسول، يقوم يجني حبوب الزيتون من شجيرات يملكها جار له بالنصف: بمعنى كيلة له وكيلة لصاحب المزرعة

قال الأول: كم حصل فلان (الكسول) من حبوب الزيتون؟؟

أحابه الثاني: حصل ما حصل الصّبع الوسطى من ليد ليسره.

كانت التورية لاذعة وفي محلها.

جــــاوارا

في زمن مضى كانت البلاد مزارا لكثير من الطامعين وأصحاب الحاجات، بما فيهم رؤساء بعض الدوال الافريقية، ان لم نقل أغلبها، وكان الرئيس عمر بونقو، أولهم وتكررت زيارته اكثر من مرة، تبعه بعد ذلك غيره من الرؤساء، ولابد أنهم نالوا نصيبا ممّا نال بونقو.. وكان شاعر يرصد الاحداث، وقد التقى بصاحب له، فسأل الصاحب الشاعر عن الجديد .. قال الشاعر:

(عمر بونقو دبّر على جاوارا سحاتيت جملة جائية تجارا)

الطيّارى

رجل ذكي فطن حاذق لبق، مارس التجارة منذ صغره، حرمته من مواصلة تعليمه، لكنه تعلم من مدرسة الحياة، فنبغ نبوغا غير معهود في مهنته وبين من يتعاطونها من كبار التجار، سافر إلى اغلب بلاد العالم، تعلّم اللغات وخالط الاقوام، واكتسب المهارات وعرف أسرار المهنة التي دخلها مبتدئياً حتى صار فيها بارزا يشار اليه بين أربابها.. كان الرجل نشطاً حيوياً متوثباً مبادرا سباقا.

كانت له متاجر (دكاكين) في العاصمة حيث بؤرة المتسوقين في الاحياء الشعبية، وكان يستخدم موظفين لادارة متاجره وهو المشرف العام، يطوف بينهم منذ الصباح الباكر وحتى المساء في نشاط دائم وداب على العمل، يوجه ويحدد الاسعار ويزود مراكز البيع بالمطلوب من المخازن، والرجل: فيه لله كما يقولون، بمعنى خير جواد يعطف على المساكين ويساعد الفقراء ويعالج المرضى على حسابه، ويرعى الايتام الارامل، يصل الرحم وينجد الاقارب بماله في الملمات.

ومن صفات الرجل الشخصية: سرعة الحركة وقوة الملاحظة، وحضور البديهة، وهو مبتسم مزاح، ودود يلاطف الاصحاب ويتبادل معهم فكاهات الحديث. كان أحد الموظفين عنده يماثله في بعض الصيفات فهو مزّاح مثله صريح في توصيفه وتشبيهه.. كان يقول عليه: فلان أي الطياري وهذا أسمه الثاني – اللقب – يقول: فلان: دماغه كالياباني بمعنى ذو عقلية جبارة وفعلا هو من الذكاء بمكان وعينيه: صيني، كان في عيني الرجل ضيق، ورجليه طياري

بمعنى سريع الحركة كأنه يطير، حين ينتقل من مكان إلى مكان يراقب تجارته وموظفيه.

كان يسمع من صاحبه هذا النعت: دماغه ياباني، عينيه صيني رجليه طياري.

فيضحكا معاً ولم يفسد بينهما ود، والطياري نفسه يقول لصاحبه، ربما أصبت في الثانية والثالثة.. لكن أين أنا من العقل الياباني الجبّار؟

كبش الجنة

كان واياها – زوجته – يجلسان في ركن من المربوعة في بيتهم الذي كان يعيش معهم فيه ثلاثة شبان وأربع فتيات تزجوا جميعاً واستقلوا عن أبيهم في بيوت خاصة، وبعضهم سافر في دراسة خارج الوطن، وكانت آخر البنات هي التي تزوجت منذ شهرين وغادرت بدورها بيت والدها.. كان الحديث مع زوجته التي تجاوزت السبعين من عمرها والتي يكبرها هو بعشرة سنوات.

قال لها: فراق الدنيا يوريك فراق لآخرة.. الله الله توه كانوا سبع معانا .. ربو الريش وطارو آخرهم يزه.. أمس وهي معانا.

قالت: هاذي هي الدنيا.. كل جيل مع جيله .. بره يا لول جاك التالي.

قال: وكان الوقت قرب عيد الاضحى – تو أحنا قعدنا رأس ورويس، ضاري نذبحو في زوز كباش .. السني هاذي خريف صغير سادنا أنا وانت، مافيش علاش.

قالت: يعطوك.. أنا نبي كبش زي العاده هذاا طول قرونه .. باش نركب عليه في الجنه.

قال: أنت ضامنتها الجنة .. غير ادخليها قبل .. بعدين أركبي على أنا .. حتى كان أبقولي ما عنديش قرون طوال.

قالت: هو أنت حتى في الجنة لاحقني؟ لا بهناك .. أنا بطلت ما دامك بتقابل وجهي حتى في الجنة

– لعنة الله عليك يا ملعونة حاسدتني في الجنة؟ هو أنت بتخشي الجنة؟!

- نخشها غصباً عنك .. وانت ما تشمش ريحتها.

ويغضب منها غضبة شديدة لطمها على أثرها لطمة مؤلمة حتى نزف من رأسها الدم قائلا لها (أهو اللي تبيه يا جقربة.. مش كبش تركبي عليه في الجنه.

أغمى عليها من شدّة اللطمة ونزف منها الدم، الامر الذي أضطره أن ياخذها معه إلى المستشفى. في الاستقبال قيل له: ماذا حدث لها؟

-حتى شي حشاكم هي شبحها دفر.. جت خاطمه عثرت في العتبة طاحت على طولها جبي رأسها على الزليز.. صار لها خبش بسيط.

-كيف بسيط يا حاج.. هي ما زال مغمى عليها .. شن تبينا أنسجلو؟ حادث عارض؟!

-لا قيدوها ضد مجهول.

وتستيقض المرأة فتسمع ما قال زوجها للاستقبال، فترفع صوتها في وجهه قائلة: غول انشا الله وسلال لعقول .. مش انت يا كذاب حدفتني (بالبرادة) شدوه راهو يفلت منكم وسلموه للشرطة نبي منه حقي.

-قال موظف الاستقبال: في الحالة هذه يا حاج بنستدعو الشرطة تأخذ اجراءتها.

-ما تاخذش كلامها هالسرافة.. راهي مقطع كذب.. وساعات تريح منها الخاريطه ما تعرف ما تقول.

-لا لابده من الشرطه يا حاج بعدين المسؤولية نوحلو فيها أخى.

هي تتكلم هي بصوت خفيض، مخاطبة موظف الاستقبال: بالك يحبسوه أوخي؟؟

-لازم ثلاثة والا اربع ايام .. ما أخصه منهم شيء.

-بينا أوخي هالمرّه مسامحاته.. غر ماعادش أيعاود صنعته.

تعبتوني

كان أحدهم جزوعاً تقلقه المتاعب الصغيرة ولا يصبر على مشاق الحياة وصعوباتها، حتى التافه منها والبسيط الذي ليس فيه عنت . يجزع له، ويضل يندب حظه في الحياة مخاطبا ابناءه، تعبتوني، طول عمري وانا نخدم عليكم وأنتم راقدين تاكلوا فيها باردة".

أنبرى له أحد أبناءه: أنت في هذه الحالة ترفض واجبك .. أليسوا الناس كلّهم مثلك يحدبون على اولادهم؟ يقومون بواجبهم نحوهم ولا يتأففون ولا يجزعون؟ ما داموا لم يبلغوا سن الرشد.. هل فرط والدك – جدي – في خدمتك وانت صغيرا؟! ألست انت من قال لنا ذات يوم "كان والدي – اعني جدي – ينهض منذ الصباح الباكر يضرب في الارض من أجل معاشك واخوتك ولا ياوى إلى فراشه الا في وقت متأخرا من الليل .. قلت هذا بعظمة لسانك وغيره من جيله كلهم كانوا يحدبون على أولادهم يطعمونهم الطعام ويكسونهم الكسوة، وتلك هي سنة الحياة، أجيال تتعاقب تؤدي دورها في الحياة وتمضي .. فكيف ترفض انت ان تقوم بواجبك نحونا؟! أننا صغاراً لم نبلغ الرشد بعد، وحين يستوي عودنا ونصبح شباباً سيكون الدور علينا، حينها ترتاح أنت ولا ينالك من التعب شيئ، وتنسى هذه الكلمة – تعبتوني – غيرك من الناس يتعبون في سبيل أبناءهم ولا يمنون.

ماني عمة حد

كانت بيضاء جميلة ريّه الشباب، مطلقة من زوج لم يعاشرها كما تريد، هي في بيت أخيها كفيلها بعد أن غيب الاجل والدها، كانت منطرحة ساعة القيلولة على فراش وثير بين نوم ويقضة، وكانت حاصرة بعض الشيء بسبب خلو المكان من الطارق كما كانت تعتقد، في الاثناء دخل أبن أخيها الشاب المراهق، هاله المنظر وحرّك فيه نوازع الشباب فوسوس له الشيطان.. قال: بلفطه المحلي "الرّبى لو كان مش عمتي".

سمعت هي القول، تحرّكت فزاد انحصارها وتناومت، وغمغمت قائلة: أنا ما عمة حد: أي أنا لست بعمة أحد، يقول الراوي: لست أدري ماذا كانت ردّة الفعل .. لكن المتندرون يحملون الموقف أحتمالات شتى، وكل يشطح به الخيال، فيتزيد، ويبالغ في الوصف، وهكذا هي النوادر وفكاهات الحديث: مباحة في الصبؤات والخلوات، ولو كانت محضورة ومحرّمة وممجوجة ذوقاً وتأدباً.

البازين يبّى لباسه

أحد ابناء وجهاء القوم في بلده الاصلي من منطقة الجبل الغربي، كان موظفا سامياً في أحدى دواير الدولة الرسمية، حين يزاول عمله يلبس اللباس الرسمي الافرنجي، ويراعى أداب عمله الوظيفي الذي له علاقة بالجمهور، يتحفظ في تعامله مع مرؤسيه، ويظهر الجديّة والرسميات كما تفرضه الوظيفة والواجب.

طرق بابه صاحب له ذات مرة، وبعد جلسة حميمية تبادلا فيها طرفا من احاديث الساعة، والحي والمدنية .. قال له صاحبه: اليوم الغدا عندي والوجبة بازين، والبازين – لغير الليبيين – اكلة شعبية تقليدية معروفة لها طقوسها ورسمياتها، وأوصول تناولها.

جاء موعد الغداء – بعد الدوام الرسمي طبعا – ذهب الرجل قبيل انتهاء الدوام إلى بيته، أرتدى كسوة عربية تقليدية – فرملة – زبون وطاقية وجرد وبلغة مغزولة: لباس الوجهاء في المنطقة الاصل، وجاء إلى بيت صاحبه صاحب العزومة.. بعد وقت قصير بدأ الآخرون والمعازيم، من أصحاب صاحب الوليمة يتقاطرون وكل بلباسة الذي عليه عند خروجهم من مكاتبهم في أداراتهم – جميعهم من الموظفين – تحلق الجمع حول وقصعة البازين، لم يكن في اريحية وعدم احراج الا صاحبنا صاحب الزبون والجرد واللباس التقليدي كان يتربع في راحة تامة ودونما حرج ولا تكلف ويتناول طعامه في يسر.. أما الآخرين فكانوا في أشد الحرج والتكلف، حيث تعوقهم ملابسهم الضيقة والتي لا تلائم

الجلسة حول قصعة البازين.. فسقط بعض المرق على ملابس أحدهعم فشوها، وآخر لامس كمّه حواش القصعة فتشوّه وغيرهما كان بدنيا لم يجد راحة في تناول البازين فتوقف عن الأكل قائلاً: كنت قد أخذت وجبة افطاري في وقت متأخر واكتفى بتناول الفاكهة، وأخرون حدثت لهم مفارقات أخرى .. أما صاحب الزبون والجرد، فقد أنبرى لهم يقول: "البازين يبى لباسه" ضحكوا جميعاً وقالوا: صدقت، هو تقليدي شعبي ويجب ان نكون له تقليدين شعبيين.

أمّاله بتولّي فيل

أحدهم حدث عن أبن عم له أصابه رزق واسع بعد فقر مدقع.. قال الرجل كنت في زيارة لابن عم لي في المدينة وقد سمعت أنه انشا بيتاً جديدا. قال: دخل بي يفرّجني على ردهات البيت وغرفه الكثيرة، وابوابه ونوافذه المتعددة، وكنت مشدوها من فخامة المبنى واتساع غرفة وهندسته المتميزه، ثم دخل بي إلى صالة فسيحة فخمة موثثه بافخر الجلسات والتساير.. وقبل أن يوتى لنا بالقهوة، نهض قائما وقال نسيت أن أفرجك على غرفة النوم الرئيسة.. فنبعته مجاملة ، فدخل بي غرفة، لا ليست غرفة لا تليق بها هذه التسمية، وانما فضاء واسع يعلم الله ما فيه من اسباب الرفاه..

قال لي: هذه غرفة نومي.

قال عاجلته قائلا:- قبل أن يبدأ في سرد مميزاتها – أما له بتولّى فيل. واذا بالرجل يصمت وقد شعر بأنه تمادى في إظهار البطر والتعالي والفخفخة الزايده، سيما وأننى أعرف ماضيه منذ سنوات قليلة مضت، إذا كان لا يملك الا اسمالا باليه وقوت زهيد، وانني أيضا أعرف اسباب هذه النعمة التي هبطت عليه من السماء.

لكل رزقه

قال واحد من أهل الخير: كنت في شبابي أطوف البلاد لاداء مهمة تتعلق بالوظيفة .. في أحد النجوع في البادية وجدت كهلا في خيمة متواضعة يجاور بيتا كبيرا لشيخ القبيلة، الرجل كان مغتربا عن بلده الاصلي الذي هجره منذ كان شابا، وكان متزوجا من قبيلة غير قبيلته، واهل الزوجة بادية في الغرب، وكان هو من الشرق.. قال صاحب الخير: أحسنت للرجل بما أستطعت، لأنه كان بادي ضعف الحال، وتمر السنون، تحن زوجة الرجل إلى ربع أهلها في الغرب، وبتدبير منها انتقلت وأياه إلى أين يسكن أهلها، وكان الرجل قد بلغ آخر العمر، وصادف أن ذهب صاحب الخير إلى المنطقة التي سكن فيها الرجل العجوز في مهمة كسابقتها، ويعلم من المتواجدين أن فلان: ذلك الشيخ الهرم .. وكان شاعرا مشهورا – هو في بيت قديم يقضى أيامه الأخيرة، وما ان طرق سمعه بوجودة حتى طلب ان يزوره.

قاده أحد أنسبائه إلى حيث يسكن، دخل عليه وما ان مسك بيده وسلم حتى لغط العجوز باسمه الرجل المحسن.. عندما هم الرجل بالخروج من عنده أدخل يده في جيبه ونفحه ما امكن.. قال العجوز في تأثر بالغ: ريت القسم .. سبحان الرزاق .. من قال؟ يُعرف مكاني ويأتيني رزقي وانا في مكان لا يخطر على بال؟؟ هو الذي لا ينسى خلقه .. لا اله الا هو .. سبحانه .. وضل يردد: ريت القسم .. ريت القسم، حتى غاب عنه الرجل المحسن.

الله ليس بغافل عن خلقه، كل يأتيه رزقه أينما يكون: انسان أو حيوان أو طير، وكل دابة على الارض مهما صغر حجمها، أنه الخالق المدبر الرزاق العليم.

مدفع بوخرص

حكاية طريفة تروى عن رجل حضر شاهد في مشاجرة بين أثنين، استعمل فيها السلاح الابيض، اذ طعن أحدهما الآخر بموس يسمونه: موس بوخوصه، .. جيئ بالمتضرر إلى المستشفى حيث أسعف بالعلاج اللازم، وقبض على الجاني فاودع السجن .. أخذت النيابة أجراءتها، حضر الشاهد .. سأله المحقق كيف حدثت المشاجرة؟ أفاده أن الجاني طعن صاحبه بواسطة موس بوخوصة .. خرج الرجل الشاهد وقصد بيته راجلا وقد أوتي به في سيارة الشرطة .. كان يبعد عن المركز بمسافة خمسة كيلو مترات.. قال في نفسه: هذا أول مكسب، ما زال الحبل عالجراره.. مرت أيام وطلب الرجل الشاهد مرة أخرى من طرف وكيل النيابة.. لم تأتي به سيارة في هذه المرة .. فقط أستلم استدعاء وعليه أن يدبّر وسيلة للوصول إلى مبنى النيابة.. اكترى سيارة على حسابه الخاص .. حضر أمام وكيل النيابة، سأله نفس السؤال مع اختلاف الصيغة .. ما هي الاداة التي طعن بها الجاني المجني عليه أجاب ب (موس بوخوصه، ثم أسر في نفسه: تو انا فيش جيت: ماشي جاي بين الشرطة والنيابة.. ماني من لول راني قلت ما ريت شيء.. رقيت لزرق .. راني لا مشيت لاجيت.

ايام أخرى وتستدعيه المحكمة الجزئية للشهادة .. جاء مكرهان في صالة الانتظار سأل أحد المباشرين في المحكمة قائلا: "يا ولد عمي تو أنا لي ثلاث شهور وأنا ماشي جاي بين الشرطة والنيابة وبعدين رست لي في المحكمة على خاطر ضارب ومضروب: واحد حصل نخسه في جنبه وبريء ورروح لهله

والأخر حبسوه يومين وطلقوه، وانا فيش جيت إمقسوا في بينهم اليوم ثلث شهور لاه شن درت تحت ربي؟ على خاطر قلت الحق؟!

-ما زالك انت شن ريت.. هاذي الجزئية ما زال الابتدائية ولستناف هاذا كان مارستلكش في محكمة النقض.

باهي تو كل حد يعرف ما يصلح بيه .. كل رأس فيه حكمة .. دير راسك تنجح

نودي عليه في المحكمة الجزئية .. سأله القاضي: ما هي الأداة التي طعن بها الجاني المجني عليه.

-أراد أن يؤكد له القاضي السؤال .. قال: ما فهمتش شن معناها؟

-القاضي: باشر ضربه الضارب باشي ضرب المضروب؟

آه .. الضارب.. باشي ضرب المضروب؟ .. ضربه بمدفع.

القاضي في اقوالك في مكتب التحقيق .. قلت ضربه بموس بوخوصه .. هذا ما جاء في محضر النيابة .. واليوم تقول ضربه بمدفع!

لا اليوم بنقول ضربه بمدفع بوخرص.. وانتم اكتبو زي ما أنقول أنا والآ خلوني نمشي في حالي .. اليوم ست شهور وانا نقولكم ضربه بموس ما صدقتونيش.. لا انزيد أنعيدو.. ضربه بمدفع وخلاص.

وتضطرّ المحكمة أن تعيد القضية من أولها .. ويترك سبيل الرجل فلم يستدعيه أحد .. بعدها قال والله لولا مدفع بوخرص، راني ما زال ماشي جاي.. خلهم ايوازو بين موس بوخوصه ومدفع بوخرص، وما جاء من ضرب لن جاء من لقى.. سيورها تحز .. يا مات لحمار يا مات القاضي.

الورطــه

في بلدة من منطقتنا التي تضم عددا من السكان يتوزع بين قرى وبلدات واحياء متناثرة تشكل تجمعات في مزارع متجاورة، كان خليفة رجل من معالم تلك البلدة على الصعيد الاجتماعي فهو معروف على نطاق واسع بين الاهالي، رجل سمح بشوش، صاحب مزحة وحضور شخصي مميزا، له بساطة وتلقائية فريدة من نوعها، يعرفه أغلب من في البلدة، ويعرف هو الكثير منهم. في فترة زمنية دعى خليفة للخدمة العسكرية كمجند في المقاومة الشعبية تصنيف عسكري مستحدث ضمن القوات المسلحة - يلحق به كبار السن الذين فاتهم التدريب العسكري على صنوف الاسلحة وخاصة الخفيفة منها، حيث لم يتم تجنيدهم في السن القانونية المحددة كما هو متعارف عليه: سن الثامنة عشر.

بعد فترة التدريب المقرّره والتي لا تتعدى الثلاثة أشهر، تخرج خليفة من تلك الدورة العسكرية القصيرة، وزعت دفعته على بعض المرافق العامة للقيام بالحراسة على مدار أربعة وعشرين ساعة تتوزع بينه وبين زملاءه.

جاء توزيع خليفة على حراسة خزان للمياه، يفترض فيه تغذية بيوت القرية بالمياه الصالحة للشراب والاستعمالات البشرية الأخرى، استلم خليفة عمله للقيام بحراسة الخزان، ومن الساعة الأولى اكتشف أن الخزان ليس به ماء ومن جهة أخرى هو يعرف أن القرية المقام على أطرافها الخزان، لم تمدد بين بيوتها أنابيب التغذية.. قال في نفسه كما يقول المثل (المرسى قبل السلوقي) وضل يقوم

بعمله : حراسة خزان خال من المياه، هو ينفذ التعليمات العسكرية الصادرة له من وحدته، ولا اعتراض كما هو الامر العسكري.. لكن خليفة المعروف بمزاحه اللاذع أحيانا، يمر به صاحب له فيقول له: كيف حالك يا خليفة؟

يرد خليفه: هاني في ورطه حشاك.

يناكفه صاحبه ليفصح عن قصده، ولماذا في ورطه .. ما هي الورطه يا خليفة التي أنت فيها؟ وانت عسكري تلبس البدلة العسكرية وبيدك السلاح

يجيب خليفه: أنا في ورطه لا هي جيش ولا هي شرطه .. مقاومة شعبية تعس على خزان فارغ مافيه قطره ماء.. تو يا بن عمي هاذي مش ورطة؟!

ومن يومها علقت تسمية خليفة للمقاومة الشعبية، وضل الناس يرددون: ورطه لاهي جيش ولا هي شرطة عندما ينعتون صنف المقاومة الشعبية، وانتهت المقاومة الشعبية الغيت من التصنيفات العسكرية، وغادر خليفة الدنيا عليه رحمة الله، وضلت مقولته مثلا بين الناس، يقولون كما قال خليفة أو ورطه خليفه.

حوّل مكحلتك من فم كبدي

مصباح رجل صادق، أشتهر بهذا وقد عائشته مدة ليست بالقصيرة، وذكروه لي أنه ما زال على قيد الحياة ٢٠/ ٩/ ٢٠١٦ يروى لنا نحن جماعة من رفاقه، أنه كان يمتح الماء من منهل معروف يسقى غنماً له وخاله الذي كان قريبا من سنه، وهما ف يحالهما هذا، حتى وقف عليهم رجل غريب يبحث عن ضاله له – جمل ضاع منه منذ زمن – خاطبهما الرجل: انتم أصحاب بركه كما تدعون (مرابطون) وانا جملي رائح منّى ليه ست شهور.. والله كان ما جاش جملي اليوم ما عاد ناداتك أمك باسمك.. قال مصباح ومدّ بندقيته في بطن خالي.

أجابه خالي في غضب شديد وقد تبرمت سحنته وأعترته حالة غير معتاده: حوّل مكحلتك (البندقية) من فم كبدي وجملك آهو جاي .. قال مصباح: قلت لخالي .. وينه جمله؟ شن رابطه أنت؟!

قال خالي: تو: إجيه جمله خير ما أصب في كبدي سته مخزن البندقيه، وما هي الا لحظات .. ونسمع الرجل وهو ينط من الفرحه، نسمع صوته عاليا يقول جملي جي .. جملي جي.

كان الجمل معتاداً أن يرد الماء كلما شعر بالعطش ثم يصدر إلى الفلاة. يقول: أقبل علينا الرجل باشا يعتذر عما صدر منه من تهديد لنا بالسلاح وأخذ يقول: يا أسيادي اللي تطلبوه انا فيه .. تستور والبركة يا لسياد. قال له خالي وقد امتلاء فخرا وزهوا، وفي تبرّماً من الرجل: ما نبو منك شيء غير أقلب علينا وجهك.

أرتوى الجمل وساقه صاحبه وهو يلهج بالثناء علينا ويردد تستور يا لسياد.

أيام العازه

أحدهم بلغ به الشح مبلغه، وهو يكسب قطعانا من الضان والابل، كسوته البالي من الثياب، وطعامه زهيد متواضع قليل، فهو يطعم الا وجبة واحدة - إدس لعشاه من غذاءه كما يقولون - يمشي حافيا وكذلك عياله حفاة عراة جوعى، وهم في البادية القاسية بطبيعتها.

قال له أحد معارفه: لماذا لا توسع على عيالك ونفسك، وانت لك من الرزق ما به الله عليم؟!

قال الشحيح البخيل: أندس لايام العازه.

قال له صاحبه: انت الآن في أيام العازه، بل في أشدّها - صدق الذي قال البخلا يحرسون أموالهم للورثة.

الشـــين

في احدى بلدات الجبل يذكرون الشين، رجل معروف بالشجاعة والكرم، هو سيد قبيلته، كان هذا في زمن مضى ليس بالبعيد، وكان الرجل مقصودا يأتي اليه الناس لقضاء حوائجهم وفض منازعاتهم والاجتماع به ان لزم الامر. جاء اليه مرة رجل لا يعرفه.. كان يسأل عنه حتى أشاروا عليه بانه في جماعة من قومه يجلسون أمام بيوت النجع، ذهب اليهم الرجل حتى وقف عليهم، بعد السلام قال من منكم الشين؟

تكلم الشين نفسه قائلا، ومن هو الأشين فينا .. يعني الشين منا: عكس الزين فينا.

قال الرجل الغريب الذي يطلب الشين: أنت ياودي حتى كانها ما تعجبكش لكن هذا الحق قال الشين: عرفتني.. ما هي حاجتك؟ تقضي لك بعد أن تصيب من طعامنا .. تفضل وذهب به إلى بيته فاكرمه وقضى له حاجته.

وضل الرجل يذكر الشين ويذكره الناس حتى يومهم هذا.

الذهـــب

هو من أوصول بدوية خالصة، جدوده واعمامه واخواله وعشيرته كلها من أهل البادية الذين يتنقلون بين ربوع شبه صحراء، طلبا للكلأ والماء، كما هو حال البدو في كل مكان .. أبوه وجده من الأسرة ألذي ألزمته ظروفه أن يعيش في وسط حضري في بلدة من بلدان الساحل.. نشا وتربى صغيرا بعيدا عن جدوره، لم يتشرب عادات وتقاليد وأعراف افراد القبيلة، ولم ينهل من معارفهم وثقافتهم واصطلاحاتهم البدوية ونمط عيشهم، تلقى تعليمه الاساسي والثانوي والجامعي في الحواضر والعاصمة ثم سافر من أجل التحصيل العلمي العالي والدقيق إلى الخارج، ونال أعلى الشهادات في تخصصات نادرة، بعدها عاد إلى الوطن وتقلّد وظائف هامة ومناصب سامية في الدولة، لم تسمح له ظروفه بزيارة أهله وعشيرته في البادية الا قليلا، كان يسمع من والده عن اعمامه وأقاربه وجده الذي ما زال على قيد الحياة رغم كبره حيث امتد به العمر حتى تجاوز الميأئة عام.. وكان يتوق لزيارة أهله وجده بالذات الذي سمع عنه من أبيه كرجل حكيم وجيه في قومه وميسور الحال.

حضرت الوالد الكبير - الجد - الوفاة .. ذهب رفق والده لحضور المعزى، وضل أياما في ربوع البادية ينعم بهواءها الطيب وطقسها الجميل، ويأنس بالأقارب ويتعرف على أحوالهم، أثناء جلسات المساء حين يجتمع الجميع في بيت العزاء. وهو ينصت إلى أحاديثهم وثقافتهم التي بدأت مغايرة لما تشبع به هو من ثقافة

ومفردات لغوية واسطلاحات، قصر فهمه عن بعض وانغلق البعض عنه، فهم يقولون اشياء غريبة عنه، ويشيرون في رموز إلى بعض الاشياء يستخدمون التورية والاستعارة والكنايات ولا يفصحون في كلامهم كل الافصاح، بل وجد في لغتهم الدارجة مسميات واسطلاحات ومفاهيم أنغلقت عن فهمه ولم يدرك منها شيئاً.. وهو يجلس بين أعمامه طرق سمعه، واحد من أقاربهم يسأل أحد أعمامه عن أحوال أبله، واين هي - يقصد الرجل المكان - ثم يضيف عندكمش ذهب والذهب في اسطلاحهم أبل ضالة: أي أنها فارقت القطيع، وتحوّلت إلى مرعى ومورد آخر.

والابل الضالة تنقطع عن القطيع لأيام وأحيانا لشهور، ويجد صاحبها صعوبة في العثور عليها، وتكلفة ما تكلفه من مشقة يتكبدها في العثور عليها وأرجاعها إلى عزيلتها.. العزيلة القطيع من الابل المتآلف وغالبا ما يكون من أمهات وبنات .. يجيب عمه عندنا لكن الوالد - جده - عنده ذهب ياسر تسقط الرجل الخبر وعاد مع والده إلى المدينة حيث يسكن .. بعد أيام توفى والده وجاء أعمامه واقاربه يعزون في الفقيد.. سمعهم مرة أخرى يتحدثون عن الذهب .. وقر في ذهنه أن الذهب هو المعدن النفيس المعروف وان جده ترك منه الكثير عندما أنفض المعزى ورجع أعماله إلى ربعهم في البادية .. انتظر وقتا يسيرا، وذهب الرجل المتعلم والحاصل على شهادات عليا من أرقى الجامعات الاوربية إلى اعمامه.

قال لهم: حين تقتسمون ذهب جدي استدعوني لاستلام نصيب والدي قال له عمه الكبير: ذهب جدك خوذه أكله.. غير وتي روحك دير ماطره ماء والهط في هالعروق، أرقى عرق وانزل عرق وشفق ثماشر ما تعثر على بعض الذاهبات.

-شنى معناها دير ماطره ماء وشفق تلقاش بعد الذاهبات؟ قصدك الذهبات؟!

-لا قصدي الذاهبات.. الضالات كيف ما يقولو في الشرق.. يعني نياق رائحات.. شوف تلقاهم بعد حفظه بعد شهر أنت والنصيب

-مانيش فاهم حاجة يا عمي، من جهة تقولو جدي عنده ذهب واجد ومن جيهة تقولو في كلام آخر.

-ماهو يا ولدي كلامنا انت ما تفهمشي فيه، تحساب الذاهبات ذهبات خلاهم جدك في صندوق، الذاهبات يا كبدي نياق خاشات الخلا... أشبح تلقاهم والا ما تلقاهمش.. انت والنصيب.

معهد بالحاج

بالحاج علم فوقه نار، رجل معروف، ومن عائلة كبيرة ومعروفة كعائلة: الهوش وابي سرويل والاربش وضماخ، وغيرهم رجال وعائلات في العجيلات، يذكرهم الناس بالمحامد والمكرومات، هو رجل أشتهر بلقبه اكثر من أسمه من رجالات التعليم الاوائل، عندما كان رجال التعليم قليل، كان من أنجح المربين وتولى صاحبنا مهاماً في التعليم واداراته المختلفة على مدى سنوات طوال، وحين توسع التعليم وانتشر في مدينة العجيلات والقرى التابعة لها، وازداد أقبال التلاميذ الصغار والطلاب على دخول المدارس والمعاهد العالية وحتى الكليات على أختلافها، كان بالحاج يشغل وظيفة مدير إدارة معهد المعلمات الذي أنشئ لأول مرة في المنطقة .. انهالت الطلبات على بالحاج من الطالبات واولياء أمورهن وكل.. يرغب ان تدخل بنته المعهد، أولا لأن مدة الدراسة فيه مختصرة والخريجات منه يفضلن مهنة التدريس على أي مهنة أخرى ومن جهة أن مديره بالحاج رجل من رجال التربية والتعليم الفضلا ومشهود له بالكفاءة وحسن السيرة، ويعرف الناس ويعروفونه على نطاق واسع فهو محترم مجل مبجل، ومن وجوه القوم.

أخذ بالحاج يوزع الطلبات على قوة أستيعاب المعهد، فالفصول محدودة وكذلك المدرسين وكل الامكانيات المتوفرة لديه.. وجد الطالبات الراغبات في الدراسة بالمعهد أكثر من العدد المقرر لاسباب كثيرة منها قرب المعهد من محل سكنى الراغبات واسباب سبقت الاشارة اليها، بدأ يوجه في لين الطالبات وأولياء أمورهن إلى الالتحاق بالمدارس الثانوية أو معاهد التمريض،

والدراسات التخصصية الاجتماعية وغيرها، الا أن أولياء الامور وكذلك الطالبات في المنطقة لا يأخذن بنصائح وتوجيهات بالحاج، وينقطعن في الغالب عن مواصلة الدراسة.

اصبح الرجل محرجا أمام مواطنيه وكلهم يعرفهم ويعرفونه، لكن ما باليد حيلة، هو رجل نزيه وعادل وصادق، أمام ضميره وأمام الناس. فكر في كل وسيلة لاقناع المترددين عليه يلحون لقبول بناتهم في المعهد.. حتى جاء صاحب له وقريب، له دالة عليه وليس بينهم كلفة، من عمره يتمازحان ولا يتحفظان.

قال الرجل لبلحاج: هذي بنتي فلانه تبي تدخل المعهد.

أجابه: المعهد امتلأ عن آخره وليس في الامكان قبول طالبة واحدة.

قال الرجل: يحذوه الامل الداله على صاحبه وقريبه بالحاج: (دبر لها،

أندبر لها انا؟!.. أعطيها لراجل، وكانت البنت حاضرة بينهما.. استحت وخرجت من المكتب وتركت أباها وبالحاج يتجادلان.

قال الرجل لبلحاج: والله الا دبارتك هي السليمة .. نعطيها لراجل وخرج من عنده غير راض.

تداولت مقولة بالحاج في المجالس، وأصبحت نادرة يتمازحون بها

وصارت كل بنت في المنطقة، تدخل بيت الزوجية، يقولون عنها: دخلت معهد بالحاج.

رحم الله الرجل .. ذهب وضلت حكمته أو نصيحته شاهدة على أثره.

بوشــوفه

رجل من رجالات البحث والتحري المشهورين، لم يبلغ فطنته ولا ذكاءه وقدرته الخارقة للعادة على اكتشاف الجريمة أحد مهما تخفت وتعقدت، وصعب لغز حلها وتفكيكها، كان في عهده لم يطاوله أحد او يصل إلى خبرته وقدرته رتبته رئيس عرفاء: (رقيب) وفي الادارة نقباء ومقدمين وحتى عقداء.. كان صاحب فراسة غير عادية، يشم رائحة الجريمة عن بعد.. يقرأ وجوه المجرمين فتفصح له عن فعلهم الذي فعلوه وحتى نواياهم وكانت له مع بعضهم صحبة يوظفها لخدمة اغراضه.. اكتشاف الجريمة .. يحكي عنه: كان مرة يزور أحد معارفة وقد أشتم منه رائحة جريمة ارتكبها وأخفى معالمها في مزرعته .. الرجل قتل مستخدما له بسبب شجار نشب بينهما .. ودفنه في ركن من المزرعة تحت شجرة مشمش.. جاء بوشوفة بعد ان سمع باختفاء الرجل المستخدم فاستقبله صاحبه مرتكب الجريمة مرحبا قائلا له: هيا الى المربوعة لتشرب قهوة وكرر الترحيب على غير العادة.

قال بوشوفه: شن رائك نشربوا القهوة في ضل المشماشة؟

تفضل زي ما تبي .. لكن المربوعة خير.

المشماشة: ضل ورواح وقدامنا البيودجا، بخاخ الماء جو بارد يا سلام.

أذعن الرجل لرغبة بوشوفه وهو يتلمض من الداخل خوفا ورعبا وذهب يحضر القهوة.

لما عاد يحمل صينية القهوة وهو يحاول أن يتماسك، قال له بوشوفه:

يا صاحبي انت تعرف تخنب وما تعرفش أدس .. نادي من يجهر يحفر تحت (البيودجا) خلي ندفنو الراجل في المقبرة، خير من أديرلك الريحة وتنتن ريحتك.

شن الكلام اللي تقول فيه يا سي باشير رجل شنو ومقبره شنو؟

الراجل اللي ضربته ضربة شيطانية جت بعمره الله يرحمه.

وما هي الا دقائق والرجل يحاول الانكار حتى داهمت الموقع فرقة البحث بأمرة بوشوفه اكتشفت الجريمة وأودع بوشوفه صاحبه السجن، بعد الاجراءات بالطبع.

ومرة أخرى كان بوشوفه يسير في طريق بين المزارع وكانت اشجار الهندي: تغطى الطريق من الجانبين تحجب الرؤيا عن اليمين والشمال واذا بوشوفه يتوقف يتشمم رائحة شواء على غير العادة في ذلك المكان .. سلك مسلكاً ضيقاً بين الاشجار، وضل يمشي حتى وقف على جماعة تجلس بجوار (مردومة فحم) كانوا يتظاهرون بانهم يعملون في تحضير الفحم، لكنهم في واقع الحال كانوا قد أغتالوا رجلاً من أعدائهم ودسوه في مردومة الفحم لتختفي معالم الجريمة ولا يعثر له على أثر .. لكن بوشوفة بحدسه وحاسته السادسة استنتج: أن الرائحة التي تشممها ليست رائحة شواء خراف أو ماعز أو اي لحم آخر، انما هي رائحة لحم أدامي.. لذلك قدم على الجماعة وسلم عليهم ثم جلس بينهم قائلا: والله عندكم شواء طيب اشتميته من الطريق فقلت لعلني أصيب منه شيئاً.. قالوا: الجماعة، مرحبا.. ليس عندنا شواء .ز ولكن تفضل سنذهب إلى السوق ونشتري لحما ونعد لك الشواء يا سي باشير.. غالي وطلب رخيص.

قال: سأعود اليكم عندما تعدون الشواء بعد ساعة، وذهب وتركهم في

ارتباك شديد.. وكان بوشوفة يرافقه افراد من التدخل السريع عندما يخرج في مهمة لأكتشاف جريمة ما.. عاد ومعه مجموعته المسلحة قبل أن يدرك المجرمون أنفسهم وقبض عليهم فنالوا جزاءهم.

قيل لبوشوفة كيف عرفت انها الرائحة رائحة آدمي؟

قال: لم أشم رائحة مثلها من قبل، فعرفت أن في الأمر شيئ غير معتاد.

وبوشوفه هذا من وجهاء الزاوية ورجالها المعدودين وهو من قبيلة أولاد. جربوع القبيلة المعروفة بعراقتها وأوصولها العربية القحة، وفي الزاوية رجال وأي رجال، يذكر الناس: على الديب وبشير بن حمزه ومحمد بن يونس ومحمد بن عمار وغيرهم كثيرون عاصرناهم، ومن المجاهدين : شلابي وبنيني وأشكال والعروس وغيرهم مع احترامنا للجميع من هم احياء ومن هم في ذمة التاريخ.

فهرس المحتويات

حتى بودرنّه إطير ٣
نادرة تبرة ومصباح ٦
نـــــادرة ٩
وحكاية المحمول ١٢
تلك هي مشيئة الله ١٩
عمـــــران ٢١
لا شرطة ولا بلدية ٢٢
بـــن يونـــــس ٣٢
بنـــــيّ أمـــــيّ ٥٣
شيل التراب علي ظهرك ٣٧
كانش شميته شم ٣٩
الفتي العريان ٤٠
الفســـــيه ٤٦
الدّف والزّق ٤٧
ما من اللّى تلفي ويلفي نعيمها ٤٨
شاب عمره خمسة عشر يوما في بطن أمه ٥١

الفانـــــس ٥٣
نار عمنول ٧٤
خـــالك عامـــر ٧٩
حلومه عندك أمّا عين ٨١
خليفة والطماطم ٨٣
عمك الزنتاني وشباب المدينة ٨٥
أستاذ الفلسفة يرعي الإبل ٨٨
حسبنا الله ونعم الوكيل ٩٤
بـــن يعـــلى ٩٧
القســـــم ١٠٠
شـــراب عاشـــور ١٠٤
المرابطـــــون ١٠٦
الكذابون والنصابون ١١٤
الجود والشجاعة ١١٨
ادبـــرو روســـــهم ١٢٠
ســـارح خالتــــه ١٢٥
شيباني لحيتك صوفه وما تهنيش ١٢٧
سلطان ١٢٨
هذا من فضل ربي ١٣١

أميّة شعير ١٣٣
من أقوالهم ١٣٩
من أقولهم زي البنادق ١٤١
سالم عندي ما سالم منه حد ١٤١
من أقوالهم ١٤٣
من أقوالهم هذا ما فعله والدي ووالدك ١٤٥
من أقولهم العنـــب يبكــــي ١٤٧
جابها الليل وجت أتّوامه ١٤٨
زرزح يا طبل العز ١٤٩
علاش ماكلاش البسيسه ١٥٠
سويدي رمضان سامحني ١٥١
سائق الأفكو ١٥٢
عمك يقدر يخنب ١٥٣
ليمنه شادين بيها في الله ١٥٤
ما اطوّلش علينا المخطر ١٥٥
أش بيك بارك ١٥٦
ماذا يفعل ذاهب العقل ١٥٨
كــف حليمـــة ١٦١
مفارقات وحكايات صغيرة ١٦٤

المـــــرؤة وأهلهـــــا ١٧٢
وعبر وعظات فيما يلي ١٨١
حكاية سالم ١٩١
عبرة لمن يعتبر ١٩٨
الكلب الهبهاب ٢٠٢
لحوار ٢٠٣
زوارة والعرب ٢٠٦
يا بوي أمته نولّو شرفه ٢١٠
عبيد طرابلس ٢١٣
بين العربى والزوّاى ٢١٥
الدجاج صنعة ولايا ٢١٧
خوذ نصفك ولا تلحقني لا نلحقك ٢١٩
من أقوالهم ٢٢١
شرع مهيري ٢٢٤
الشحيح ٢٢٦
لا فاري لسود ٢٣٣
الجميـــــل ٢٤٦
بين قاليل ودحمان ٢٤٩
بوعجاجه ٢٦٦

الكلب الكبير ٢٦٨
حكاية سارح الجلاد ٢٧١
الزميطه بالزيت ٣١٣
الحاجه امباركه ٣١٥
مانيش صيّدتك ٣١٦
طريق خانب التبن ٣١٨
الغالب والمغلوب ٣٢١
فلسفة حمّود ٣٢٣
ميزان العنتير ٣٢٥
خذت الشهادة ٣٢٧
الحاج خرتول ٣٢٨
يا لسياد الطفل هنا شن سماه؟؟ ٣٢٩
حمد بن أمحمد ٣٣١
توّ راهم إوازو ٣٣١
عندكمش بقري؟ ٣٣٣
انشاء الله ما إوليش ٣٣٤
يا ربي ارزقني بمفتاح بن سويسي ٣٣٥
صابة عامر ٣٣٧
ناقة بن دلفو ٣٣٨

الكبش خش ٣٣٩
زي مربوعة الشيخ ٣٤١
رميله واسماعيل ٣٤٢
حصّل ما حصّل ٣٤٣
جــــاوارا ٣٤٤
الطيّارى ٣٤٥
كبش الجنة ٣٤٧
تعبتوني ٣٤٩
ماني عمة حد ٣٥٠
البازين يبّى لباسه ٣٥١
أمّاله بتولّي فيل ٣٥٣
لكل رزقه ٣٥٤
مدفع بوخرص ٣٥٥
الورطـــــه ٣٥٧
حوّل مكحلتك من فم كبدي ٣٥٩
الشـــــين ٣٦١
الذهـــــب ٣٦٢
معهد بالحاج ٣٦٥
بوشـــوفه ٣٦٧